محمد الجيزاوي

الدَّمُ والحَلِيب

رواية

عصير الكتب

الدم والحليب

الكتـــــاب: الدم والحليب
المـــؤلـــف: محمد الجيزاوي
التدقيق اللغوي: نرمين عياد
تنسيق داخلي: سمر محمد
الطبعة الأولـى: سبتمبر 2020
رقم الإيـــداع: 2020/1394
I . S . B . N: 978-977-992-121-1

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©
عصير الكتب للنشر والتوزيع

الدم والحليب

رواية

محمد الجيزاوي

إلى وفاء الحبيبة..

تلك التي رحلت، فسكن العالم واختفت ألوان كل شيء.

اليوم الأول

لستُ المُـخلِّص الذي انتظره أحفاد إسرائيل، ولم أكُن يومًا المسيح الذي انتظره أتباع يسوع، ولا أنا المهديّ الذي انتظره المسلمون، بل كنت دومًا وفقط، حسّون.

أجـلس اليوم في الهواء، يملأ نسيم الجبل صدري، وأنتعش بعيدًا عن جو الكهف الخانق وظلمته، منذ أربعين يومًا لم أغادر جدران الكهف؛ إذ حبسني قصف الشُهب المُنهمر، لولا «غلام» لمُتُّ جوعًا، الحمد لله أنَّ الكلاب لا ترفع رأسها للسماء. منعته من الخروج عندما اشتد القصف، خوفًا على حياته، وعندما طال نباحه الجائع، أدركت أني لا أحميه من الموت، فلو ظل معي لكان مَوتُنا معًا محتومًا، بينما لو خرج لربما مات، ولربما جاء بأفعى نتقوت بها فتنجينا معًا.

اندثرت أمم الأرض، ومَن بقيَ مِن الناس قتلته النيازك. منذ سبعين سنة وانهمارها لا يتوقف إلا أيامًا، حتى يخرج مَن كان مختبئًا، فكأنَّ خروجه قد رنَّ الجرس للسماء، فتستيقظ قاذفةً بالشهب، لتحرق كل مَن يمشي على قدمين، لعل غلام قد نجا لأنه يمشي على أربعٍ، ليته لم يمرض، فقد صارت حياتي وقفًا عليه، طيلة الأربعين يومًا وهو يطعمني، نأكل من صيده، ونشرب من خيط الماء المُتسرّب في جدار الكهف، ثُم نجلس معًا يؤنس بعضُنا بعضًا، تنير لي عيناه الوديعتان ثوب العتمة، وأُسليه بحكايات ألفين وسبعمائة سنة، كنت أدخر القليل من آخر حيّة صادها، أطعمته ما ادخرت وظلَّ بطني خاويًا، وعندما خرجت لأعمل عمله، لم ألمح صيدًا، نفعني الكلب ولم أنفعه. إذا كان هذا الجبل هو حقا جبل الرب، فلماذا ليس فيه عُشبة واحدة يجود بها؟! حتى نهاية الوجود لا تُبرر كل هذا القحط!

تبدل كل شيء منذ خَبَت الشمسُ فصارت بيضاء، تبعث ضوءها على استحياء، كأنها شمعة في الرمق الأخير، تمنح شيئًا من الدفء، لكنه لا يكاد يرد بردًا، والقمر المُحطم ما عاد لنوره من وجود. من رأس الجبل أرى بحر القلزم، دخانه المُنبعث من قلب الموج يُنذرني، يبدو أنَّ الأمر قد اقترب، لعلها سنوات وتُطوى صفحة الكتاب الكبير، بل لعلها أيامٌ قليلة لا سنوات.

ليس بحوزتي إلا صندوق أمي، أحمله معي منذ قرون بعيدة، وفيه كل هذه الأوراق وتلك الأقلام، لعلها كانت تنتظر لأمر ما، وها هو قد أتى، ظننت أنَّ أصابعي ستعجز عن كتابة حرفٍ، لكنها فعلت، وها أنا أكتب.

إذا أمهلني الجوع ولم يقتلني، وأمهلني الوجود ولم يندثر، فسأدوِّن الحكاية كلها، سأكتب كل شيء رأيته منذ ولدتني أمي في قرن الشمس بأرض اليمن، منذ ألفي سنةٍ وسبعمائة عام.

أنا حسّون ابن صفية بنت حزقيال بن ميمون القداح.

وأنا، حسّون بن عبد الله بن إسماعيل بن شمس القرشي.

«حزقيال» صانع الخناجر، هو جدّي لأمي. أمهر مَن صنع «الجنبيَّة» هم اليهود، وأمهرهم كان جدّي حزقيال. يهود اليمن يصنعون الجنبيَّات ولا يحملونها، تعاقبت الممالك وتغير كل شيء في اليمن، إلا اليهود، ظل مُحرمًا عليهم حمل الخناجر، فقط يصنعونها. قريتنا اسمها (الجدس)، يسكنها بضع مئات من اليهود، وقليل من المسلمين لا يزيدون على عشرة بيوت، لكن جُل الأرض كانت للمسلمين؛ إذ يكره أجدادي الزراعة منذ خلقهم الله، مهنتهم على الدوام كانت التجارة، وبعض الحِرف، مثل جدّي حزقيال صانع الخناجر.

لم يكُن لجدّي من أبناء، سوى أمي «صفية»، ووحدها مَن كانت تعينه على عمله منذ بلغت الثامنة عشر من عمرها، وكان جدّي حينئذ في الأربعين من عمره، تجمع له الفحم في الموقد الكبير، وتنفخ على النار، وتُبرد الخناجر بعد حدِّها، كثيرًا ما كان جدّي يتركها لتعقد البيع مع مَن يأتون لشراء الجنبيَّات. كان التجار يأتوننا من أطراف محافظة (إب)، التي تقع فيها قريتنا، أو كما يسميها أهل إب (قرية اليهود)، وأحيانًا كانوا يأتون من (صنعاء) إلى بيت جدّي، لشراء خناجره. أبي كان ممن يأتون من صنعاء البعيدة، فوقعت أمي في قلبه، وأمي عشِقته.

«إسماعيل القرشيّ»، هو جدّي لأبي. أحدُ فقهاء (المالكية) في صنعاء، ورأس الشيوخ المُعلمين لقراءة القرآن برواية «الدوري»، حفظ أبي «عبد الله» القرآن على يديه، ثُم أطلقه جدّي للتجارة، واختار أبي أنْ يتاجر في الخناجر، فاستقر خنجرُ أمي في قلبه حبًّا.

دومًا كانت تقول لي أمي: «كان أبوك زينة الرجال، كان كريمًا أمينًا، وكان جميلًا». غير أني لست أذكر شيئًا من كل هذا؛ إذ مات وأنا في الخامسة من عمري، لكن أمي لم تكذب يومًا، فصدقتها وأحببته. كثيرًا ما كنت أراها تبكي حين تخلو بنفسها؛ فأعرف أنَّ سحابة أبي تتجول بقلبها فتهطل بعينيها، فإذا رأتني كفكفت دموعها ونادتني: «تعال سأحكي لك عن أبيك». وكأنها كانت تحكي يومًا عن سواه!

عندما رآها أبي أول مرة، اشترى منها ثلاثين خنجرًا، لكنها أعطته ثلاثين وواحدًا، وقالت له: «هذا الخنجر فوق البيع هدية». لعلها لو لم تهدِه خنجرًا لما كنت أنا، عاد إليها أبي مرة بعد مرة ليشتري خناجرها، وينعم بالوصال، أحبَّ أبي اليهودية، وعَشِقَت أمي مُسلمًا، فأنجباني بين بين. على أطراف قرية الجدس وتحت زيتونة في بستان لا صاحب له، كان أبي ينتظر، وكانت أمي تذهب إليه، بالحُب باح لها، وبالحُب أسَرّت إليه، فتعاهدَا.

رفض جدّي إسماعيل حلمهما، وقال: «لا يتزوج ابني من يهودية، هل حفّظتك القرآن لتأتي إلينا بواحدة من نسل القردة والخنازير وتتخذها زوجة؟!». ومثله رفض جدّي حزقيال، وقال لأمي صفية: «لن أُلقي بطعامي للكلاب».

تسللت أمي صباح يوم من البيت، ويممت وجهها قِبَلَ مدينة (ذي السفال) حيث ينتظرها أبي، حسَمَت الأمر وقالت له: «أبوك لا يريدني، وأبي لا يريدك، فتزوجني يا عبد الله وأنا لك ما حييت». فقال لها أبي: «انتظريني هنا». ودخل إلى (المسجد الكبير)، فصلَّى الفريضة ثُم انتظر حتى فرغ المسجد من أغلب رواده، وجد رجلين يضطجعان ليستريحَا من الحر، فجلس إليهما وسألهما: «أتشهدان على زواج رجل مُسلم؟». تزوجَا، وعاد بها أبي. وعند أطراف قرية الجدس، تحت زيتونتهما المباركة، والشمس قد بلغت المغيب، قال لها أبي: «أدخل بكِ، هنا، والآن». فقالت: «اِفعَل». ففعل، حَبَلَتْ بي أمي.

كان أبي يذهب إليها مرة كل شهر، وعند الشجرة يلتقيان، أخبَرَته أمي أنَّ شيئًا ينمو بين الأحشاء فقال لها: «والله لن أخزيكِ، وسأخبر أبي وأباكِ بزواجنا، لن يُهينكِ إنسانٌ يا صفية». لم يكُن قد مضى على زواجهما إلا ثلاثة أشهر، وفَّى أبي بعهده الأول، فلم يُخزها، وأخلف وعدَه الثاني، فلم يُشهِر أمرَهما؛ إذ حبسه الجنود الإنجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد، واقتادوه إلى السجن بتهمة بيع السلاح إلى الخارجين على الغزاة.

قضى أبي في سجنهم سنتين وبضعة أشهر، عند أول يوم في محبسه، سجد لله ودعا دعوته: «يا رب، لا تفضح مَن أُحب». وعندما علمت أمي بسجنه ذهبت إلى المعبد وسجدت لـ «يَهْوَهْ» ودعت دعوتها: «يا رب، لا تفضحني بِمَن أُحب». وفي رحم أمي دعوتُ مؤمِّنًا عليهما فقلتُ: «يا رب، استجب». فاستجاب.

خمسة أشهر مرت على سجن أبي، كانت تموت أمي فيها كل يوم فزعًا من افتضاح أمرها بتكور بطنها، لكنني حفظت سرها، فلم أكبر بالرحم، ظلَّ بطنها ممسوحًا ومشدودًا كعذراء لم تعرف الحَبَل، حتى إنها في شهرها الثامن ولم يتغير فيها شيء، إلا انقطاع الطمث، واجتياح الآلام لبطنها في بعض الليالي. خاف عليها جدّي حزقيال، فأخذها إلى عجوزٍ من عجائز اليهود بالجدس، امرأة كانت تطبب النساء ولديها ترياق لكل وجيعة. سألت العجوز أمي:

- مِم تشتكين يا بُنية؟

- بطني يا خالة.

وضعَت العجوز يدَها على بطن أمي، وغرزت أصابعها الطويلة أسفل السُرة، حتى شعرتُ بوقع أصابعها على رأسي داخل الرحم، اضطرب وجه العجوز، ثُم أمرَت جدّي بالخروج، فخرج. سألت أمي عن أمر حيضها، فقالت أمي:

- لم يأتِني الطمث منذ ثمانية أشهر.

- أمتزوجة أنتِ يا بنت؟

- لا.

- هل وقع عليكِ رجلٌ من يهود الجدس؟

- لستُ عاهرًا يا خالة!

- أنتِ حُبلى، وأصابعي لا تكذب أبدًا.

اضطربت أمي، فضَرَبتُ جدار الرحم لأقول لها: «اثبُتي». فثبتت، ثُم قالت للعجوز:

- تحفظين سرّي يا خالة؟

- أحفظه بدمي.

- عرفتُ رجلًا، كان يأتينا من صنعاء ليشتري خناجرنا، أحببته، وحبلت منه.

- أيهودي هو؟

- لا، بل مُسلم.

- منذ متى واقَعَكِ؟

- ثمانية أشهر.

- ما أحسبُ الذي في بطنكِ إلا شيطانًا، أو آية من آيات «يَهْوَهْ»، لكن كيف يرسل الله آياته بالزنا؟!

- لم أزنِ يا خالة، تزوجته قبل أنْ يواقعني.

- يا قدوس! إنَّ لكِ لشأنًا أعظم من زوال الهيكل، ثمانية أشهر ولم يكبر، كالدودة في بطنكِ يلتصق! عودي إليَّ مرة بعد مرة، ولا تُخبري أباكِ بشيء، فلن يُولد هذا الذي في بطنكِ بعد شهرٍ أبدًا!

عامٌ كامل وأمي تزور العجوز، حمل الأسرار ثقيلٌ على نفس الوحيد، فلم تَعُد تذهب إلى العجوز لأجل آلام بطنها، بل لأنها الوحيدة التي علِمت بسرّها. كل مرة تتحسس العجوز بطن أمي وتقسم بغير حاجة: «ورب هارون إنَّ في بطنكِ آيةً». كذبت العجوز، لم يكُن به سواي، أنا حسّون التعيس، مزحَة القدر وطرفته السخيفة، التي ظل يرددها ألفيّ سنة وسبعمائة

عام، دون أنْ أضحك لها.

لم تحتمِل العجوز غرابة الأمر أكثر من ذلك، فذهبت إلى المعبد، وأخبرت الحاخام «باروخ» بسرّ أمي. بعد غروب الشمس كان الحاخام في بيت جدّي حزقيال، سأله بغير مقدمات:

- كيف حبلَت ابنتكَ يا حزقيال؟!

فزع جدّي لهول السؤال وقال للحاخام:

- لو قالها غيرك لغرزتُ خنجرًا بقلبه، ابنتي طاهرة وليست زانية.

- لكن العجوز أخبرتني إنها حُبلى منذ سنة وثمانية أشهر.

- خرفُ العجائز مفهوم، لكن كيف يُصدق الحاخام مثل هذا الجنون؟! لو صدقت أنَّ ابنتي زنت، فكيف تُصدق أنها حُبلى منذ سنة وثمانية أشهر، ولم تلِد؟!

أبَى الحاخام إلا أنْ يراها بنفسه، فدخلَت عليهما أمي، وقالت وهي مرفوعة الرأس حازمة كالسيف: «لستُ زانية، ونعم أنا حُبلى، حملتُ به من نكاح لا من سفاح». صاح جدّي: «تزوجتِ المُسلم؟!» أجابت أمي: «نعم».

أصبحتُ ابن الحبيسين، أبي في زنازين الإنجليز، وأمي في بيت جدّي الذي حبسها ليمنعَها عن حبيبٍ! لم يُصدق أنها حُبلى، فمَن هذه التي تحبل سنة وثمانية أشهر بغير وضع؟! ظن أنها تخدعه، ولم يكترث لكلمات الحاخام بأنَّ في بطنها آية لليهود، أرسلَها يَهْوَهْ. كان كل هَمّه ألا يأخذ ابنتَه يمنيّ مُسلم، تمامًا كما كان همُّ جدّي إسماعيل ألا ينكِحَ ابنه يهودية على غير دينه، لكن الكتاب قد وقع، واستقر السهمُ بقلبِ القوس، فلم يمنع الدينان ما قرره صاحب الدينيْن.

خرج أبي من سجنه الذي طال لسنتين وبضعة أشهر، وهو أكثر حزمًا وأطول حزنًا، فعلَت به السلاسلُ ما تفعله بالرجال، منحته شيئًا وسلبته أشياء، وكان مما منحته: مَضَاءُ العزم، ومما سلبته: الصبر.

أدرك جدّي إسماعيل أنَّ ولدَه لم يَعُد ذاك الذي يمكن حملُه على شيء لا يريده، فلم يمنعه عن مراده، ولم يخضع له أيضًا، جدّي لا يتراجع لكن يمكن أنْ يغيّر موقعه، رضيَ بزواجه من صفية، ورفض أنْ تسكن ببيته. اشترى أبي منزلًا صغيرًا في (غرقة القليس) وجهَّزه، ثُم ذهب إلى الجدس وقد حزم أمره، قال لجدّي حزقيال: «صفية زوجتي، منحتني نفسها برضاها، وأنا عليها أمين، فإنْ منعتني زوجتي شكوتُكَ لشيوخ العشائر، ولستُ بالرجل الذي يخذل أهل بيته». كان جدّي حزقيال يستطيع أنْ يمنعه إذا شاء، لكن الكلام قد كَثُر، ودخان الأعراض سريعُ التطاير، أراد أنْ يُخرس الألسنة، بإعلان ابنته زوجة للرجل الذي يتهمونها به، فرضيَ بالزواج. جهَّز ابنته بثوبين للشتاء ومثلهما للصيف، وقال لأبي: «لكل عروس مهرٌ، فأين مهر ابنتي أم أنكم لا تُمهرون بنات اليهود؟!». فأمهَرَه أبي أوقية من الذهب وأوقيتين من الفضة، عملًا بما أوصاه به جدّي إسماعيل قبل سفره حين قال له: «أمهِر زوجتك ولا تفضحنا عند اليهود».

بعد إعلان العُرس مكث أبي في بيت جدّي حزقيال ثلاثة أيام، يستقبل فيها المُهنئين، وكان الحاخام باروخ على رأس الوافدين، دخل باروخ على أبي وهو جالس مع جدّي واثنين من شيوخ اليهود، فهنَّأ الحاخام جدّي، وتحدَّث مع الشيخيْن في صغائر الأمور وشوارد الأخبار، دون أنْ يُكلم أبي كلمة واحدة، جيء بالطعام فأكل مع الآكلين، يأكل لقمة ثُم ينظر حوله، كأنه يبحث عن غائب، يجول ببصره في كل مكان، وتستقر عيونه على كل الوجوه إلا وجه أبي، وبعدما رُفِعَ الطعام ونزل الشراب وانتهت الوليمة، أتاهم جدّي بوعاء وسطل ماء، يصب منه على أيديهم، فكان باروخ آخر من غسل يديه، وبينما

يمسك بالمنشفة، ودون أنْ يرفع بصره عن أصابعه التي يمسحها واحدةً بعد أخرى، سأل بصوت خفيض كأنما يُحدّث أصابعه: «هل حقًّا حمَلَت منك صفية؟». احمر وجه أبي وطفح الغضب من عيونه وأجابه:

- وما شأنُكَ بهذا؟

- كل أبناء اليهود عيالي، وشأنهم شأني، فأخبِرني، أحَبَّلتها؟

- ذاكَ أمر يعلمه الله، والعربيّ لا يُطلِع الغرباء على سرّ أهله.

- اعلم يا بنيّ إذًا، إنَّ ما في بطنها إنما هو يهوديّ، ولأجل اليهود جاء، والولدُ لأمه.

- بل الولدُ لأبيه، ولستُ آبه لأمرك ولا يُلزمني قولك، أما صفية فهي على دينها ما شاءت، فلا أحمِلُها على ما تكره ما حييت.

ذهبَت أمي إلى غرفة القليس؛ حيث البيت الذي أعدَّه لها أبي، زارتهما جدّتي «رضية» لتبارك العروس، بشَّت لها وحنَّت عليها وامتدحت ملاحتها: «ما أجمل بنات اليهود، أحِبّي ولدي يا ابنتي فأُحبك». ولم تُحب أمي يومًا سوى أبي، فأحبَّتها جدّتي.

بعد ثلاثة أيام، ارتفع بطنُ أمي واستدار، اختبأتُ في رحمِها سنتين وسبعة أشهر، ثُم اكتملتُ بثلاثة أيام، حسبه أبي أنه مرض ألمَّ بها، وانتفخ بطنها على أثره، فقالت له أمي: «لم يرتفع بطني بالمرض، بل هو السرُّ الذي ستَره الله علينا، ثُم نفخَه في بطني فاكتمل بالأمن». لم يخلُ قلب أبي من الظنون، تنازعت الثقة والريبة في قلبه، قد أخبَرَته أمي قبل سجنه إنها حُبلى فصدقها، ودعا لها بالستر في محرابِ السلاسل، لكنها دعوة مَن يعلَم أنه لن يُستجاب له، وبعدما مرّ شهر وراء شهر دون أنْ يبلغه في محبسه خبر حملٍ ولا وضعٍ، أصبح غالب ظنه أنَّ أمي توهَّمت الحمل ولم تستوثق، خرج من السجن وأعلن زواجه منها وأخذها لبيته في غرفة القليس، وهو لا يُصدق أنها كانت حُبلى، رغم أنها أقسمت على ذلك غير مرة، فبهتَته استدارة بطنها في ثلاثة أيام، ثُم وضعُها في اليوم السابع من دخوله بها في غرفة القليس، ساعتها علِمَ أنَّ دعوة السجن قد أصابت أُذنَ السماء، لكن جدّي إسماعيل لم يصدق الأمر كله، قال لأبي:

- امرأتك زانية، حَملَت من غيرك ووضعَت بفراشك، طلّقها يا بُنيّ.

- بل هو ولدي يا أبي.

- كنتَ في سجنكَ سنتين وبضعة أشهر ولم تقربها إلا منذ أيام، فمِن أين جاءت به؟

- مني يا أبي، دخلت بها قبل أنْ أُسجَن، ودعوت الله أنْ يستُرها، فستَرها.

- أتحسب نفسك نبيًّا يُجري الله معجزاته على يديك؟! بل فَجَرَتْ بنت اليهود وألصقت بك نطفة رجلٍ آخر، فافعل ما أمرتُك، وطلّقها.

لم يكُن جدّي بحاجة إلى سبب جديد ليكره أمي، ولم يقف ولو لمرة واحدة ويسأل نفسه كيف استدار بطنُ أمي في أيام ثلاثة؟! ولو نادى مُنادٍ من السماء بطهارتها، لما صدق جدّي النداء، ففي قرارة نفسه أرادَ أنْ يُكذبها. قطَعَت ولادتي كل طريق بين أبي وأبيه، نبذَ ابنه ولم يزره قط، ومنعه من دخول بيته، فكانت القطيعة التي لم تنتهِ إلا بموت أبي.

وحدها جدّتي آمنت بحكايتهم، آمنت بغير دليل ولا برهان، لعلها صدقت حكاية أمي، لتخفف عن أبي قسوة أبيه. صبرَ

أبي على تلك القطيعة ولم يخذل صفيتَه، أخبَرَتني أمي إنه كان يشتاق لأبيه، فيذهب إلى المسجد في عتمة الفجر وينتظر حتى يدخل جدّي في صلاة السُنة، فيجلس أبي قبالته ليُشبِع عينيه من وجه أبيه، ثُم يعود لأمي دامعًا، فتضمُّه بين جناحيها، وتقول له: «أنا أمك وأبوك يا حبيبي». فيبكي على صدرها حتى يطمئن.

ثلاثة أشهر مرّت على مولدي، ولا يعلَم أحد مِن الناس أنَّ ثمة وليدًا بالبيت، لم يمنحني أبي اسمًا، ولا سألته أمي يومًا: ماذا نُسمّيه. كأنهما يترددان في الإقرار بأنَّ ولدًا مكث برحم أمه سنتين وسبعة أشهر. بقيتُ نكرة، حتى كانت ليلة استيقظ أبي فيها فزِعًا، فضمّته أمي وسألته:

- ما الذي أفزعك؟ أرأيت حلمًا أم ماذا أصابك؟

- نعم رأيت، رأيتُ نفسي في أرض بيضاء لا يحدها شيء ولا تقطعها أودية ولا جبال، لا صخور فيها ولا رمال، لا شيء سوى أرض بيضاء

كالثلج لا نهاية لها، وأنا أقف وحيدًا وفي يدي سيفٌ لا مقبض له، ثُم رأيتُ جيوشًا لا حصر لها تحيط بي، كأنما انشقت الأرض عنهم، يزحفون نحوي كالسيل، ولا أدري مِن أين أتوا، ولا لِمَ يقاتلونني! كانوا من العرب والعجم، بيضٌ، وصُفرٌ، وسودُ الوجوه، من كل جنسٍ كانوا. أحاربهم وأنا أمسك بالسيف الذي لا مقبض له، فأدمَى حدَّهُ يدي. ثُم نزل المطر وأنا أقاتل، لم ينزل بالماء، بل بالحجارة، فقتلت الحجارة كل الجنود، وضربني حجر مثلهم، فسقطتُ، وسقط السيف من يدي، لكنه لم يقع، بل غُرِس بالأرض مُنتصبًا وحده في الميدان الفسيح، ثُم صحوت من حلمي.

- عجيبٌ حلمك، ما تأويل ذاك يا عبد الله؟!

- الولد سيفُ أبيه، وأنا أهملتُ السيف فلم أصنع له مقبضًا كي أمسكه بيدي، آن لنا أنْ نجعل للولد اسمًا يمشي به في الناس يا صفية.

- سمّهِ إذًا.

- بل أنتِ يا صفية مَن تُسمّينه، لا أحد أَولى به منكِ.

ابتسمَت أمي كأنها كانت تنتظر وقد أعدَّت للأمر عُدَّته من قبل، فقالت:

- أُسمّيه حسّون.

- حسّون! ولِمَ هذا الاسم الغريب؟!

- عندما كنتَ في محبسك، كنت أذهب إلى البستان الذي جمعنا، فأمسح على جذع الزيتونة التي كانت تظللنا وأبكي، وفي كل مرة بكيت فيها، كان يأتي طائرُ الحسّون فيحط على شجرة الزيتون، ويغرّد لي حتى أبتسم، فإذا ابتسمتُ طار، وإنْ عدتُ للبكاء عاد ليغرّد، فقلتُ له: إنْ كان ما في بطني ولدًا فسأُسمّيه حسّون، فنشَر جناحيه وحطَّ فوق رأسي.

- إذًا هو حسّون يا صفية.

صرتُ «حسّون»، مثله أقتاتُ على بذور الشوك، الرياشُ الحُمْر حول عنقي تكسوني بلون الدم، وذيلي أسود بلون تتابُع الأحزان، وبطني أبيضُ كصفحات أيامي المتشابهات، أصابت أمي حين سمَّتني باسمه، وأصابَ أبي حين رضيَ به، ومعهما أصابني القدر.

لم يَعُد أبي يتاجر بالجنبيّات، لكن أمي لم تعدم حيلة؛ إذ أصبحت تصنع السلال كأحسن ما تكون الصناعة، ويبيعها أبي في السوق الذي يُنصب قرب (قصر السلاح) كل جمعة، تبدأ أمي عملها يوم الأحد، ويساعدها أبي في تضفير الخوص وفرد الأعواد، وتنتهي منها ليل الخميس، وتستريحُ السبت فلا تصنع فيه أي شيء، شأن اليهود. عندما اشتد عودي وبلغت السير على قدميّ، أصبح أبي يأخذني معه إلى صلاة الجمعة في (المسجد الكبير) بصنعاء القديمة، فأصلّي معه ثُم نعود إلى السوق، وفي الجمعة التي تليها تأخذني أمي إلى حيّ (قاع اليهود) لنذهب إلى المعبد فأصلّي معها. اختلَط الدينان في قلبي، فلم أعرف يومًا مَن أكون، حسّون ابن صفية، اليهوديّ كأُمه؟ أَم حسّون بن عبد الله، المُسلم كأبيه؟

عندما بلغتُ الخامسة مات أبي، ومعه ماتت الحياة في قلب أمي، وقف عالـمها على سنوات من ذكرياته، فظلت تذكُره حتى لحقت به بعد سنوات طوال.

في ليلته الأخيرة، وبعدما عاد من صلاة العشاء، ضمّني إلى صدره، وظل يردد: «أنت ابني وأنا أبوك، لا تصدقهم إنْ طعنوا بك، سيجعل الله لك أمرًا يا ولدي، أنت ابني وأنا أبوك». ثُم بكى كثيرًا واشتد عناقه لي، وأنا مُستسلمٌ لضمّةٍ أخيرة. أشفقَت عليه أمي وقالت له وقد أدركت مخاوفه: «مدَّ الله في عمرك يا حبيب، فإنْ كان حسّون سيفك فأنت درعه الحامي». لكن الدرع قد انكسر ولم يَعُد لي ما أتترس به. لم ينَم أبي ليلته، ظل يتقلّب كثيرًا في فراشه، ثُم قام وصلَّى ركعات يقيم بها الليل لعل الصلاة تريحه، ثُم أخلَدَ إلى فراشه، ضمّته صفية إلى حضنها، فمنحها آخر قطرة حُبٍّ في روحه، ثم وضع رأسه على صدرها فنام، ولم يَقُم.

كسرَ موتُ أبي قلب جدّي، جاء إلى بيتنا الذي انقطع عنه خمس سنوات لم تطأه قدمه، والآن جاء ليزور ولده ميتًا، غسَّله وكفَّنه، ولم يرَني، منذ مولدي وهو يأبَى أنْ يراني. صلُّوا عليه في الجامع الكبير، المسجد الذي كان يدخله أبي وهو يحملني على كتفيه، دخله اليوم وهو محمول على أكتاف الغرباء، وأنا أجلسُ في زاوية بآخر المسجد أراقب جثمانه تتلقفه الأيادي، وقفوا يكبّرون أربعة تكبيرات على أبي المُـسجَّى بين المحراب وأول صفوف المُصلّين، لآخر مرة أراه، وهو في كفن أبيض يرقد ميتًا، وفي بياض أعمى أعيشُ منذ قرون، ما زال بياض كفنه يخدش جدران ذاكرتي، ذاكرتي التي لم تحمِل وجهه وحملَت كفنه. حملوه إلى مقبرة المدينة ودفنوه، ومعه قلب أمي.

أصبحت جدّتي رضيّة تزورنا مرتين كل أسبوع، تحمل معها الكثير من الطعام، وتترك شيئًا من المال يُعين أمي على الحياة. كانت تُقسم كل مرة إنَّ جدّي إسماعيل هو مَن أرسلها لكن المرض والشيخوخة يحجبانه عن زيارتنا، وكانت أمي تقبل منها وهي كارهة لعطيته، لعلها لم تكُن تريد قطع حبل أبي عن ولده، ليظل للغصن جذورٌ تمدّه بالحياة. طلبت جدّتي أنْ تأخذني معها إلى بيتها، لأزور جدّي. اضطرب قلب أمي التي لم تفارقني ساعة واحدة منذ مات أبي، ولم تُدرِك غاية جدّتي التي رأت في وجهي شبهًا بأبي لا تخطئه العين، فأرادت أنْ تحمل إلى الجد الدليل على أني حفيده.

أصاب تدبير جدّتي غرضه، حين رآني جدّي إسماعيل أصابه الذهول، وتسمّرت قدماه، وجدّتي تقول له: «انظُر إليه، أليس الوجهُ وجهَ ولدك؟». ركع جدّي على ركبتيه وضمّني إلى صدره وصوته يتهدج بالبكاء، يمسح على رأسي ويتمتم: «هو ولدُه، من صُلبه وصُلبي، أنت ابن الحلال يا بُنيّ، غفر الله لي، لن أتركك بعد اليوم». آمن بي جدّي، وصدَّق ولده بعدما سكن القبر! وعرف أنَّ أمي قد حبلت بي، لكن ليس كما تحبل النساء، فأصبح يقول كما الجميع: إني آيةٌ من آيات الله أرسَلَها.. لكن للمُسلمين، لا اليهود.

ظلت أمي تصنع السلال وتبيعها بسوق قصر السلاح، كان الناس يشترون سلالها بحاجةٍ، وبغير حاجة. أهل اليمن

طيبون، لم أرَ قلوبًا أكثر منهم رقّة بين العالمين على امتداد عمري الطويل، كانوا يعلمون بترمُّل أمي، فيأتي أحدهم ليشتري سلّةً، ولا يفاصلها في ثمنٍ، وأحيانًا يشترون الحلوى ويقدمونها إليَّ، هكذا كانت تفعل النساء كلما رأيْنَنِي بجوار أمي ألهو بين السلال.

في حياة أبي كانت أمي تذهب يوم الجمعة إلى المعبد، لكنها بعد وفاته لم تَعُد تذهب إليه إلا يوم السبت، حتى لا يفوتها السوق. أصبحت أمي تُغطي رأسها في المعبد وخارجه، تستره في المعبد مراعاةً لأمر التوراة، وتستره في الطريق مراعاةً لغيرة أبي، صارت أكثر صونًا لغيرته وهو في قبره. لم أكُن أحبُّ اللعب في المعبد مثلما كنت أفعل في المسجد مع أبي، فكنت أتسرب بعيدًا عن عيني أمي، وأتابع صلاة الرجال الذين يؤدونها وهم جلوسٌ على الأرض، جذوعهم تهتزّ إلى الخلف وإلى الأمام؛ فتتراقص ضفائر الشعر مع حركتهم الغريبة، لم أكُن أعرف لماذا كل الرجال في المعبد تتدلّى ضفائرهم مجدولة! كنت أحسبهم أحيانًا نساء بلحى، وأحيانًا رجالًا لكن بضفائر.

لم أفهم قط ما يرددونه في المعبد من تلاوات، كما لم أفهم ما كان جدّي إسماعيل يحفّظني من القرآن، كما لم أفهم لماذا يتحدَّث الله بلسانين مختلفين، وكلاهما صعب! عبرانية في المعبد، وعربية في المسجد، وأنا بينهما أردد، أردد ولا أفهم.

عندما كانت أمي تسهو عني بتضفير السلال، كنت أتسلل خارج المنزل إلى (القُلّيس)، تلك الكنيسة التي أقامها «أبرهة الأشرم» ليصرف العرب عن حجّ الكعبة إلى كنيسته، ثُم سار بالفيل ليهدم كعبة العرب، فرجمه الله من السماء بحجارةٍ تحملها الطيور، هكذا حفظت حكاية الكنيسة التي قصّها عليَّ جدّي إسماعيل وهو يحفّظني «سورة الفيل». ومنذ قصّها عليَّ وأنا أخاف من الطيور رغم أني من جنسهم، حسّون. أُخبئ رأسي وأختبئ كلما رأيت طيرًا مُحلّقًا، خشية أنْ يرجمني بحجر. لم يَعُد هناك من الكنيسة شيء، أي شيء، ليس هناك سوى حفرة كبيرة مستديرة في عمق الأرض، تنخفض عشرة أمتار، ويحيط بها سياج من الحديد، نَمَت بقاعها شجرة لا ثمر لها، وكثير من القمامة التي كان يلقيها سكان حارتنا في حفرة الكنيسة البائدة. لا أعرف أكان غرضهم إهانة كنيسة صاحب الفيل، أم لأنه المكان الوحيد المناسب للتخلُّص من زبالات المنازل؟ كان هناك سلّم من الحبال يتدلّى من سياج الحديد، إلى عمق الحفرة الكبيرة، كثيرًا ما كنت أنتظر غفلة المارّين وابتعادهم، فأنزل مُمسكًا بالحبل إلى عمق حفرة القُلّيس، أختبئ تحت الشجرة نصف النهار، لا أفعل أي شيء هناك. كنت فقط أحبُّ أنْ أختبئ من العيون التي لا تأبه لي، ولا يسعى أصحابها لمطاردتي، الاختباء بذاته كان يمتّعني، وعندما يعضّني الجوع أصعد وأعود إلى البيت.

سنواتٌ وأنا لا أكفُّ عن عادتي تلك، حتى بلغت العاشرة. تحججت يومًا لأمي بأني مُتعَب، ولا أقوى على الذهاب معها إلى السوق، فلما ذهبت أمي، جلستُ بالبيت ساعة فضربني السأم ولم أجد ما أفعله إلا الذهاب إلى القليس. نزلت ونمتُ تحت الشجرة حتى العصر، فرأيتُ في نومي حلمي العجيب: رأيتُ نفسي أقف وسط الكنيسة وقد عادت كما كانت، لها بابٌ مرتفعٌ موشّى بوجوه أُسُودٍ مُذهّبة، وفي وسط الباب صليبٌ كبيرٌ أطرافه مُطعّمة بالياقوت الأحمر. فتحتُ الباب ودخلتُ إلى البهو الكبير، فوجدتُ تماثيل من الفضة لامرأة وجهها طيّب ووديع، تحمِلُ على ذراعيها طفلًا، تماثيل كثيرة للمرأة نفسها كانت تنتشر أمام الجدران، وفي المِحراب كان تمثال يقف وحيدًا على هيئة صليب يحمل رجلًا من الذهب على رأسه تاج من الشوك، ملأني الخوف من هيئة المصلوب المُتوّج بالشوك، فرجعت إلى تماثيل المرأة الطيّبة، ووقفت أمام أحدها. كانت تقف مبتسمة تمدُّ يديها، كأنها تدعوني إلى حضنها، ذهبتُ إليها، فتحرك التمثال. ارتعبتُ، ورجعتُ إلى الوراء، فتقدمَت نحوي باسمةً ومسحت على رأسي وقالت: لا تخف. ثُم أخذت بيدي ومشت بي خلف تمثال المصلوب، ثُم فتحت في الأرض بابًا يُفضي إلى سرداب طويل تنيره الشموع، مشيت معها فكان بآخر السرداب باب مُغلق، فتحت المرأة الطيّبة الباب ودخلت، فدخلتُ خلفها؛ فإذا بقاعة كبيرة وبداخلها ثلاثة رجال يقفون متجاورين خلف مائدة مرتفعة من

الرخام، أمام كل واحد منهم كأس مملوءة، وعلى طرف المائدة الآخر كأس فارغة. فقالت لي المرأة: هؤلاء موسى ويسوع ومحمد، فانظر أي كؤوسهم أحبّ إليك فخُذه وصبَّ منه في كأسك. سألتُها: وماذا في الكؤوس؟ فقالت: تلك كأس موسى، مُترعة بالدم، آيته التي ضرب بها أنهار فرعون، وهذه كأس يسوع، ملأى بالخمر، أول آياته التي جاء بها حين أحال الماء إلى خمر في عُرس قانا الجليل، وهذه كأس محمد، مملوءة باللبن، أحبّ الشراب إليه وآية الفطرة البيضاء في أُمّته، أما هذه الكأس الفارغة فهي كأسُك أنت، صُبَّ فيها ما تشاء من شرابهم، واشرب. كان وجه موسى عابسًا، يبثُّ الخوف في نفسي، عيونه حازمة مُسدّدة نحوي، شعرتُ بالخوف، ولم أستطع تجاوز كأسه خشية أنْ يغضب، فأمسكت كأسه، وصببتُ من دمها في كأسي. ثُم نظرتُ إلى يسوع، وجهه طيّب وديع، وفي عينيه شيء من الدموع، أحببتُ ملامحه الطيبة، لكنني لم آخذ شيئًا من كأسه، وقلتُ لن يغضب مني، فهذا الوجه لا يمكن أنْ يغضب صاحبه، فتجاوزته. ثُم ذهبتُ إلى محمد، فابتسم لي وابتسمتُ له، وجهُه يحمِل وداعةَ وجه يسوع، لكنه أكثر حزمًا منه، ويحمل صلابة وجه موسى، لكنه أقل قسوة منه، أعجبني أنه جمَع بينهما ثم لم يكُن مثلهما، فأخذتُ من كأس اللبن وصببتُ في كأسي، ثُم شربت. بكت المرأة الطيبة، وقالت: شرِبتَ من كأسيهما، ولم تشرب من كأس ولدي. أسِفتُ لحزنها ومددتُ كفي لآخُذ من كأس يسوع، لكنَّ يدَيّ تيبّست، وقدَمَيّ تجمّدتا، فلم أستطِع حراكًا، ثُم سقطتُ على الأرض أنتفضُ كالمصروع. استيقظتُ من حلمي وأنا على تلك الحال أنتفِض، ولم أعُد إلى حفرة القليس بعدها قط. لكن ما زال في جسدي دم اليهود، وحليب المُسلمين، منذ سبعة وعشرين قرنًا يجريان بعروقي، ويصطرعان.

سألت أمي ذات مرة: «مُسلمٌ أنا أم يهوديٌّ يا أمي؟». فتبسّمت بسمَتها الصافية وقالت: «أنت حسّون، والحسّون طائرٌ لا يأسره عشٌّ، يسكن الأغصان حينًا، ثُم يُحلّق في السماء، لم يَمنعني أبوك قط حين كنت آخذك إلى المعبد، ولم أطلب منه يومًا ألا يأخذك إلى المسجد، لم نتفق على شيء، لكننا دون كلام عقدنا عهدنا بأنْ تملأ كأسك بما تشاءه أنت». أدهشني كلامها عن الكأس وملئها، حتى حسبت أنها عرفت بحلمي، فالأمهات يعرفنَ دومًا كل شيء.

مكث جدّي إسماعيل في صنعاء بعد موت أبي، قرابة خمس سنوات، ثُم قرر السفر إلى الجنوب لضيق العيش في الشمال، كانت كراهيته للإقامة في ظل الإنجليز، تردّه دومًا عن الذهاب إلى الجنوب، كثيرًا ما كان يقول لي: «بين كُرهين أختار، إما أنْ أبقى في الشمال تحت حكم «الزيود»، وإما أنتقل إلى الجنوب تحت حكم الكفار، ولا حول ولا قوة إلا بالله». لكن ضيق الرزق وكثرة القلاقل في الشمال رجّحت في النهاية كفّة الكفار، فغادر جدّي إسماعيل إلى الجنوب. لم تقبل أمي بالذهاب معه وتَرْك بيت حبيبها، وفي النهاية حمَلَها على الرحيل ما حمَل جدّي، الخوف. كان الإمام «يحيى» حاكم اليمن يرى أنَّ اليهود أهل ذمّة، واتخذ في شأنهم قرارًا أرعب أمي وخلع قلبها؛ إذ قرر أنْ يأخذ اليتامى من أطفال اليهود إلى معسكرات تقيمها الدولة لتربية اليتامى، وحُجّته أنَّ كل مولود يُولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه، وكأنَّ أبي لم يكُن مُسلمًا!

حزمَت أمي أمرها، أغلقت باب البيت بالسلاسل، وأخذتني تحت جنح الليل هاربةً من غرفة القليس، إلى موطن البعث الأول، فكانت هجرتي الثانية. فمِن الجدس إلى صنعاء القديمة في رحم أمي، ثُم من صنعاء إلى الجدس مرة أخرى، في رحم الخوف. استقر مقامنا في الجدس مع جدّي حزقيال، الذي ينتظر آية اليهود التي جاءت بها ابنتُه.

تقضي أمي يومها في عزلة مُحكمة، لم تَعُد تساعد جدّي في صنع الخناجر، كما كانت تفعل وهي صبية. صمتها الطويل لا يقطعه شيء سوى رحلتها التي تقوم بها كل يوم إلى بستان مهجور في أطراف القرية، تجلس تحت زيتونة، تبكي وتبتسم، تنطفئ وتشتعل، كثيرًا ما كانت تأخذني معها، لكنني لم أسألها يومًا عن سرّ المكان، لم أكُن أسأل عن شيء، غير أنها أخبرتني

قصة الحب وحكاية الشجرة، فسمعتُ لها ولم أُعقّب.

طلبتُ من جدّي حزقيال أنْ أساعده في عمله، فرحَ بي، وأدركَ أنَّ لشجرته ثمرةً تدل على أنها حيّة، فكان يمنحني أسرار صنعتِه دفعة واحدة، كأنه على عجَلةٍ من أمره، وأنا أفعل ما يأمرني به دون أنْ أفهم شيئًا مما أفعل، فقط أسمع وأطيع.

عرفتُ المعبد في الجدس؛ إذ كان جدّي لا يذهب من دوني أبدًا، وفيه تعلّمت الصلاة بعدما كنت أكتفي بالنظر إلى من يهتزّون في معبد قاع اليهود بصنعاء، لم أُحب يومًا الحاخام باروخ، كانت نظرتُه تملؤني بالرعب، كلما رآني جاء ليكلّمني؛ فأحتمي منه بجدّي حزقيال ولا أُكلمه، جدّي كان يعرف أني أخاف الحاخام ولا أحبّه، فكان يكتفي بذهابي إلى الصلاة ولم يرسلني للتعلُّم في المعبد. عندما طلب منه باروخ أنْ يرسلني إلى المعبد للتعلم مع الصبيان، قال له جدّي: «اترُكه يا باروخ، فما زال صغيرًا على أمنياتك». لم أكُن حينها أعرف ما أمنياته تلك.

نسيت أنَّ نصفي مُسلم منذ رحلنا إلى الجدس، توقفت عن الصلوات الخمس، ولم أَعُد أنظر في المصحف، انتبهَت أمي لحالي التي تغيرت، فأخذتني يومًا إلى حجرتها وسألتني:

- مَن أمك؟

- صفية.

- وما دينها؟

- اليهودية.

- ومَن أبوك؟

- عبد الله بن إسماعيل.

- وما دينه؟

- الإسلام.

- إذن؛ فاعلم أنَّ وفاءك لأمك لا يعني خيانتك لأبيك، فإياك أنْ تغفل عن هذا يا ولد.

ثُم تركتني وخرجَت من الغرفة. أدركتُ مُرادها، فأصبحتُ أحافظ على الصلوات الخمس بغرفتي، أصلي لله في البيت، وليَهْوَهْ في المعبد، فلا غالبَ ولا مغلوب.

يوقظني جدّي كل يوم قبل شروق الشمس، لنبدأ العمل، ويؤكّد عليَّ دومًا أنْ أبدأ يومي بصلاة «الشحاريت» قبل الخروج من غرفتي، أصبحتُ أحافظ عليها كل صباح، أقرأ فيها آيات (شَمَاعْ إسرائيل)، أحببتها كثيرًا، فكنتُ أقرأها كل يوم في صلاتي الصباح والليل: «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا ربٌّ وَاحِدٌ». لم أشعر قط بكبير اختلافٍ بين ما تقوله التوراة وما يقوله القرآن، ولذا لم يكُن يُزعجني أنْ أبدأ يومي بصلاتين، صلاة قبل الشروق أقرأ فيها: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، ثُم صلاة بعد الشروق، أقرأ فيها «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا ربٌّ وَاحِدٌ». أُصلّي لذات الإله بلُغتيْن، وليس لإلهيْن، مرة أناديه «بالعربية» وأخرى «بالعبرية»، ولا فرق بينهما عندي سوى ترتيب الباء والراء، تُرى مَن يسبق مَن؟ العربية سبقت بالراء؟ أم تعجّلت العبرية بالباء؟ لا أدري. لكن ما أعرفه جيدًا، أنَّ ذاك الفارق في الترتيب، صنعَ حربًا بداخلي امتدت قرونًا طوالًا، حربٌ لأجلهما، لكن ضد بعضهما، أقاتلُ مَن أقاتل لأجله!

كان جدّي يستريح من العمل عند الظهيرة وأخرج أنا للعب، فلا أجد مَن يلعب معي، لم يُحبّني الأطفال في الجدس، لا من المسلمين ولا من اليهود، لم أكُن أعرف أنَّ حكاية الحَمْل المُريب يرددها الجميع، مرة قلت لأحد الصغار: «اجلس معي

لنلعب». فقال: «لا ألعب مع ابن الزانية». لم أفهم ماذا تعني كلمة الزانية، غير أني تألمت كثيرًا وبكيت. سألتُ جدّي: «لماذا لا يلعب العيال معي، ويقولون لي يا ابن الزانية؟». لم يجب جدّي عن سؤالي، فقط قال: «بل هم أبناء الحرام». ثُم مسح على رأسي وضمَّني إليه، في اليوم التالي أخبرني إنه سيرسلني إلى بيت الحاخام «داوود» ليُعلِّمني. كنت صلصالًا ليّنًا، يغرز كل أحدٍ أصابعه فيه ليصنع ما شاء، كحجرٍ في أي حائط وضعوه؛ استقرّ. يهوديًّا كُن؛ فكنت. مُسلمٌ أنت؛ فأصبحت. ودومًا لا حول لي ولا قوة، أسمع فأجيب، أؤمَر فأستجيب.

الحاخام داوود أصبح مُعلمي وصديقي الوحيد، تركَ في نفسي أثرًا لم يمحه الزمن، كان قد اعتزل اليهود ولزِم داره منذ سنوات، نادرًا ما يراه أحد خارج بيته، لكنَّ الجميعَ يُجلّونه ويبجّلونه، حتى المسلمين من أهل الجدس يحبونه ويوقرونه، يتبرَّكون به ويثقون بِعلمه لا سيما أنه كان خبيرًا بأنواع الداء وصنوف الدواء، فإذا أصاب صغارهم مرض أرسلوهم إلى الحاخام، ليصف لهم الدواء ويدعو لهم بالشفاء. كان داوود شيخًا جاوز السبعين، وديعًا سَمِحًا، له لحية بيضاء ليس فيها أثرٌ لسواد، خفيفة عند الصدغين، كثيفة ومرسَلَة عند الذقن، وجهُه أبيض وعيناه عسليتان واسعتان، ملامحه تبعث على الراحة والهيبة في آنٍ، عندما أرسلني جدّي إلى بيته حسبتُ أنه سيُعلِّمني التوراة ويشرح لي وصايا التلمود، لكنه كان يتحدّث في كل شيء، إلا عقائد اليهود، كثيرًا ما كان يطلب مني أنْ أحكي له ما كنت أفعله بغرقة القليس قبل الرحيل، فحكيتُ له كل شيء، إلا حُلمي، لم أقصَّه عليه قط.

أخبرته يومًا إني حفظت القرآن كاملًا على جدّي إسماعيل؛ فطلب مني أنْ أقرأ عليه شيئًا مما أحفظ، تلوت عليه سورة «الذاريات» كاملة، وهو ينصت ويهز رأسه، وعندما انتهيت قال لي: «أحسَنَ جَدُّك تحفيظك الكتاب». ومرة طلب مني أنْ أقرأ عليه من سورة «البقرة»، قرأتُ عليه وأنا أراقب وجهه الذي يتقلب مع تلاوتي للآيات التي أحفظها عن ظهر قلب، تجتاحه أصناف المشاعر، مرة يبتسم، ومرات يتقلّب في جلسته كالغضبان، وكلما قرأت آيةً مطلعها «يا بني إسرائيل»؛ اعتدل، كأنه ينتظر الأمر أو الحكم على قومه. سألني بعدما انتهيت من التلاوة:

- تحب التوراة أكثر أم القرآن يا حسّون؟

- إني تائهٌ يا سيدي، أُصلّي صلاتيْن، وأقرأ كتابيْن، في غرفة القليس كنت أذهب كثيرًا إلى المسجد، وهنا لم أَعُد أذهب إلا إلى المعبد، لا أعرف لأي دين أنتمي، أهو الإسلام أم اليهودية؟!

- وبماذا يُخبرك قلبك؟

- لا يُخبرني بشيء، أحبهما معًا حتى لا تغضب أمي ولا أخون أبي.

- أنت مسكين يا حسّون، لكن لا يحزنك ما أنت فيه، احفظ عذوبة قلبك، ولا تكترث بماذا يُسمي الناس مَاءَك، ما دام صافيًا لا تعكره الكراهية ولا تكدره الشوائب.

- إنني خائف على الدوام يا سيدي، فأنا في صلاة المسلمين ألعن اليهود، وفي صلاة اليهود ألعن كل من ليس يهوديًّا؛ فأُصبِح ملعونًا على لساني مرتين!

- لا تبتئس يا بنيّ، اللعنة تصيب الأشرار وحدهم، كُن طيبًا، ولن تَمَسّك شظايا اللعائن، مهما اختلَف اللاعن.

أيامًا كثيرة كنت أذهب إلى مُعلمي داوود، فلا يُكلمني كلمة واحدة، فقط يبتسم بوجهي حين يفتح لي باب البيت، ثُم يُدخلني إلى غرفة الحصير، غرفة منعزلة في زاوية البيت، لم يكُن بها أي أثاث سوى فرش من حصير خشن، وقنديل قديم

يبعث النور على استحياء في أرجاء الغرفة التي لم يكُن يصِلها ضوء من خارجها، يجلس الحاخام في ظلمتها دومًا، وحين أذهب إليه يوقد القنديل حتى لا أستوحش، ما أنْ أدخلها حتى أمضي نحو الزاوية صامتًا، ويذهب هو إلى الزاوية الأخرى ليُصلّي، يقترب من الجدار كأنه يريد أنْ ينحشر في الزاوية بين الحائطيْن، يظل واقفًا لساعات، كأنه عمود لا حياة فيه، ثُم يقطع السكون بهزّ رأسه إلى الأمام والخلف بسرعة متوترة، حتى إذا أدركه التعب سقط على الأرض كأنَّ عموده قد انهدَّ، ثُم يسجد سجودًا طويلًا لا حراك فيه، يسكنُ نفَسُهُ حتى أحسبه مات، ثُم ينهض كأنه بُعِثَ من قبره، فيُقدم لي حبّاتٍ من التين دون أنْ نتبادل كلمة واحدة، وبعدها أعود إلى بيتي.

في مرات أخرى كنت أجلس معه طوال اليوم، فلا أراه يُصلي ولا يدخل صومعة الحصير، ينزل إلى المخبأ الصغير أسفل البيت، حيث يضع برميليْن من الخمر المُعتّقة، فيملأ زجاجة ويجلس معي وأمامه الخمر وصحن مملوء بالزبيب والتين المُجفّف، يأكل من هذا ويشرب من تلك. كنت أحبُّ أوقات نشوته أكثر من صلاته في الخلوة، وَجْدُهُ في الصلاة وبكاؤه الطويل يبعثان الخوف والرهبة في قلبي، بينما ضحكته النشوانة تبعث الطمأنينة في نفسي. كان إذا تملّكه السُّكْر يظل يتكلم بلا توقف، يُحدّثني عن عائلات اليهود في الجدس وأنسابهم، ويخبرني بالغرائب عن كل منهم، سألني مرة وهو سكران:

- هل تعرف عمران الصائغ يا ولد؟

- نعم أعرفه يا سيدي، جاء مرة أو مرتين إلى بيتنا ليزور جدّي حزقيال.

- تعرفه لكنك لا تعرف من أين جاء بأمواله الكثيرة، لقد أثرى من فَرْجِ امرأته، يرسلُها القوّادُ إلى الحاخام باروخ ليفعل بها ما يفعل، ثُم يأمُر باروخ نساء اليهود أنْ يشترين الحُليّ من عمران، فيستجبن له. وإني أقسم بالعصا والتابوت إنَّ ابنة عمران ليست ابنته، بل هي من وطء باروخ لأُمها، والبغل عمران يعلم هذا ولم يطلّقها. وباروخ، الذي يقولون إنه ابن «شمعون بن سمعان»، هل حقًّا هو ابن شمعون؟!

- لا أعرف يا سيدي.

- إنَّ شمعون يا ولدي قد مات بعدما دخل بأُم باروخ بسنتين، وكان عقيمًا لا تثمرُ نطفته، فلما مات خاف أبوه سمعان أنْ تخرج كنّته من بيته، أو تزني في بيوت اليهود، فضاجع الحَمْوُ كنَّته، فحبَلَتْ بباروخ، ثُم نسب سمعان ولدَها لابنه الميت. وعندما أعلمتُ باروخ بحقيقة أصلِه المُدنّس، قال إنه يعرف هذا ويباركه، بل تبجّح وقال لي: «فعَلَها مِن قبل «يهوذا» في كنَّتِه وأعطاها خاتمه وعصاه، وهو كبير «الأسباط»، فلم تُبَكِّتهُ التوراة، بل باركَته وباركت نسله». ما أشد وقاحة الأنذال! ولماذا ألومُ على عمران وباروخ ولستُ خيرًا منهما! تزوجتُ «أليصابات» خالة أمك، كانت أجمل بنات اليهود، عشقتُها وطاش بها عقلي، حتى صارت أحبّ الناس وكل الناس، فهل ردها حُبي عن خُلقِ قومها يا بني؟! العاهر غدرَت بي وأحبّت «دانيال» ذا الوجه الجميل، وأسلمَته نفسها في بيتي، وعلى سريري، حتى حبلَت منه، وأنا مثل جروٍ فقدَ أُمه، أنوحُ بحسرتي، انحنيت أمام خيانتها ولم أرفع يدًا لرد كرامتي، بل قلت لها إني أغفر جرمها إنْ هي تابت، ولم تَعُد لعشيقها. لكنها مثل الأختيْن «أَهُولَة وأَهُولِيبَة» اللتين عَشِقتا الغرباء وخانتا الله، ومثلهما خانتني العاهرُ مرة بعد مرة، كانت تزني وهي تحتي، ثُم وضَعَت ثمرةَ زناها ولدًا، ويا لَهواني سمَّته «دانيال» حبًّا في اسم رفيق زناها، ورضيتُ أنا، كما يرضى يهوديٌّ بذِلَّتِه، فلم أطلّقها حتى ماتت. ثلاثون سنة وأنا أزور قبرها صباح كل سبت وأتبتّل فوق ترابه، أقول لها قومي وازني كيف شئتِ لكن أريني وجهكِ يا أليصابات الحبيبة، ألعنُها في صلاتي، ثُم أبكي على قبرها حبي، كما يلعن اللهُ اليهود ويُحبهم. نعبد العجل، نسجد لـ«ملوخ»، نحتمي بأشور وبابل، ولا نلجأ إلى ربنا ربَّ الجنود؛ فيضربنا بالذّل ونسقط بكل سيف من سيوف الأمم، ثُم نهرول إليه؛ فيقول تعالوا، أنتم خرافي، وأنا الراعي الذي يهشُّ عليكم، وكلما

طهّرنا نهرب منه مرة أخرى، حتى يئِسَ الله من شعبه، فأبعَد وجهَه عن وجهِ سارة، وتبسَّم لوجه هاجر وطفلها الهجين، تركَ شعبَه، خانهم كما خانوه، وألقى بالعهد لجراءِ هاجر، وها نحن أبناءُ سارة العزيزة مستعبدون ذمِيّونَ، عند أبناء الجارية، كيف رَضيَت نفسه أنْ يُلقي بنا إلى يد الغرباء ونحن شعبه، أما كان له أنْ يصبر أكثر من هذا؟! لكن لا بأس يا بني، فهو لا يزال يُحبّنا، والدليل أني لا أزال أحبُّ أليصابات الخائنة، بل وأحبُّ ابنها دانيال، ابن زناها.

ظل معلمي داوود يتكلم بغير توقف، يُخلّط في الحديث ويهذي بما لا أفهم في بوحه السكران، وأنا أستمع بغير كلام، حتى هَدَّه التعب وغلبه النعاس، وهو لا يزال يتمتم بكلام غير مفهوم، فوضعت عليه غطاءً لأسترَ عورَة آلامه وأُدفِّئ برد عظامه، ثُم تركته وعدتُ إلى بيت جدّي حزقيال.

زارنا جدّي إسماعيل في الجدس، كانت أول مرة نراه منذ سافر إلى الجنوب، اعتذر لنا عن غيبته التي امتدت لسنتين، وأخبرنا بموت جدّتي رضيّة، بكت أمي عليها بدموع صادقة إذ كانت أرحم الناس بنا، وجَمُدَت عيناي عن الدموع فلم أبكِ. منذ تفتحت عيناي على جدّي وأنا أراه شيخًا كبيرًا، لكنه كان موفور الصحّة صحيح البدن، يمسك عصاه بحكم العادة وهيبة الشيوخ، عندما زارنا رأيت حاله تبدلت، أعطَبَته الضربتان: موتُ أبي ضرَب روحَه بالعجز، ثُم جاءت ضربة جدّتي فأصاب موتها جسَدَه بالبِلَى. صار كخِرقَة لا تكاد تحمله عصاه. أمي رأت ما رأيتُ، وبكت كثيرًا على ما آلت إليه حال جدّي، فلا أدري أكانت دموعها على الجدّ المُتداعي، أم على موت الجدّة، أم على ولدها الذي تتآكل جذوره؟

رفض جدّي المبيت عندنا رغم إلحاح أمي عليه. كنت أعرف أنه يكره أنْ ينام تحت سقف اليهود، لكنه لم يفصح بما في نفسه، وتعلل بأنه في عجلة من أمره لقضاء بعض حوائجه. عندما وضع جدّي حزقيال طعام الغداء، تململ جدّي إسماعيل، فوضع جدّي حزقيال يديه على ركبتيه، وقال له: «أنت تعلمُ أنَّ طعام اليهود حلالٌ يا شيخ إسماعيل، وتعرفُ أننا نذبح أنعامنا كما يذبح المسلمون، ونُسمِّي الله عليها، أوليس في القرآن (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لكُمْ)». أعجبني ذكاء جدّي حزقيال، وأحببت نبل جدّي إسماعيل الذي لم يشأ إحراجه فأكل، لكن كما يأكل الشبعان.

كان جدّي حزقيال شديد التودد إليه على غير ما في نفسه؛ إذ كان على الدوام يقول لي: «أنتَ أعظم عطايا الرب لي يا حسّون، عطيته التي جاءتني في الكِبَر، لكن الكلاب ولَغَت في عطيته». لم يغفر قط لأمي أنها تزوجت من مُسلم، وكنت أسمعه يقول لبعض أصحابه: «حفيدي حسّون هو الطاهرُ، ابن النجس». لكنه أمام جدّي كان على عكس حقيقته يقول: «كم أعجبُ من أدب حسّون، نِعم الغلام الذي أدَّبتموه بأدبكم، حتى أصبحتُ أسيرُ بين اليهود مفاخرًا، وكيف لا وقد صاهرتُ مَن يحفظون ذمّتنا ويحسنون إلينا». شكره جدّي إسماعيل ببسمة المُرتاب، ثُم عرض بعدها على أمي أُمنيتَه القديمة، أنْ يأخذنا معه إلى الجنوب بعدما خلت عليه الدار، فكانت أمي بين حيرة قبول ما لا تحبّ، وقسوة ردّ أُمنية الشيخ المسكين! فقالت له: «أفعلُ يا شيخ إسماعيل، لكنني أُعاني الوَهَن فما إنْ أستردّ عافيتي حتى آخذ حسّون ونأتي إليك». فقال لها: «إنْ بقيت حيًّا يا بنيّتي، إنْ بقيت. فما أحسب أنَّ الغربة ستطول، اشتقتُ إلى الأحبَّة».

صدقَ حدسُ جدّي، فما هي إلا أشهر ثلاثة حتى جاءنا نعيه، مات جدّي وانقطع جذرٌ من جذوري لأعرج في الحياة، انتهى ما يربطني بالمسلمين، فلم يبقَ في قلبي سوى القرآن يُذكرني بأني محمديُّ الديانة، كما أني مُوسويُّ الدينِ، والحياة. كان حزني ضبابيًّا على موت جدّي، رغم أني قضيت في صحبته خمس سنوات، لم يرتبط به قلبي؛ إذ كنتُ أراه شيخًا طيبًا يُعلمني القرآن حتى حفظته، يمسح على رأسي ويعطيني بعض النقود، وفقط. لم يكُن يُحدّثني عن أبي أو يتحدّث عنه أمامي، ربما هو أيضًا لم يغفر له عصيانه. لقد كان وجودي سببًا في غضب الأجداد على الأبناء، غضبٌ لم يَطلْني شرَرُه

وألسنَةُ لهيبه، لكن خنقني دخانه. ولذا لم أحزن كثيرًا على موت جدّي إلا كما يحزن طفل على موت إنسان كان يعطف عليه، وحزن الأطفال سريع الزوال.

فرِحَ جدّي حزقيال بموت جدّي إسماعيل، وإنْ أخفى هذا عن أمي، فقد أبداه لي. كلما خلا بي يقول: «الآن قد صرتَ خالصًا لليهود يا حسّون، وطهّرك الرب من رجس الأغيار». وعلى عكسه، كسرَ موته قلب أمي، أو جدد كسره القديم، وصارت أشد قسوة معي كلما غفلتُ عن الصلاة أو القرآن، تعرفُ أنَّ اليهودية تبتلع نطفة حبيبها الذي تقاتل من أجله، حتى لا يموت من جديد بموت الإسلام في قلب ولده، فتجتمِع عليه الميتتان. لم يكُن جدّي حزقيال يجرؤ على مواجهة حزمها، حتى إنه في أثناء عملي معه، كان يأتي إليَّ ويقول: «دَع ما في يدك وصلِّ الظهر». يقولها بوجه صادق لا ادعاء فيه، وعند انتهاء العمل يرسلني إلى الحاخام داوود. رضيَ جدّي، أو استسلم لأنْ يكون حفيدُه على الدينَين معًا.

مر عامٌ هادئ كنت فيه سعيدًا رضيًا، أقضي يومي في العمل مع جدّي من أول اليوم حتى منتصف النهار، ثُم أذهب إلى الحاخام داوود حتى أول الليل. تغيّر الحاخام فلم يَعُد يتحدَّث في أمر يهود الجدس ولا يقص عليَّ أخبار الصبايا في التوراة، وأصبح بدلًا عن هذا يقصُّ عليَّ ملاحمَ التوراة ويشرح لي ما يستغلقُ عليَّ فهمه، أرادني يهوديًّا مكتمِلًا، أو ربما أوصاه جدّي بهذا. يُفسّر لي قسوة الرب على شعبه ويؤكد حُبَّه لهم، ويُحدّثني عن محنة اليهودي في كل زمان، أصبح يتحدَّث كحاخام، لا كمُعلمي الطيب الثرثار. كانت حكاياته عن بنات اليهود أحب حديثه إلى نفسي، شيءٌ ما كان يتحرك داخلي لحكاياتهن، وميلٌ لم أكُن أفهمه للحديث عن النساء، كان ينتابني شَبَقٌ خفيف، لا يجاوز ارتفاع ثيابي قليلًا عند سماع قصص النساء العاشقات في التوراة، وحكايات «نشيد الأنشاد».

بعدما أنتهي من دروس داوود المُحبَّبة إلى نفسي، كنت أعود إلى أمي، فتسألني عن تفاصيل يومي، فأحكيها لها بحذافيرها، وإنْ كنت أحتفظ بالقليل من حكايات داوود خجلًا منها. لم يكُن لأمي سلوان سواي، وبرغم عطف جدّي الكبير عليها وحُبّها له، فإنَّ شيئًا خفيًّا كان يحول بينهما، فلا يتكلمان على الطعام ولا يجلسان معًا، تُمسك أمي بسوط الكبرياء العظيم لحبّها ولا تفلته أبدًا، فلا تسمحُ بجدال أو حديث عن أبي، لعل ذاك الحب هو ما حجبها عن أبيها؛ إذ لا تقبل في قلبها بشريك معه، ولا حتى أنا. كم شعرتُ أنَّ حبّها لي منشؤه أني فقط ابن حبيبها، ليته لم يمُت، لأرى أي رجل هذا الذي تحمل له أمي كل هذا العشق، كانت كلها له، روحًا ولحمًا ودمًا، كانت صفية، صفيتَه، وصافيةً من كل حبٍّ إلا حبَّه.

عند انقضاء ذاك العام بدأت الأعاصير تضرب جداري المُتداعي، وإنْ سبق الإعصارَ شيءٌ من الهبوب لينذر بما بعده، حربُ اليهود والعرب على أرض فلسطين، كانت بداية لسنوات غربتي؛ إذ قامت دولة إسرائيل، وأصبح لليهود دولة بعد انتصارهم على كل جيوش العرب، الحمد لله إنَّ جدّي إسماعيل مات قبل أنْ يرى ذلك، لعله كان كرهني حينها وعاد كرهه القديم لأمي، ورأى فينا عدوًّا غازيًا.

لم يسلم يهوديٌّ في اليمن من الأذى، وإنْ كان الأمر لم يجاوز تعرُّضًا بكلام غليظ، ومقاطعة المسلمين لليهود وتجارتهم حتى كسَدَت. وعلى كراهية جدّي حزقيال للمسلمين لكنه لم يفرح بقيام دولة اليهود، كان يقول: «يهودٌ لا نعرفهم، أقاموا دولة على أرض لم نطَأْها، ونحن مَن ندفع ثمن فعلتهم في بلادنا!». لم يرَ جدّي له بلدًا إلا اليمن، حتى لو كان فيه ذميًّا يُجبَرُ على ربط الزنّار ويُمنَع من وضع خنجر فوق خصره، لكنه كان يمنيًّا حتى العظم. أما مُعلمي داوود فكان الأشد غضبًا، حسبتُ أنَّ قيام دولة إسرائيل سيفرِحه، وهو الذي كان يحكي لي كل يوم عن مجدهم القديم على أرض أورشليم، ويصف

لي كيف قام هيكلهم، وكيف تم نقضُه حجرًا حجرًا، ويقسم لي إنَّ يومًا سيأتي ويعود اليهود إلى أرضهم، سألته يومًا: «لماذا لا تفرح بدولة كنت تُحدّثني عن شوقك لقيامها؟!». فقال: «ليست هذه، ليست هذه يا حسّون. عهد اليهود أنْ تأتـي دولتهم مع (المسيح الـمُخلِّص)، وقيامُ الدولة قبل مجيئه كفرٌ بالعهد وتدنيسٌ للوعد، ليس على أرض فلسطين إلا الكفَرة، عَودَتُنا لا تكون إلا بالمسيح، هؤلاء ليسوا يهودًا يا بني، بل كُفّارًا».

لم يطُل هجرُ مُسلمي اليمن ليهودِه؛ إذ رأوا أنَّ شيئًا لم يتغيّر، وأنَّ اليهود هنا غير اليهود هناك، أو هكذا كان يبدو، حتى ظننت أنَّ الإعصار سيحتبس، وأنَّ الطوفان سينحسر، لكن ظني لم يُصب.

أتى الغرباء، لا ندري من أين أتوا، أو كيف؟ لكنهم جاؤوا. كانت وجوههم غير وجوهنا، وألسنتهم ليست من جنس ألسنتنا، يتحدّثون بعربية عرجاء تفضح حقيقة أنهم ليسوا من أهلها، يأتون حينًا في جماعات قليلة، وأحيانًا يأتي أحدهم منفردًا، يطرقون أبواب اليهود، ويدخلون معابدهم، يُبشرون بأرض الميعاد ويدعون أهلنا للرحيل إليها. لم تكُن زيارتهم تخلو من الهِبَات، حتى أصبح فقراء يهود الجدس ينتظرون قدومَهم، بين وقت وآخر. ودومًا يصحبهم الحاخام باروخ في زياراتهم، سواء للبيوت أو المعبد، يفصح عن لسانهم الأعجمي إنْ أعيتهم العربية، ويوثّقُ وعدَهم الذي يَبذِلونه لليهود بحياة كريمة على أرض إسرائيل.

لم يستجب لهم اليهود، ولم ينبذوا دعوتَهم أيضًا، كانوا بين الخوف والطمع حيارى. وحده داوود كان ينبذُهم بغير مواراة، وينعتهم بأعداء الرب، وناقضي عهد التوراة، ما عاد يعتزل الناس كما كان يفعل، بل أصبح يختلط باليهود في البيوت والمعبد والطرقات، يحذرهم من كيد الغرباء، صار ممحاة تزيل أثر كلماتهم وما خطّته أقلامُ وعودهم، يُخوّف اليهود من مخالفة كتابهم، ويذكّرهم بأنَّ مملكة إسرائيل لا تقوم إلا بالمسيح، وليس ثمة مسيحٌ، يخبرهم إنَّ كل مملكة من دون المُخلِّص وثنيةٌ نجسةٌ، وإنكارٌ ليَهْوَهْ، رب الجنود. واليهود صامتون لا هم إلى داوود الغاضب، ولا إلى باروخ الراغب. جدّي حزقيال كان الأكثر تصديقًا لكلمات داوود، رفض استقبال الغرباء في بيته وصرفهم بغير تلَطُّف عندما جاؤوا مع باروخ يطرقون بابنا، عرف جدّي صوت الحاخام وسأله دون أنْ يفتح الباب:

- مَن معك يا باروخ؟

- ضيوفٌ أتوا يُكلمونك.

- انصرِفوا، لا يُكلموني ولا أُكلمهم، ليس لي أرض إلا اليمن، ولا أعرف إلا بيتي، ولا حاجة لي في غيره.

بعضُ عائلات اليهود أصبحت بيوتهم خاوية، يأتي الليل وبيوتهم تضجُّ بأصوات أصحابها، ثُم يطلع النهار وليس خلف الجدران إلا الهواء! لم يكُن أحد يسأل: أين ذهبوا؟ فالجميع يعرف إلى أين قد رحلوا. كانت هجرة اليهود أول الأمر قليلة حدّ الندرة، فلم يلتفِت إليها أحدٌ، سعيُ الغرباء الدؤوب لم يؤتِ أُكُله، لكن تغيّر الأمر كثيرًا بعدما سمع أهل الجدس عن مذبحةٍ لأسرة يهودية في صنعاء، قُتِلَ الوالد والأم وستة أطفال، فانتشَر الخوف الذي يُغيّر مبادئ الرجال أكثر مما يُثبتها حبُّ البلاد، أصبح في كل قرية لليهود قصة للقتلِ، لم يكُن عهدُ أهل اليمن أنْ يتعرضوا لليهود بمثل هذا، حتى إنه لم يُقتَل يهوديّ واحد في أول أيام قيام دولة إسرائيل، وكان غضبُ مُسلمي اليمن أعظم ما يكون وقتها؛ إذ إنَّ نار الفاجعة لم تكُن قد انطفأت، فكيف يفعلونها بعد سنتين من قيام الدولة وقد خمدَت النار ولم يبقَ إلا الدخان؟!

أصبح الخوف يجتاح البيوت كلها، ولا أحد يجرؤ على التحدُّث عن المقتول ولا عن قاتله، وحده مُعلمي داوود كان يشير نحو القتلة بغير تردد، سألته: «مَن يقتل اليهود يا سيدي؟». فقال لي: «قسمًا برب موسى، لم يقتلهم إلا الغرباء. أرادوا إفزاع يهود اليمن، وقومنا أسرعُ الخَلق هلعًا». لم يسلم جدّي حزقيال من خوفه هو الآخر، أصبح يمنعني من مغادرة البيت،

وإذا قلت أريد الذهاب إلى بيت الحاخام، رفض، أو جاء معي إلى بيته حتى يطمئن عليَّ بنفسه. لم يكُن لبيتنا إلا نافذة واحدة تطلُّ على الطريق، نزع جدّي شراعها الخشبي، ووضع مكانه قضبانًا من الحديد، وزاد في أقفال باب البيت خمسة أقفال، ولم يَعُد ينام إلا بعدما يغلق عليه باب غرفته من الداخل، ويوصي أمي بمثل هذا.

منعَ «الإمامُ» يهودَ الشمال من الهجرة، حينما استفحل أمر النزوح عن اليمن، لكن هذا المنع لم يستمر طويلًا، أُبرِمَ اتفاقٌ له ثمن، وبعدما قبض الإمام أجره، سمح لليهود بالهجرة، فأصبحت جهرة لا خفية، عرف الناس بالصفقة التي سُميت: «بساط الريح». جاءت الطائرات أسرابًا لا تنقطع، تحمل يهود اليمن إلى فلسطين، ستون ألفَ يهوديّ لم يبقَ منهم إلا بضع مئات بعد سنة واحدة من بدء الهجرة. الخوفُ والرجاء كانا جناحَين قويين جدًّا لحمل الطائرات المعبَّأة باليهود، قَتْلُ أسرة واحدة بإحدى القرى، كان كفيلًا بإفراغِها من كل يهوديّ. «المسلمون يذبحون اليهود» هكذا كان يُقال في كل المعابد والبيوت، وداوود يسيرُ في الطرقات صائحًا: «ما قتلَ اليهود إلا اليهود». لكن صُمّت الآذان عن صوتِه، حتى جاء موعده.

كنتُ أول مَن رأى! دخلتُ بيتَه صباح السبت، بعدما طرقتُ الباب، فلم يأتِني صوت مُعلمي وهو يصيح كعادته: ادخل يا حسّون. دفعتُ البابَ فانفتح، رائحة الدم كانت تحدوني، كل الروائح تختلطُ عليَّ إلا رائحة الدماء منذ شربتها من كأسِ موسى، قادَتني أنفي المُعبَّأة بالرائحة الحمراء نحو حجرة الحصير، سقطت عيناي على جسد مُعلمي ومعها قلبي سقط، مُسَجًّى، ووجهه نحو الأرض، كان. ذبحوه، وكتبوا بدمه على جدران الصومعة: (اللة أكبر)، والنقطتان فوق (الهاء) تفضحان القتلة، فالعرب لا يخطئون أبدًا في كتابة اسم الله.

قرر جدّي الرحيل. لم يصدقني حين قلت له إنَّ الغرباء مَن قتلوه لا العرب، فقال لي: «يستوي الأمر يا حسّون، لو لم نرحَل للحِقنا به، لم يَعُد لنا في الأرضِ رزقٌ ولا مُقام، الرب يعرف أنَّ قلوبنا مُنكرة لدولة تأتي بغير المسيح، تقيم أجسادنا بأرضهم وتبقى قلوبنا بأرض اليمن يا بنيّ». شيءٌ ما كان يربط بين جدّي حزقيال وداوود، ربما لأنهما تزوجا من أختين، أو ربما عرفَ جدّي أنَّ زوجة داوود كانت خائنة، فحنَّ على داوود وأشفقَ عليه، لا أعرف سرّ رباطهما، لكن أعرف يقينًا أنَّ جدّي أحبَّه ووثق به، وقرر أنْ يغادر اليمن عندما خلا من رفيق عمره.

ظننتُ أنَّ أمي سترفض الرحيل، لكنها قبلت به، جدّي إسماعيل قد مات، ولم يَعُد لي من أهل أبي مَن يقبل بنا، ومُعلمي ذبحوه، وجدّي حزقيال خائفٌ مستسلم للمصير، وأمي لا تريد إلا نجاة ولدها في أيّ أرضٍ كانت. أشفقتُ عليها كثيرًا، فأنا أعرف أنها لا تريد الهجرة أبدًا، لكنها كانت يائسة مُحطّمة الرجاء، تكره أنْ تنزل بأرض يحكمُها أعداء حبيبها، تشعر أنَّ الرحيل خيانة لأبي، وإنْ لم تبُح بهذا، لكن وجيعة القلب فضيحة لا يسترُها شيء. رضيتُ بما قررته أمي، ومضيتُ بغير كلام أحزم الحقائب التي أحضرها جدّي، لنحملَ عزيزَ المتاع.

على ظهر طائرةٍ ركبت، وفي أرض فلسطين نزلَت. يمنيٌّ، أبوه مسلم، وأُمه يهودية، نزلَ بأرضٍ لم ينقطِع عنها سيلُ الدماء منذ خلَقَها الله.

اليوم الثاني

حطَّت الطائرة في مطار حيفا. (طائرة أمريكية.. تحمل يمنيين.. إلى أرض فلسطين؛ ليصبحوا شعب إسرائيل)، معادلة لم أفهم أركانها، بين أربعة لا يعرف بعضُهم بعضًا! مصيرٌ تحدَّدَ ولا أحد يعرف مَن حدَّده، فقط قيل لنا: «اِمضوا»، فمضينا.

الفقر فصيحُ اللسان لا تَخفَى حقيقته، وملابسنا التي تستر أقل مما تُظهر، تفضحُ فقرنا وتُخبر عن موطننا المُـعوز. النساء يبكين، والرجال صامتون يمضغون حزنهم وما اصطحبوه معهم من «القات»، يعرفون أنهم مُساقون لا يملكون أمرَهم، لا يجدون ما يُسكّنون به قلوبَ النساء والصغار؛ إذ إنَّ قلوبهم هم أنفسهم غير ساكنة، وباروخ يجلس في مقدمة الطائرة يصيح: «يا أرض الميعاد، يا أرض الأجداد، إنه الوعد». ولا أحد ينظر إليه، أو يرد عليه. خوفٌ يكسوه الصمت، وصمتٌ يتدفق من رحم الريبة، وارتيابٌ منشؤه جهل المصير.

نزلنا صفًّا واحدًا، مثل أسرى حرب، أركبونا حافلات لم نرَ مثلها في أرض اليمن، ومضوا بنا إلى مُخيم (معبروت) على أطراف حيفا، مُخيم تحوطه أسوارٌ من حديد، وعلى بوابته لافتة كبيرة، مكتوب عليها بالعبرية آيةٌ من التوراة: «أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِالْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ». هل جاء بنا الرب إليه حقًّا، أم أنَّ الغرباء هم مَن فعلوا؟! لا بأس فقد جئنا في النهاية.

ظننتُ أننا أول الوافدين إلى معبروت، لكن أجنحة النسور كانت قوية جدًّا، حملَت قبلنا آلاف اليهود، المُخيم مثل يوم المحشر، كأنَّ اليمن كله قد جِـيءَ به، سألت جدّي: «هل كل هؤلاء من يهود اليمن؟». فقال: «انظر إليهم يا بنيّ، تُخبرك وجوههم الطيبة، وخِرقهم المُمزقة إنهم من اليمن».

المُخيم كبيرٌ جدًّا، أكبر من قريتنا كلها، لكن ليس ثمَّة شجر هنا ولا منازل، فقط خيام تمتد، كأنها كل العالم. أسيرُ بجوار أمي بين الخيام وهي تمسك يدي، مَن يراني وهي تسحبني يظن أني طفل لم يجاوز الثامنة من عمره، وليس غلامًا بلغ الثانية عشرة.

كنت أخرج مع جدّي لنقف في الصفوف الطويلة أمام السيارات التي تأتي بالطعام، طعام لا مذاق له، طعام غريب، يقدمه أغراب إلى غرباء. أمي لم تكُن تغادر الخيمة، إلا مرة أول الصباح ومرة أول الليل، لقضاء حاجتها، ثُم تعود إلى الخيمة وصمتها. دومًا تُذكّرني بقولها: «هذه ليست أرضك، لا وطن لك إلا بيت أبيك، فإنْ أنا متُّ، فاصبر حتى يشتد عودك، ثُم عُد إلى اليمن، بيتك هناك في غرقة القليس. هذه وصيتي، فاحفظها ولا تَخُن». عاهدتها ألا أخون، وخُنت.

أطفال المُخيم كثيرون، لكن لا أحد يلعب معي، لا أحد يلعب في الحقيقة، لم تمهلنا الغربة كثيرًا حتى رمتنا بأَرْزَائها، المرض كان يحصد الصغار، كل ليلة نسمع نواحًا من جنبات الخيام، فثمَّة طفلٌ قد مات. اشتد حرص أمي وخوفها، كأنَّ الموت عَدوَى، وباب الخيمة قد يردُّ عدوى الموت في ظن أمي، منعَتني الخروج، فلم أجاوِز باب خيمتنا.

بعد شهرين رفعَت أمي الحصار عني، ليس لأنَّ الخطر قد زال، لكن لأنه صار قريبًا جدًّا، إلى حد الاعتياد، فخفَّ الخوف منه. سمحَت لي بالخروج إلى أطراف المُخيم دفعًا للسأم الذي لم أشكُ منه، وإنْ بدا على وجهي. في أقصى المخيم التقيت بأسرة من يهود غرقة القليس، عرفَتني الأُم فأخذتني إلى خيمتها وقدمت لي طبقًا من العسل وخبز «اليافعي»، فرحتُ به، فالخبزُ الذي يأتوننا به في السيارات لا مذاق له ولا رائحة، لا خبز أجمل من اليافعي، أكلت حتى شبعت. سألتني عن أمي، فأخبرتها إنها بخير، فقالت غدًا آتيكم لأزورها. كان للمرأة بنتان، الكبرى «يونا» والصغيرة «سعدية»، يونا في الحادية

عشرة، وسعدية دون الخامسة، فرحت بصحبتهما ولعبنا معًا، يونا كانت جميلة، كلما أشاحت ببصرها بعيدًا كنت أسترق النظر إلى صدرها، الذي يحمل تفاحتين صغيرتين، ذكّرني تفاحها بحكايات مُعلمي داوود عن بنات يهود المُـشتهَيَات. قضيت ساعة في خيمتهم، وعندما عدت إلى أمي حكيت لها ما حدث، وسألتها لماذا لا تخبز لنا اليافعي مثلما تفعل أم يونا؟ فقالت: «سأفعل». لكنها لم تفعل.

انتظرتُ الصباح ولم أنم، الشوق يشدُّ أجفان عيون المُـشتَهِي، كنت أشتهي رؤية يونا عندما تزورنا أُمها في الصباح، لكن يونا لم تأتِ؛ إذ لم تفِ أُمها بما وعدت. مر أسبوع وأنا أنتظر، حتى غلبني الشوق فذهبتُ مرة أخرى لطرف المُخيم، لكن لم أهتدِ للخيمة، كل الخيام تتشابه، قضيتُ نهارًا بطوله لعلي ألمح يونا لكن خاب مسعى الشوق، وعدت خاويًا. توقفتُ عن البحث حتى نسيت يونا وتفاحتيَها، أجلس كل صباح أمام الخيمة بجوار جدّي، نراقب الوجوه، ندَفعُ الذباب وننتظر سيارة الطعام قبل موعدها بساعتين، بين سيارات الزاد كانت هناك سيارة بيضاء، عرفت أنها للإسعاف والعلاج، وأمامها كانت تقف يونا، وبجوارها أمها تحمل سعدية، التعبُ كان باديًا على الأُم، فدعوتها بغير نية خالصة لتستريح بخيمتنا، حتى يخفَّ الزحام؛ فاستجابت. عَرَفَت أمي فسارعت لعناقها، وجهلتها أمي، ذكّرتها بأنها كانت تشتري منها السلال في سوق قصر السلاح، بعد موت أبي، فتغيّر وجه أمي وكرِهَت أنْ يعرف أحدٌ قصتها مع أبي، علّمتها الغربة أنَّ كل أمر سرٌّ لا يُقال، حتى وإنْ كان الجميع يعرفه.

تركتُ أمي لضيفتها، وجلست مع يونا أمام الخيمة، أردت أنْ أقدم لها شيئًا، كنت أحتفظ ببضع حصوات لها أشكال جميلة، أهديتها ليونا، فألقَت بها وقالت: «ما أصنع بالحصى! هذا ملهاة الصغار ولستُ صغيرة». ثُم قدّمَت البرهان على أنها ليست صغيرة، مدَّت ساقيها أمامها، وحسَرَت الثوب عن سمانتين صغيرتين، حتى ظهَرَ منبت الوركين من فوق الركبة، مثل عمودين رفيعين بلون الحليب، وقالت: «أتلك سيقانُ طفلة تلعب بالحصى؟!». غضَضتُ بصري خجلًا، وظنته هي حُزنًا، فقامت وجمعَت الحصى وقالت: «حسنًا، لا تحزن، سأعلمك لعبة». وضعَت الحصوات على راحتها وقذفَت بها للأعلى، ثُم قلبَت كفَّها بسرعة، فاستقر الحصى فوق ظهر يدها، دون أنْ تسقط منه حصاة واحدة، ثَبُتَ الحصى وقلبي سقَط.

تكررت زيارات يونا لخيمتنا، تأتينا كلما جاءت أمها لتعرض سعدية على الأطباء في السيارة البيضاء، لم أسألها عن داء أختها؛ إذ شغلني داءُ قلبي بها. لم تصدقني يونا عندما قلت لها إني في الثانية عشرة من عمري، وقالت: «سنرى، تعالَ معي». ذهبنا إلى طرف المُخيم الغربي حيث كان هناك عشرات من الخيام الخاوية، أخذتني يونا من يدي ودخلنا إحدى الخيام، نظرت إليَّ وقالت: «إنْ كنتَ حقًّا في الثانية عشرة فقبّلني، الصغار لا يحسنون القُبَل، فدعنا نرى كم عمرك حقًّا».

قالت جملتها ووقفت أمامي، حتى لم يَعُد يفصل وجهها عن وجهي سوى مسافة إصبعين، ثُم أغمَضَت عينيها وقالت: «هيَّا». صعَدَت السخونة من قلبي إلى وجهي، وأنا أنظر لشفتيها الدقيقتين، وخديها المُشرَّبيْن بحُمرة شهية، كانت أطول مني قليلًا، فرفعتُ نفسي ولثمتُ خدها لثمَةً مثل نقرة عصفور. ففتحت عيونها وضحكت بصوت مرتفع، ثُم أمسكَت ذقني وقالت: «أنت حتى لم تبلغ السادسة». فدفعتها للخلف وقلت لها: «أنتِ لا تحبينني». تركتُ الخيمة يدفعني الغضبُ وصوتُ ضحكها الذي لم يتوقف، وهي تناديني: «تعالَ أيها الجبان لأعلّمك كيف يكون التقبيل». فلم أستمع لها، وعدت إلى خيمتنا.

يونا كانت أول يدٍ تطرق بابَ القلب، حبُّ الصغار طيّب ووديع، شغفي بجسدها لم يجاوز خيالي في لحظات وحدتي

العابرة، كان همّي منصرفًا لجعلها تبتسم، بسمتها كانت أكبر انتصاراتي، لكنها صارت نادرة؛ إذ إنَّ المرض يشتدُّ بأختها سعدية، والأطباء في سيارة الإسعاف لا يصنعون لها الكثير، في الخاتمة نصحوا أُمها أنْ تتجه بها إلى (مشفى حيفا) لأنَّ إسعافات المُخيم لا تصلح لحالتها، لكن أُمها كانت واهنة وقد أمرَضَها الحزن، فذهَبَت يونا بأختها إلى المشفى. طلبتُ من أمي أنْ أذهب معها، فرفضَت، وقالت: «أخاف عليك التيه في مدينة غريبة». ولم تقتنع بحجّتي أني أكبر من يونا بسنة.

عادت يونا دون أختها، إدارة المشفى قررت احتجاز سعدية. تحاملت أُم يونا على نفسها وقررت في اليوم التالي أنْ تذهب إلى صغيرتها، حاولَت أمي أنْ تقنعها بالبقاء وتذهب هي بدلًا عنها، فأبَت. ذهبت أمي معها ولم تتركها، وبقيتُ في الخيمة وحدي مع جدّي، غلبَهُ النومُ فذهبَ إلى الفراش، وغلبني الشوقُ فذهبتُ إلى خيمة يونا. لم يكُن سواها بالخيمة، جلسنا صامتين أمام باب الخيمة ساعةً، ثُم سألتها عن أبيها، فأخبرتني إنها مثلي يتيمة، مات أبوها وهي في التاسعة من عمرها، حكيتُ لها مغامراتي في كنيسة القليس، وحكيت لها حلمي حين نمتُ في الحفرة تحتَ الشجرة، لم تُعِر حلمي انتباهًا وقالت بغير سبب: «هل تعرف أني بلغتُ المحيض منذ أكثر من سنة؟». لم أفهَم معنى كلمة «المحيض»، شَرَحَت لي، فكدتُ أنْ أموت خجلًا، ضحكَت من خجلي وقالت:

- عيونك تصبح حلوة، حين تخجل يا حسّون.

- وأنتِ شعرُكِ جميل.

- تعالَ ندخل الخيمة فأنا أشعُر بالبرد.

دخلتُ وجلستُ قريبًا من باب الخيمة. فقالت:

- لا، تعالَ هنا على الفراش.

دخلنا تحت غطاءٍ واحد، عرتني وتعرت، تعانقنا كغصنيْن، دفءُ جسدها سرَى في عروقي، وأنفاسها نفثَت النشوة في وجهي وهي تُقبّلني، فقبّلتُها حتى رَضيَتْ، ثُم رحنا في نوم عميق عاريَين مُتعانقَين، دون أنْ أطرق بابها المُغلق، أو يخطرَ حتى ببالي أنْ أفعَل.

«ماتت سعدية». هكذا قالت أمي وهي تحتضنني وتخبئني بين ذراعيها، كأنها تريد إخفائي عن شيءٍ يقترب. تركتُها وجريتُ إلى خيمة يونا، وجدتُها صامتة وعيونها مفتوحة على الفراغ، ريقُها يسيلُ خيطًا على جانب فمها، مشدوهة تائهة، لا تبكي ولا تتكلم ولا يطرف لها جفن، وأُمها تجري بين الخيام، تفتح كل خيمة وتسأل: «هل رأيتم سعدية؟». تفتش خلف صناديق القمامة وتمسك سور المُخيم وتصرخ: «سعدية تعالي، نحن غرباء هنا، فلا تبتعدي يا حبّةَ عيني».

ضمَمتُ رأسَ يونا لصدري، فلم تقاوم؛ إذ لم تكُن هنا، كانت هناك، في تلك البقعة السوداء التي تنسحِقُ فيها القلوب وتسكن أقسى زوايا البرد والألم، لا تحسُّ بنبض قلبي ولا مسّ يدي على شعرِها، عيونها مخيفة، اكتمالُ الحزن فوق الوجه المفجوع، يُرعِب القلوب، فارتعَب قلبي. حاولتُ أنْ أُغمِض عينيها، مررتُ أصابعي عند أعلى جبهتها، ونزلت حتى أنفها لأُغمض الجفنين، لكنهما مثل بوابةٍ منزوعة الأقفال، ما إنْ تغلقها حتى ترتد فتنفتح. تركتها وذهبت إلى أمها لأعيدها إلى الخيمة، لعل يونا حين تراها تفيق من ذهولها الذي يحرق قلبي، لكن أُمها كانت أشد ذهولًا من ابنتها، ما إنْ رأتني حتى صاحت: «سعدية يا حسّون، ابحث معي يا ولدي وستجدها فأنتَ مبارَك وطيّب، ابحث معي». لم يحتمل قلبي كل هذا، عندما عدت إلى خيمتنا، وجدتُ أمي تبكي الصغيرة، أو ربما تبكي خوفًا عليَّ من مصيرٍ مثله، جاءت إلى هنا لتدفَعَ عني

الخطر، فإذا المخاطر أقرب ما تكون.

عمَّ الحزن المُخيم وساده الخوف المجهول، أصبحت تتردد الحكايات التي تنهش قلب كل أُم. «إنهم يختطفون الأطفال الذين يذهبون إلى المشفى من أبناء اليهود (السفرديم)، ويعطونهم ليهود (الأشكيناز) ليعوضوا حرمانهم من الأبناء». هكذا أصبح يردد كل مَن كان في المُخيم. لا أعرف هل ما رددوه حقيقة أم أقاويل؟ لكن سعدية لم تَعُد، ولا عادت جثتها.

تكررت مأساة أُم يونا مع أمهات كُثُرٍ، طفلٌ يمرض، فيأخذونه للمشفى، ثُم لا أحدَ يراه بعد ذلك أبدًا. حتى أصبحَت العائلات تخفي أبناءها إنْ أصابَهم المرض، ويتكتمون الأمر كأخطر الأسرار، فليشفَ، أو يمُت بين يدي أبويه، فإنَّ الحدأة تنتظر في المشفى، لتخطف صغار الدجاج.

قضينا بالمُخيم أربعة أشهر، مرت كئيبة سوداء، لا ينيرها شيءٌ إلا قَبَسٌ من وجه يونا التي ما عادت تُقبِّلني ولا أقبّلها، نقلونا بعدها إلى (المستوطنة)، اختلطَت فيها صنوف اليهود، كان معنا مصريون وعراقيون ومغاربة، يهود العراق كانوا متذمرين، يقولون إنها أقل رفاهية وأدنى شأنًا من مستوطنات اليهود الأشكيناز، وإنَّ حياتهم بالعراق كانت خيرًا من إقامتهم بإسرائيل، المغاربة والمصريون كان لهم رأي مخالف ليهود العراق، أما قوم أمي فكانوا صامتين لا يدلون برأي، وإنْ كانت وجوههم تدل على الرضا، أدهشَتهم روعة المنازل ورفاهية الحياة فيها، يكفي أنَّ بها كهرباء وأجهزة لم يرَ أحد مثلها في اليمن قط. سألتني أمي: «أسعيدٌ أنتَ بهذا البيت يا حسّون؟». قلت لها: «هو بيت جميل، لكنني لا أحبه وأشعر أني غريبٌ فيه». رضِيَتْ أمي بجوابي، كنت أعرف أنها تختبر ولائي لبيتنا في اليمن، فأجبتها بما يرضيها، ولم أكُن كاذبًا، طيلة السنوات التي قضيتها بأرض فلسطين لم أشعر بها وطنًا، والحقُّ أني على امتداد القرون لم أشعر بولاءٍ لأي أرضٍ فوقَها سماء.

أعطت السُلطات جدّي راتبًا شهريًّا للإعاشة، قال جدّي إنه قليلٌ، لكنه يكفي. ربما قالها حتى لا يقرّ بعجزه، فماذا يفعل صانعُ الخناجر هنا؟! رقّت يداه وصارتا ناعمتين، كثيرًا ما كان يبسط راحتيه ويقول لأمي: «صارت يداي كأيدي النساء يا صفية». حزنت أمي عليه وأشفقت على حنينه لليمن، فأشارت عليه: «يا أبي الناس هنا غرباء، ما عاد يربطهم باليمن شيء، والغريبُ إذا وجد قَملةً من أرضه وضَعَها في رأسه، فلو صنعتَ الخناجر لأحبّها قومنا من يهود اليمن وأقبلوا عليها». أصابت فطنة أمي، فما من يهودي يمني إلا واشترى من جدّي جنبيَّة، ربما حنينًا لليمن، وربما انتقامًا منه، حُرِموا طويلًا من وضع الخناجر على خواصرهم، واليوم هم المنتصرون، ووضعُ الجنبيَّة دليلٌ لا تخطئه العيون.

استعاد جدّي عافية روحه السقيمة، لم أرَه فرِحًا بصنع الخناجر في اليمن، مثلما رأيت فرحته في إسرائيل، لكن فرحته لم تَطل إلا لبضعة أشهر، أعلن القائمون على إدارة المستوطنة عن قائمة يحظرون فيها بعض الأمور، وكان على رأس المُحرمات التي أعلَنتها الإدارة: كل عادة عربية جاء بها اليهود من بلادهم الأصلية. مُنِعَ يهودُ العراق من غطاء الرأس، وحُرِمَ يهود المغرب من جلبابهم، كما حُرم قومي من وضع الخناجر فوق الخاصرة، أرادوا استخلاصَ اليهود كشعرةٍ من العجين العربي. أخفقَت إدارة المستوطنة، ولم تحقق مرادها، تمسَّك اليهود العرَب بما ورثوه، إلا جدّي. استجاب لهم وآثَرَ السلامة، فلم يَعُد يصنع الخناجر، وعمل أجيرًا بإحدى المزارع على ضعفه ووهنِ عظامه.

لم يكُن لي من صاحب في المستوطنة إلا «زكريا الزبيدي». كان من يهود العراق، تعرفت إليه في المدرسة التي أخذونا إليها، جمعنا فصلٌ واحد؛ إذ كنا في الفصل الوحيد المُخصص للذين يحسنون القراءة، بينما كل صفوف المدرسة كانت للأُميين. كان زكريا من يهود بغداد الميسورين، وأنا من فقراء اليمن، كان وسيمًا ولم أكُن كذلك، يتحدَّث مع الناس بغير حرج، وأتحاشاهم بغير سبب، ومع ذلك كان مثلي بلا رفيق. جاء إليَّ يومًا في فناء المدرسة وكلمني، فلم نفترق بعدها،

أصبحَ يمرُّ عليَّ كل صباح لنذهب معًا إلى مدرستنا، ثُم نعود معًا وأيادينا متشابكة، أُوصله إلى بيته، فيضع حقيبته ثُم يوصلني إلى بيتي. جمعنا أيضًا أنه كان مثلي هزيلًا، فلم يتمَّ ضمُّنا إلى فِرق الرياضة القتالية، لكن الأمر لم يستمرّ طويلًا؛ إذ أخذوا الجميع إلى مُخيم السلاح لنتعلم إطلاق النار، لم أكره بحياتي صوتًا مثل صوت الرصاص، الشابُّ الذي يُدرِّب الصِبية على إطلاق النار، كان هو نفسه الذي يعلِّمُنا قواعد اللغة العبرية، ويُدرِّسُ لنا التاريخ في المدرسة، قلتُ له: «لا أقوَى على حمل البندقية». يئِسَ مني وتركني بعدما حاول تشجيعي مرة بعد مرة ولم أستجب، حاول زكريا جاهدًا أنْ يتعلم إطلاق النار ولم يستطع، فشل رغمًا عنه، وفشلتُ بإرادتي. لكنهم لم يستسلموا تمامًا، علمونا أسماء أجزاء السلاح، وكيفية تفكيكه ثُم تركيبه، وأصرُّوا على أنْ نشاهد مَن يطلقون الرصاص، حتى لو لم نشارك معهم. كرهتُ الأمر كله، وعندما علمت أمي أنهم يدربون الصبية على القتال، قالت: «لن تذهب إلى تلك المدرسة بعد اليوم».

عرفَت أُم زكريا بقرار أمي من ولدها الذي لم يحفظ السرّ، فأخبَرَت إدارة المدرسة إنَّ أمي هي مَن تمنعني. جاء رجلٌ من إدارة المدرسة إلى بيتنا يسأل عن سرّ تغيبي، فقال له جدّي إني مريض لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة. ثُم تكررت زيارتهم بعد أسبوع، وقفت سيارة أمام بيتنا، نزل منها الحاخام باروخ ومعه رجلان غريبان لا نعرفهما، استقبلَهم جدّي، وعرفَت أمي أنهم جاؤوا لأجلي، فلم تنتظر أنْ يردَّهم جدّي مرة أخرى، دخلت عليهم وقالت بغير ودٍّ:

- ماذا تريد يا باروخ؟

تمعَّر وجهه عندما سمع اسمه مُجردًا عن لقب الحاخام، لكنه لم يُعقب على ذلك وسألها:

- لماذا تمنعين حسّون عن المدرسة يا صفية؟

- لم أترك اليمن لأنجو بنفسي، بل خوفًا عليه وحدَه، ولن أدعَكم تُعلّمونه القتلَ وضربَ الرصاص.

- إنه في وطنه وأرضه، دعيه يتعلم ما يتعلمه أبناء إسرائيل.

- حسّون يمنيّ، وسيظل. حملتمونا إلى هنا بالخوف والقهر ورضينا، لكن ورب موسى لن يتعلم ولدي ضرب الرصاص، ولن أجعل منه قاتلًا ولو قتلتموه وقتلتموني.

- ما زال ولاؤك لأبيه الكلب الذي نجّسَك يا ابنة حزقيال.

مشَت أمي إليه كلبؤةٍ غضبَى، استعرت النارُ في عينيها لما سمعت سبّهُ لأبي، رفعت يدها وصفعته على وجهه وهي تقول:

- لا كلبَ سواك، والنجاسةُ في قلبكَ أنت. اخرج من هذا البيت، وإلا قسمًا برب موسى وهارون لأذبحنَّك في مقعدك هذا.

فغادروا من فورهم، وهم يتعثرون ببعضهم، ويتسابقون نحو البابِ هربًا.

أصابتني الرهبة من وجه أمي، ولم أشك للحظة في عزمها على ذبحه بغير تردد، وأيقنتُ أنَّ لي أُمًّا قادرة على حمايتي من كل شيء.

لزمت البيت لا أجد ما أفعله، لا يُسلّيني شيء إلا زيارة زكريا من وقتٍ لآخر، حتى أخبَرنا جدّي إنَّ «عمران بن موشيه» يريدني أنْ أساعده في دكانه الذي افتتَحه بالمستوطنة، وافقت أمي أنْ أعملَ في دكانه، بعدما علمت أنه من يهود اليمن، حينها عرفت أني كبرت، حتى إني أجلب من «الشيكلات» في أسبوع واحد، أكثر مما كانت تجلبه خناجر جدّي في شهر.

مر عامان لا أفعل فيهما شيئًا إلا إنفاذ وصايا أمي، ومراقبة شيخوخة جدّي، وزيارة زكريا بعد العمل، يأتيني أو أذهب

إليه، لم تمنعني أمي عنه رغم كراهيتها لأمه التي وشت بنا، تدرك أني وحيد لا صاحب لي، فلم تمنعني عن رفيقي.

على ضآلة جسدي وقلة خبرتي بمعاملة الناس، فإنني أصبحت أكثر وعيًا، وأبعد فهمًا لما يدور حولي، أفكّر في كل شيء، وأبحث عن أجوبة لألف سؤال يدور بعقلي.. لِمَ أنا هنا؟ كيف يكون الأمر لو أني مُسلمًا خالصًا أو يهوديًّا صِرفًا؟ مَن صاحب تلك الأرض حقًّا؟ إذا تقاتل مُسلم فلسطيني مع يهودي يمني، فهل سأكون في صف قوم أمي أم قوم أبي؟ إذا كان حقًّا كل اليهود من أصل واحد، فلماذا أرى يهودًا سُودًا كأنهم الفحم، وآخرين بيضًا كالثلج؟ ما الأشكيناز وما السفرديم؟ ولماذا هذه الأسماء الغريبة على أُذني؟ ماذا، ولِمَ، وهل، وكيف.. أسئلة تلسع عقلي وتصعقه كبروقٍ تومض وتختفي، أهتدي للجواب حينًا، ثُم أنقلبُ على ما اهتديتُ إليه، تيهٌ لا يزول، وحيرة لا تنتهي، غيرَ أنَّ هذه التساؤلات التي لا جواب لها، كانت ملاذي لتخفيف وحدتي الخانقة، وطريقتي لتمرير أيامي الطوال التي تتشابه كلها.

مِن بين كل الأشياء العجيبة من حولي كان «اليهود العرب» أكبر أحجية لم أفهمها، كانوا خائفين على الدوام، كأنهم يريدون أنْ يدفعوا تهمة عن أنفسهم، يريدون إثبات ولائهم الجديد، فكانوا الأكثر تحمُّسًا للقتال والأسرع في انضمامهم للجيش، في سنوات قليلة تغيَّرت ألسنتهم، فما عاد يمنيّ ولا عراقي ولا مغربي ولا مصري يتحدَّث العربية، صارت العبرية هي صوت الجميع، عدا الشيوخ والعجائز، عجزت ألسنتهم عن تبديل أماكن «الباء» و«الراء».

عندما كنت أزور زكريا في بيته، كانت جدّته تأتي لتجلس معي، تتلهفُ لمَن تتحدّث إليه بعربية تعرفها؛ إذ منعتها ابنتها من التحدّث بغير العبرية، وأمرت ابنها زكريا أنْ يُعلِّمها كل ما يتعلمه في المدرسة، وعندما تراها تتحدّثُ معي بعربية مشتاقة، تنهرُها بقسوة، حتى تبكي العجوز. كرهتُ أُم زكريا كما كرِهتها أمي مِن قبل، وأصبحت أتجنب العجوز في حضرتها، حتى لا يمسّها شرّ ابنتها، فإذا غابت عن المنزل خلوتُ بالعجوز، أُحدّثها شفقَةً عليها، وتُحدّثني شوقًا للسانها الذي لم تعرف سواه. ثُم لم أعُد أذهب لزيارة زكريا إلا نادرًا، كراهيةً لرؤية أُمه.

لزم جدّي البيت، بعدما سقط في المزرعة لا تحمله قدماه، نخرت السنون عظامه، فما عاد يقوى على حرث ولا حصاد، فصرفه صاحب المزرعة بعدما أعطاه زجاجة في حجم كفِّ طفل، من زيت الزيتون. كان جدّي يبكي كثيرًا ويقول: «كنتُ أزرع وأحصد وأعصر الزيتون، ثُم صرفني مثل كلبٍ عن مزرعته، وأعطاني زجاجة زيت أدلّك بها ركبتَيّ، يا له من حقيرٍ رحيم!».

كان لعمران صاحب الدكان بنتان، «ميرا» و«سارة»، سارة كانت طفلة لم تتجاوز السابعة، أما ميرا فكانت في التاسعة عشر. سارة كانت جميلة كأبيها، ميرا ورثت عن أُمها السِمنة والدمامة، لم أحبّها ولم أكرهها، فمُها الضيق وأسنانها غير المنتظمة تذكرني أني خسرت كثيرًا، حينَ فقدت يونا الجميلة، رغم تتابع الحوادث وانشغالي بالعمل لم أستطِع نسيانها، وددتُ لو أني لم أرَها قط بعد أيامنا في المُخيم، لتظل ذكراها نقيّة في قلبي، فجعَتني رؤيتها مرة بعد مرة في الحدائق المهجورة وأنا عائد من عملي، كل ليلة أراها بين يدَي يهوديّ غريب، من أولئك الرجال زرق العيون بيض الوجوه. عندما قابلتها يومًا في وضح النهار، تفلَّتَت بسمة من قلبي، وتسللت إلى شفتي، لكن يونا لم تبتسم، أعرضَت عني كأنها لا تعرفني، أو لعلها تعرف أني أعرف، فحجبَها الخزيُ عني. حين أخبرتُ أمي إني رأيتها قالت: «لا شأنَ لك بها ولا تُكلمها أبدًا». ظننتُ أنَّ أمي عرَفَت ما عرفتُهُ عن يونا، لكن جدّي أخبَرني بأمر آخر، قال لي: «لا تحزن، أمك تخاف عليك من بنت الفاجرة، أُمها جعلت بيتها فراشًا للزنا، لو حزنت على صغيرتها حقًّا لما صارت داعرة». فقلت: «بل لعله الحزن على طفلتها، هو مَن فعل بها ما فعل». لم أعُد لذِكر يونا بعد ذلك قط، أغلقتُ قلبي دونها، فلم أعُد أراها.

خمس عشرة سنة مرت علينا، تغيّر فيها كل شيء من حولي، جدّي يزداد ضعفًا، وأمي تُوغل في غربتها أكثر، ما عادت تخرج للمعبد ولا تواد أحدًا، لا تزور ولا تُزار، زكريا أصبح ضابطًا في الجيش، والحاخام باروخ صارَ له سلطانٌ كبير وكلمة تسوق الجميع، المستوطنة زاد سكانها وازدحمت طرقها، وكلما زاد الناس هنا؛ زاد ارتفاع الأسوار من حولنا، لم نكُن نعرف الأسوار في اليمن حول بلدات اليهود وقراهم، لكنْ ها هنا دومًا سورٌ وسرداب، وخوفٌ لا يزول، أهل المستوطنة يرددون دومًا إنَّ الفلسطينيين يتربصون باليهود في كل مكان، كثيرًا ما يصحو الناس على خبر قتيلٍ وجدوه على أطراف بستان، أو مُلقى على جانب طريق، العرب يكرهون كل يهوديّ ويستبيحون دمه، لا يفرقون بين رجل وامرأة، ولا تميز خناجرهم بين ظهر يهودي عربي، ويهودي غربي، فارتفعت الأسوار لتحجب هؤلاء، عن غضب أولئك. أصبحتُ أخافُ اليهودَ والعرب على حد سواء.

ورغم مضي السنوات واستقرار أمرنا في إسرائيل، فإننا ما زلنا نشعر بالغربة في كل زاوية من حولنا، لكننا رضينا بالأمر، فلم نكُن نبغي إلا أنْ نسلم من الأذى، لكنها كانت أُمنية بعيدة المنال، أعلنت إسرائيل الحرب، وكلما انطفأت حربٌ؛ قامت في إثرها أخرى، اجتاحَ قومُ أمي بلاد العرب من حولنا، وفي ستة أيام هَزمَت إسرائيلُ جيوشَهم، وامتلكَت أرضهم في مصر وسورية وفلسطين، في ستة أيام أقام الله مُلكه، وفي ستة أيام أقام قوم أمي دولة، فَرِح كل يهودي، إلا أمي، مضغها الحزن، كانت تخجل من ذكر هزيمة العرب، فأبي عربيّ. وجاءت بعدها حرب «يوم الغفران» وانتصر العرب، حَزِنَ كل يهوديّ، وفَرِحَت أمي، كأنما قد اعتذَرت لحبيبها، بهزيمة قومها، على يدِ قومه، حربٌ بحربٍ، وهزيمةٌ بهزيمةٍ، متعادلان. وأنا مثل رياح لا تنتمي لأرض، ولا تعرف لرحلَتْها قِبلة، أمُرُّ ولا أمكث، أشاهدُ ولا أشارك، حارَبوا ولم أحارب، انتصَروا ثُم هُزموا، وأنا قاعدٌ مع القاعدين، فما زال وجهي وجهَ طفل، وجسدي جسدَ غلام صغير، لا نفع به في حرب ولا سِلم.

تمرُّ السنوات وأنا لا همَّ لي إلا أنْ أنفق على أمي وجدّي، أنتقلُ من عمل لعمل، دون أنْ تكون لي حرفة أتقنها أو مهنة أمتهنها، فلا أنا تاجرٌ كأبي، ولا أنا صانعٌ كجدّي، وفي غمرة الحوادث ومرور السنوات نسيتُ القرآن كما نسيتُ التوراة، لم أعُد أُصلي، لا ليَهْوَهْ ولا لله، لا قِبلَة لي، لا إلى مكّة ولا إلى أورشليم. حتى جاوزتُ الأربعين من عمري، ولي هيئة فتى بالكاد بلغ الثامنة عشر، العجيب أني لم أشعر قط أنني أصبحتُ رجلًا، لا أستقر بعمل ولا أفكر في زواج ولا أعرف لمستقبلي وجهةً، أمي لم تعاملني يومًا إلا كغلام، إنْ لم تحمِه بنفسها أصابته المهالك، والناس من حولي لا يرون أني صرت رجلًا أو لا يقرون بهذا، ربما لأنَّ الاعتياد يُعمي البصر فلم ينتبهوا لوجهي الذي لا يتغير، الغرباء وحدَهم يرون، ولذا كنت أتجنَّب الغرباء ما استطعت، أو أخفي عنهم حقيقة عمري إذا اضطرني الأمرُ أنْ أخالطهم خارج المستوطنة.

جاوزَ جدّي الثمانين من عمره ونكَّسَهُ الرب في الخلق، فصارت جدران جسَدِه تتداعى، كان حزقيال جدّي وأبي، وكان واسطتي التي لا تخيب حين تحتدُّ أمي وتبالغ في حمايتي، فيذهب إليها ويطلب منها أنْ تخفف من خوفها ولا تكبّل حريتي، فتستجيب له، كنتُ عُكازَه وكان درعي. عندما كُنا باليمن، كان يرجو أنْ يُؤمِن قلبي باليهودية وحدها، ولا يرضى بنصفي المسلم إلا مراعاة لخاطر أمي، بعد هجرَتِنا لإسرائيل لم يَعُد يعنيه الأمر، كان غاضبًا هو الآخر مثل أمي، يذكر مُعلمي داوود حين يخلو بي ويقول: «الآن أصدّقك يا حسّون، وأعرفُ مَن قتَلَ داوود. ليس هكذا قال الرب يا بني، ولا بمثل هذا أمَر». لا أدري أكان حينها يعتذر إليَّ عن قتل مُعلّمي الذي تعلّق به قلبي، أم كان يُبرئُ التوراة حتى لا آخذها بذنب القتلة؟!

رغم ضعف جدّي فإنه كان يحرص على الذهاب إلى المعبد، وعندما تطلب منه أمي أنْ يستريح في البيت ولا يرهق نفسه، لا يستجيب لها ويقول: «لم أعجَز بعد يا صفية». يكذب، فقد ضربَه العَجز، ونحن نساعده على تصديق كذبته،

شفقة عليه، فلم نمنعه عن المعبد، أذهبُ به وأتركه هناك حتى منتصف النهار، ثُم أعود به إلى البيت، يومًا قال لي ونحن في طريق عودتنا:

- اذهَب إلى المعبد غدًا، باروخ يريد أنْ يلقاك هناك.

- ما الذي يريده مني باروخ؟

- لا عِلم لي يا بني، لقد طلب مني هذا من قبل ولم أخبرك، وعندما سألته ماذا يريد، لم يُجِبني بشيء، وجاءني اليوم وألحَّ في طلبك، لكنه هذه المرة قالها بصوت لا يخلو من التوعد، فاذهب إليه لنعرف ماذا يريد.

- لن أذهب إليه يا جدّي، ليس هناك وجه خلقه الله، أبغَض إليَّ من وجه باروخ.

- إنَّ له اليومَ سلطة لا قوة لنا على ردها يا بني، وإني أكرَه ما تكره، لكنه هدّدني، إنْ لم تذهب إليه أتوا هم بك، فاذهَب واسمَع منه ولا تجِبه، كُن أُذنًا بغيرِ لسان.

أشفقت على ضعف جدّي وخوفه، وذهبت إلى باروخ في اليوم التالي، ما زال كما هو منذ عرفته في اليمن، نظرته المرعبة وصوته الذي يسحب الأمان من العروق، لا شيء فيه تغير. جلست أمامه بغير كلام، فقال لي:

- كبرتَ يا حسون.

- كل الناس تكبر.

- فلماذا لا يظهر عليك الكِبَر ككل الناس؟

- مشيئة الرب، وهو يصنع ما يشاء.

- نعم. إنَّ للرب فيك مشيئةً منذ مولدك، بل منذ حبلت فيك أمك، أخبرني كم أصبح عمرك يا حسون؟

- خمسٌ وأربعون سنة.

- خمسٌ وأربعون سنة! قضيتَ منها في إسرائيل ثلاثين سنة أو يزيد، ولا أثر لك. حاربنا العرب وهزمناهم، ولم تكُن معنا، حاربتنا مصر وهزمتنا ولم تكُن معنا، اجتاح جيشنا لبنان وأنت جالس بجوار أمك، نقاتل العرب كل يوم ويقاتلوننا وأنت عالة لا تشارك في حرب ولا تدافع عن وطن، ألستَ يهوديًّا مثلنا؟

- بلى، لكن أحدًا لم يطلبني للحرب ولا لغيرها.

- الآن نطلبك، كُن معنا وسيكون لك شأنٌ عظيم طال انتظاره، إنْ أطعتني سأجعل لك ما لم يكُن ليهودي من قبل ولا من بعد.

- أنا لا أطمع في شيء، ولا أريد إلا أنْ أعيش بأمان، ما لي والحرب والمعارك؟

- لأنك تحيا هنا، ولن تعيش هذه الدولة بغير الحرب، لن يتحقق الأمان لأي يهودي فيها إنْ توقفت المعارك.

- الجميع أصبح يتحدث عن السلام، لستَ المُخْلِص الوحيد هنا.

- السلام! هذا تحديدًا هو الذي سيقضي على دولتنا، هل ترى شيئًا يجمع بين شعبنا؟ أي شيء غير اليهودية؟! أجناسٌ تختلف، سودٌ وبيضٌ، عربٌ وعجم، لا شيء يجمعنا إلا الأسد الذي يتربص بنا، الخوف وحده هو الذي يحفظ هذه الدولة، فإنْ زالَ خوفها زالت. وهؤلاء الذين يتحدثون عن السلام هم أخطر على إسرائيل من أعدائها، إنهم يحفرون قبر أمتهم بأيديهم، ما الذي سيجمع الفرقاء إنْ زالَ الخوف؟

- ولماذا يجب أنْ نخاف، لا شيء ينقصنا، فلماذا لا نحيا بسلام؟!

- لأننا أُمة تحتضر، انظر إلى الفلسطينيين من حولنا، يتناكحون ويتناسلون كالأرانب، ورحم إسرائيل عاقر. إذا حلّ هذا السلام عاشوا بيننا وعشنا معهم، وما هي إلا سنوات حتى يفوقونا عددًا أضعافًا مضاعفة، وحينها تذوب إسرائيل كقطعة ملح في بحر من العرب، والحرب وحدها هي ما تجعل هذه القطعة عصية على الذوبان.

- وهل يجب أنْ أعلن أنا هذه الحرب؟ أنا لا قدرة لي على فعل شيء، ولا أكترث لما تقول، فماذا تريد مني؟

- أنْ تصبح واحدًا منا، ستكون معنا في حركة «كاخ»، تعرفها ولا شك، نحن أمل اليهود الذين سيقيمون الشريعة، لتستقيم دولتنا على عهد الرب، وستكون أنت الدليل على الحقيقة المنتظَرَة، لقد تحدثت مع الحاخام «كاهانا» وعندما أخبرته بأمرك، رأى فيك ما رأيته.

- لا شأن لي بما ترون، ولا فائدة مني في حروبكم ومعارككم، يعنيني فقط رعاية أمي وجدّي.

- أنت لن تقاتل، ولن يمسّك سوء، وسنكفل لك رعاية أهلك ونزيد.

- إذًا، دعني أعود إلى أمي، ثُم أنظر في أمري.

- عُد إليها، لكن ستفعل ما أمرتك به، قبِلَت أمك أو رفضت.

ارتعبت أمي عندما أخبرتها بما طلبه مني، وقالت: «لا بُد أنْ نهرب من هنا». أخبرتني إنَّ لها قريبًا يعيش في (تونس) ويمكن أنْ نذهب إليه. استخرجنا جوازات للسفر، وعندما عزمنا على الرحيل منعونا؛ إذ كانت أسماؤنا مدرجة على قوائم الممنوعين من السفر، استخدم باروخ قوة حركته، وجعل السلطات تخضع لأمره، كان يعرف أننا سنهرب فسبقنا بخطوة وأعدَّ للأمر عدته، ما عاد الخروج من إسرائيل مُمكنًا، فقررنا ترك المستوطنة والرحيل إلى أي مكان، بعيدًا عن الحاخام. عشر سنوات ونحن ننتقل من مدينة إلى مدينة، حتى لا ترصدنا العيون التي يبعث بها باروخ في إثرنا، ذهبنا إلى (تل أبيب) ثُم انتقلنا إلى (القدس) وكلما شعرنا بالخطر رحلنا إلى مكان جديد، حتى استقر بنا المقام في مستوطنة (كريات)، وهناك أحاط بنا باروخ فلم نجد مهربًا.

عندما علمَ باروخ بوجودنا في مستوطنة كريات، لم ينتظر ساعة واحدة، أرسل إلينا خمسة من الجنود اقتحموا علينا مسكننا، كأننا مجموعة من اللصوص، وأخذوني إليه. أدخلوني إلى غرفة لا نوافذ لها، وتركوني لساعتين بمفردي، ثُم دخل باروخ إلى الغرفة ومعه ثلاثة من الحاخامات، عراقي وغريبان من أصحاب البشرة البيضاء زرق العيون. تحدثوا إليَّ بالعبرية، فلم أشأ إزعاجَ كراهيتهم بنطق العربية، فتكلمتُ معهم بلسان يُذكّرهم أني منهم. كانوا يحدّقون بوجهي وهم صامتون، نظرة الارتياب في أعينهم أخبرتني إني لن أنجو منهم، وبعد دقائق من الصمت المُخيف، سألني باروخ بودٍّ كاذب:

- كيف حال أمك؟

- طيَّبَها الربُّ، ما زالت بخير حال.

ثُم سألني العراقي:

- كم عمرك؟

- خمسٌ وخمسون سنةً.

قال أحدُ الغريبين:

- وجهُكَ وجهُ غلام لم يبلغ العشرين، لماذا لستَ تكبر؟

- سَلِ الله يُخبِرك.

أغضبه ردِّي، وتململ في مجلسه لكنه لم يعقّب على جوابي. قام باروخ عن كرسيه وسألني:

- هل تراودك الرؤى يا بُني؟

- كلُّ نائم يحلم.

- وبماذا تحلم؟

- أضغاث أحلام، أراها ثُم أستيقظ فلا أذكر منها شيئًا، وأحيانًا أحلم بمُعلمي داوود الذبيح.

طفحَ الغضبُ من وجهه لما سمع اسم مُعلمي داوود، وأخرسه الغيظ، فسألني الغريب الثاني:

- هل رأيتَ الرب في أحلامك أو سمعتَ صوته يا بُني؟

- لا.

عاد العراقي وسأل:

- هل حقًّا حبلت فيك أمك سنتين وسبعة أشهر؟!

- هكذا قالوا.

- وهل تُصدق قولهم؟

- أُصدق أمي.

- وماذا قالت أمك؟

- قالت إني سكنت رحمَها عامين وسبعة أشهر.

أشار باروخ بكفّه إلى الحاخام الغريب فسكت، ثُم نظر إليَّ وأشار بسبابته إلى وجهي وسألني:

- أبوك كان مُسلمًا وأمك يهودية، فأي الدينين في قلبك؟

- دين الله.

- أيهما؟

- أتقرُّ إذًا أنَّ لله دينَيْن؟!

- «لا»، لا دين في الأرض إلا ما جاء به موسى، ومحمد كذّاب.

- فلماذا تسألني عن دينيْن؛ إذ ليس سوى دين واحد لله في الأرض؟!

- «لا تراوغ». هكذا قال الغريب الأول مُقاطعًا حديثي مع باروخ. قلتُ له:

- لا أراوغ، أمي يهودية وأبي مُسلم، نظرتُ فلم أجِد فارقًا بينهما، كتابٌ وكتابٌ، قرآنٌ وتوراة، كلاهما يُمجّد الرب ويُعلن أنه إلهٌ واحد، لا فرق سوى أنه ها هنا اسمه يَهْوَهْ، وهنالك اسمه الله، اسمان لإلهٍ واحد، وأنا أعبد ذات الإله وإنْ تعددت أسماؤه.

- أنت تُجدّف على الرب!

- لا أُجدّف، أقول ما في قلبي، ما ذنبي إنْ كان لي أبوان لكل منهما دين غير صاحبه؟!

عاد باروخ إلى التكلم، قائلًا:

- ما زلت أسألك عن رؤاك فأخبِرني بها.

- ما الذي يعنيك في هذا؟! كلها رؤى كالتي يراها الناس، ولا أجد فيها أمرًا يستحقُّ الذِكر، إلا رؤيا واحدة رأيتها وأنا طفل أعيش بغرقة القليس، رأيتها وأنا نائمٌ في حفرة الكنيسة البائدة.

ليت لساني لم يزِلّ، لا أعلم ما الذي جعلني أذكر رؤياي أمامهم، وأنا الذي كتمتها عن كل إنسان حتى أمي، ولم أخبر بها أحدًا سوى يونا عندما كُنا أطفالًا في المخيم. هل يمكن أنْ تكون يونا هي مَن أخبرتهم، فألحوا عليَّ في أمر أحلامي ليستوثقوا منها؟ أم أنَّ شيطانًا ألقى بها على لساني أمامهم، ليكمل القدر بلائي؟ وأيًّا كان الأمر فقد جلبتُ على نفسي المهالك كلها، فما أنْ نطقت بها حتى قال الأربعة بصوتٍ واحد:

- أخبِرنا ماذا رأيت؟

أخبَرتُهم. فشقَّ باروخ رداءه ورفع يديه للسماء وقال:

- قسمًا بالرب، وقسمًا بالعصا والتابوت إنه لَهُوَ، هو «المسيحُ المـُخَلِّص»، قالوا إنه لا دولة لليهود إلا بعودة المُخلِّص، وها هو ذا يقفُ بين أيديكم، يسكنُ دولتَكم، ويحيا بينكم، شربَ الدمَ من كأسِ موسى، وحفظ الرب جسده فلم تَجْرِ عليه السنوات بما تَجري به على الناس، حفظه وأخفاه عن أعين الأغيار، وغدًا يشتدُّ ركنه، فنُعلنه لكل اليهود، ليُقدس دولتكم، ويذبَح أعدائكم.

ركعَ العراقيُّ والغريبان أمامي، ولم يركَع باروخ. وأنا أنظرُ إليهم وقلبي وجيبٌ يكاد أن ينخلع من صدري خوفًا، وددتُ أنْ أقول لهم: «لكنني شربتُ من كأس محمد مثلما شربتُ من كأس موسى، فلماذا تمسكتم بهذه وأهملتم تلك؟!». أردتُ أنْ أصرخَ فيهم: «لستُ المسيحَ المُخلِّص، أنتم واهمون». لكنني جَبَنْتُ وأخرسني الفزع، فلم أنبس بكلمة.

عدتُ إلى البيت تحملني قدماي كرهًا، ارتميتُ في سريري وقلت لأُمي: «خبئيني يا أم». فاحتضنتني وهي تردّد: «لا تخَف، لا تخَف». خالفتُ الرجاء وامتلأتُ بالخوف حتى العظام، تراخت روحي وأغمضَ الحزنُ عيوني، فنمتُ نومَ اليائس من كل نجاة. ثُم خرج الصباح فنفضَت الشمس أحزان الليل عن قلبي، وفتح الضوء نوافذ الروح، وأذهبَ الهواء كمكَمَة الحزن، فنهضتُ بخير، أو كأني.

أردتُ الخروج لعملي فوجدتُ ثلاثة جنود يحملون السلاح، وقفوا بوجهي وقالوا: «لا خروج». أخبروني إنهم حراسي، وعندما اعترضت على منعي عن عملي قال قائدهم: «لا تقلق سنتكفّل بكل ما تحتاجون إليه، فلا حاجة للعمل بعد اليوم». كَثُر الأغراب من حولي، حاخامات تختلف وجوهُهم، عربًا وعجمًا، يتكلمون معي، وأنا لا أسمع، يتبركون بي، وأنا لا أحرّك ساكنًا. مُستسلم لهذيانهم، لا أردّ أساطيرهم حولي. الصمت آسر، فأسَرَهم صمتي، وأصبح الجميع فجأة يبصرون أنَّ وجهي لا يتغيّر، وأنَّ شبابي لا تأكله السنوات، فرددوا ما قاله باروخ من قبل: «نعم هو، ورب موسى إنه لهو».

أكل الخوف قلب أمي، وجدّي حزقيال كل ليلة يبكي ويقول: «ليت جدّك إسماعيل كان حيًّا، لأرسلتك إليه يا ولدي، اليهود يقتلون أنبياءهم، وإذا جاءهم مُخلِّصُهم تخلَّصوا منه». حتى جدّي يُصدق أني المـُخلِّص، وما أنا إلا حسّون، أمي

صفية بائعة الخناجر وأبي عبد الله التاجر، لو كنت مُخلِّصًا لخلَّصتُ نفسي.

قررت أمي أنْ نهرب بجنح الليل، استجبتُ رحمةً بقلبها الخائف، وأنا أعلم أنَّ الرحيل عسير. حين خرجنا في غفلة من الحراس، لم نجاوز الطريق حتى وجدنا حراسًا آخرين ينتظروننا، كأننا على موعد، قبضوا على مَن يزعمون أنه مُخلِّصَهم، وأعادونا إلى البيت قسرًا. جاء إلينا باروخ في الصباح، أرادت أمي أنْ تخرج إليه، فمنعتها، قد تغير كل شيء ولم يَعُد صفع وجهه مُمكنًا، عندما خرجتُ إليه سألني:

- إلى أين كان هروبك؟

- وهل أنا سجينٌ، لأهرب؟!

- لا، لستَ سجينًا.

- فلماذا لم تدَعني وشأني؟ ولماذا تضع الجنود من حولي؟

- لأنك لستَ لك، بل لنا. فلا تكرر فِعلتك، ولا تسمع لأمك وجدّك، وكُن على حذر، فإنَّ الأمرَ جدّ.

في اليوم التالي لم يخرج جدّي من غرفته، كعادته كل صباح. كان مطعونًا في القلب بأحد خناجره التي صنعَها، فعرفتُ أنَّ الأمرَ جدّ.

انشقَّ قلبي وتصدعت روحي بموت جدّي، ولم أرَ الدموع في عين أمي، تَصارع الخوف والحزن على قلبها، فربح الخوف السباق، أصبحَت تنام بغرفتي، تفزَع كل ليلة خشية تسلُّل الخناجر لسريري، مثلما تسللت إلى سرير جدّي.

لم أعُد أملك من أمري شيئًا، فلا يَمُر يوم إلا ويطلبني باروخ، أو حاخام من الغرباء، بعضهم زرق العيون بيض الوجوه، وبعضهم سود كأنهم نُزِعوا من قلب فحمة، العالم كله قد اجتمع عليَّ بأعراقه وأجناسه، كل يوم أسمع قصة ينسجونها حولي، فذاك يزعم أنه رأى في الحلم هارون النبي، وقد أتاه حاملًا على ظهره التابوت، وقال له افتح، فلما فتحه وجدني داخله مُمسكًا بالعصا. وآخر يقول إنه سمع صوت «يوشع» واقفًا على عرش يهوذا، وينادي في اليهود جاءكم المُخلِّص من بطن يهودية فاتبعوه. «المسيحُ المُـخلِّص» صار اسمي لا حسّون.

كانوا يسمحون لي بالخروج من بيتي والذهاب إلى المعبد، لكن في رفقة الحراس، دخلت يومًا على الحاخامات المجتمعين وعلى رأسهم باروخ، قلت لهم بغير خوف: «أنا لستُ هو، ولا أعرفُ لخلاص نفسي طريقًا، فكيف أُخلِّص غيري؟!». سدد باروخ نظرة غاضبة إلى وجهي، ثُم ضحك كأنه يرى مخبولًا أمامه، ونظر للحاخامات من حوله يستجلي أثر كلماتي على وجوههم، ثُم قال: «كَثُرَ الكذَّابون طيلة السنوات والقرون، وآخرهم «سباتاي» كذَّابُ (الدونمة)، زعَم كل منهم أنه المسيح المُنتَظر، ووحدَه يقول إنه ليس هو، وذاك دليل الصدق. انظروا، يُنكر نفسه ونعرفه، ولو طلبها لنفسه لكذَّبناه. كيف لا يكون هو، وقد حماه الرب في بطنِ أمه سنتين وسبعة أشهر، ثُم عصَم وجهه من أثر السنوات، ليغفَل عنه الناس، حتى يشتد عزمه ويأتي يومه، يوم الخلاص الذي طال انتظاره، وإنْ لم يأتِه الخبر اليوم فسيأتيه غدًا. الرب سمع لصراخ شعبه، وأرسل مسيحه ليُخلِّص الأسباط من قهرهم الطويل، وغدًا نبني الهيكل ونذبح أعداءَ يَهْوَهْ. غدًا آتٍ، مهما ابتعدت الأيام».

«مَجَّانًا بُعْتُمْ، وَبِلَا فِضَّةٍ تُفَكُّونَ». بهذه الآية همس في أذني الحاخام الطيّب وأنا في المعبد، فلسطينيٌّ جاوز الثمانين، كان اسمه «إلياس». وجهه يُخبر إنه ليس مثلهم، وصوته الحاني بثَّ في روحي الأمان، شيء ما في ملامحه جعلني أتذكر مُعلمي داوود، لحيته البيضاء المرسلة، وجسده الضئيل، والسكينة التي في عينيه، كلها تشبه مُعلمي الذبيح، خلا بي وسألني:

- أأنتَ الذي يزعمون أنه المُخلِّص؟!

- كذَّابون، لستُ هو.

- صدقت، لستَ هو. فلماذا زعموك مسيحًا مُخلِّصًا؟

حكيت له ما كان مِن باروخ، وأخبرتُه عن حمل أمي وحُلمي ووجهي الذي لا يتغيّر، أخبرته كل شيء كأني أعرفه منذ زمن وكأنه موضع ثقتي، كنت أصيح في الجميع: لست هو. فيقسمون إنه أنا، لا أحد منهم صدقني. عندما رأيت أنَّ هذا الحاخام العجوز يؤمن بما أقول، بل وينفي أنني المُخلِّص حتى قبل أنْ أنفي ذلك عن نفسي، بُحت له بكل شيء بغير تردد، فقال: «أُصدقك يا بنيّ، وسيجعل لك الرب شأنًا أجهله، لكنك لست المُـخلِّص. وهذا الكافر باروخ ما هو إلا كالسامريّ، أراد أنْ يصنع منك عجلًا يستعبد به قومه، ويضلّهم عن طريق الرب، فإنَّ مجدَكَ مجدٌ له، وسيادَتُه بأنْ تسودَ أنت، فأشاع أنك المُخلِّص. ولأنك مُستضعف لا قوة لك، ظن أنك ستكون طوع أمره، وما أحسبه إلا قاتِلُك بعدما يبلغ مراده، وهو يعلم أكثر مني ومنك أنك لستَ المُـنتظَر». جثوتُ أمامه على ركبتَيّ، وبكيت وأنا أردد:

- نعم، قسمًا بالرب، لستُ هو.

- انهض حتى لا يلتفت إلينا أحدٌ.

- خلِّصني لأجل أمي، الخوف سيقتُلها، وقد قتلوا جدّي. أريد الرحيل عن هنا، ولا أجد السبيل.

- سأدبر أمرك يا بني ولو كلَّفني ذلك رأسي، فلا تحزن. عُد إلى أمك وأخبِرها إنَّ رب موسى لا يزال له عبادٌ يعرفون الحق، وإنه سيرحم قلبها وينجّي ولدها. أَمهِلني أيامًا وسأعود إليك بالفرج.

جاء إلياس إلى بيتنا بعد خمسة أيام، يمشي وهو يضرب الأرض بعصاه، يرتدي جلبابًا عربيًّا، وفوق رأسه «الكيباه»، ضفائره التي كساها الشيبُ بالبياض، ولحيته الطويلة، تُجلِّلانه بالوقار. اقترب منه الجنود وتحلَّقوا حوله طلبًا لبركته، فبارَكَهم، ثُم دخل علينا وجلس بيننا بود لا اصطناع فيه، كأنه اعتاد زيارتنا منذ سنوات، وكأنها ليست زيارته الأولى لبيتنا، وجدتُ في وجه أمي وهي تنظرُ إليه ما وجدته في قلبي تجاه إلياس، الأمان. تحدَّث مع أمي بلطفِ أَبٍ شفوق، سألها عن اليمن، مُستفسرًا بلهفة عن حال الناس هناك كأنه مُنحدر من أصلاب أهل اليمن، أخبَرَها إنه زاره مرتين في شبابه، وذكَر لها أصدقاءه القُدامى هناك وكيف قضى بينهم أيامًا طيبة، وكيف أغدقوا عليه من كرمهم مُسلمين ويهودًا، وحدّثنا عن رفاقه الذين عاش معهم شهورًا طوالًا في (قاع اليهود)، و(الجدس)، و(بيت قطينة) في جبال (المحويت) الشاهقات، وممن ذكرهم مُعلمي داوود. ارتجَّ قلبي بذكر مُعلمي، وقلتُ له: «ذبحوه». قال: «أعلَم. كان خيرَ يهودٍ، وحَبرًا عزَّ الزمانُ أنْ يجودَ بمثله». ثُم نظر لأمي وقال لها: «يمسحُ القدوس على قلبك يا صفية». ورفع يده للسماء صائحًا: «انظر لنا يا رب الجنود وتَعَطَّفْ». سألته أمي:

- أنحن حقًّا شعب الله، أهكذا يصنع أبناءُ الله؟!

- نحن شعبُه وأبناؤه، لكن متى خلا الأبناء من العقوق يا صفية؟ فلا تتشككي يا بنيّة، سيرسلُ الرب رحماته وينجيكِ، فهذا الشعب مهما ابتعد يسمعُ الله لصراخه وينجيه.

- لا أريد إلا نجاة حسّون ولا أعبأ بعده بشيء.

- سيُنجيه الذي نجَّى موسى وأخرجَ آباءهُ من أسرِ فرعون، فاصبري.

- أخافُ أنْ يقتلوا حسّون، أَخرِجنا من هنا إنْ كان ثمَّة سبيل للخروج.

- سأفعل، غدًا أرسلُ إليكما من يدعوكما لبيتي، فامضيا مع رسولي ولا تحملا شيئًا من متاع حتى لا يرتاب الجنود بأمرِكُما، وحين تصلان إلى بيتي سأدبّر الأمر.

- سيصلون إلينا، فليس بيتك بعيدًا عن أعينهم.

- لن تبقيا ببيتي غير ساعة، سيذهبُ بكما أحدُ خُلَصَائي إلى صديق لي يعيش في الخليل بعيدًا عن أعينهم، وهناك ستمكثان قليلًا، ثُم يقوم صاحبي بإخراجِكما من أرض فلسطين كلها.

- وهل تأمن صديقك هذا؟

- نعم، هو ليس يهوديًّا، لكنني أعرفه منذ خمسين سنة، وهو وفيٌّ أمين، وستكونان بأمان عنده.

صدقَ إلياس وعده، وأرسل إلينا في اليوم التالي رسولَه، عندما دخل علينا الرسول قال جملة واحدة: «أرسَلني الحاخام إلياس لآخذكما إليه». ولم يُكلمنا بعدها كلمة واحدة طيلة الطريق، تَبِعَنا الحراس بعدما تحدث إليهم الرسول وأخبر قائدهم عن وجهتنا، فرافقونا حتى باب البيت وانتظروا بالخارج. استقبلنا إلياس بوجه كريم، وقدم إلينا الزيت والزعتر، وقال: «كُلا وأقيما صُلبكما، فالطريق طويلٌ» أكَلنا، ثُم أخذَنا بعدما فرغنا من الطعام، إلى قبوٍ أسفل بيته، فتح بابًا في أرض القبو يُفضي إلى سرداب، أوصلَنا السردابُ إلى بيت مُنهدم في الناحية الأخرى من الطريق، خرجنا منه سِراعًا، فوجدنا عربة تنتظرنا أعدَّها إلياس للهرب، حملتنا السيارة إلى الخليل، حيث كان في استقبالنا الحاج «سَليم الأدهم» صديق إلياس.

لم أُقِمْ وسط المسلمين منذ غادرنا اليمن، وها أنا اليوم في الخليل، في بيت عربيّ، وحيّ عربيّ، بين المسلمين أُقيم. هيَّأَ لنا الحاج سليم الأدهم غرفتيْن، لكن أمي تحرجت أنْ تُضيّق على أهل البيت، فقالت مُتعللة لمُضيفنا: «أكره أنْ يكون حسّون بعيدًا عني، وقد كبرت، فمَن يخدِمني في الليل إنْ احتجت شيئًا؟ تكفينا غرفة واحدة». فاستجاب لها سليم، وأخبَرنا إنَّ خروجنا من الخليل ليس سهلًا، وإنَّ الأمر قد يطول قليلًا حتى يتمكّن من ذلك. كُنا نعرف أنَّ خروجنا من البيت مغامرة لا تؤمن عواقبها، وربما نال الأذى سليم وأهلَه إنْ عرف أحدٌ بأمرنا، فلزمنا البيت ولم نخرج منه، رغم أنَّ أحدًا لم يطلب ذلك منا. تأكّدَت مخاوفنا بعد أيام، عندما دخل علينا الحاج سليم وقد كساه الحزن وقال لنا: «قتلوا إلياس، وزعموا أنَّ العرب قتلوه، وقالوا إنَّ رجلًا يهوديًّا وأُمه قد اختُطِفا من بيت الحاخام بعد مقتله!». فقلت له: «قتلوه لأنه ساعدنا على الهرب».

بعد يومين من مقتل إلياس، استباح الجنود الإسرائيليون كل المدن العربية، بحثًا عنا، قلت للحاج سليم:

- لا ذنبَ لك في هذا، قتلوا صديقكَ لأنه ساعدنا، وربما يصيبك أذاهم، فدعنا نرحل من هنا حفظًا لك ولأهل بيتك.

- يا بُنيّ، أنا لا أعرف ماذا وراءك، ولا لأي شيء يبحثون عنك، لكن العربيّ لا يخذل مَن استجارَ به، ولو كان من عدوٍّ له.

- أنا لستُ عدوًّا يا شيخ سليم.

- سامحني يا بني، أعرف أنك لستَ مثلهم، فما كان إلياس ليساعدك لو كنت مثل هؤلاء. لنصبر حتى تهدأ الأمور ثُم نرى أمرنا.

لم نلحَّ عليه، فإلى أين سنذهب، وكل الطرق يرصُدها الجنود؟!

كان للشيخ بنت وولدان، البنت في العشرين من عمرها، كان اسمها «أروى»، أما الولدان «فعامر وعمَّار». عامر دائمُ الغياب إذ كان تاجرًا يتنقل بين المدن، وعمَّار كان في السابعة والعشرين من عمره، ولا عمل له. خلوقًا كان عمَّار ودَيِّنًا، لا يترك المصحف من يده، ودومًا يُحدّثني عن الإسلام ويتعمّد أنْ يتلو القرآن أمامي. لم أخبره إني أحفظه من قبل مولده،

حتى غلبتني الغفلة مرة ولم أنتبه، فصححتُ له آيةً أَلحنَ فيها، فقال: «كيف عرفتَ الصواب وصوّبت؟!». قلتُ: «لأني حفظت القرآن كله، وأنا دون العاشرة». حكيتُ له قصة أبي وأمي، صرنا صديقين، يقرأ عليَّ، وأُصحح له.

كانت أروى تبتسم حين ترى أخاها يجلس مني مجلس المُتعلم، ثُم صارت تجلس معنا وتقرأ عليَّ. خفتُ أنْ تحزن أمي لانصرافي إلى القرآن ورفاقي العرب من أهل البيت وإدباري عن التوراة، لكن أمي لم تغضب لهذا، فقد قضيتُ بهذه الأرض أربعين سنة يهوديًّا خالصًا، فأرادت أنْ تعادل الأمر فتركَتني، لكن الدين يغلِبُ صاحبَه، فكنت ألمح في عيونها شيئًا من الحزن، أزلتُه عنها عندما أصبحت أحرص على صلاة «الشحاريت» كل يوم، فرضيَت أمي بيهوديّتي أول الصباح، وتركتني لإسلامي بقيّة اليوم مع أهل البيت.

طعام أهل فلسطين طيب، لكن لا طعام أطيب من طعام أروى، أو ربما لأني أصبحت أتذوق طعامها بقلبي قبل لساني، فنزل طعامُها ببطني وحبُّها بقلبي، فشبعَا معًا، لم أعرف بحياتي امرأة قط، إلا قُبلة نزَعَتها مني يونا بالمخيم، ثُم تركتني وقَحَبَتْ مع أبناء اليهود زرق العيون. نسيتُ ما أنا فيه وشغلتني أروى، نظرة منها كانت قادرة على إذهاب برد الخوف من عظامي، صارت بسمتُها لي في غفلة من أخيها عمَّار، زادًا أقتات عليه في ليلٍ طويل لا أغفو فيه، حين أحببتُها، أحببتُ أني حيّ ولأكن ما أكون، لم يَعُد يُمزق روحي ذاك السؤال القديم: «للتوراةِ أنتمي أم للقرآن ولائي؟»، ولو سألني أحدٌ: أيهوديّ أنت أم مسلم؟ لأجبتُ بيقين: أحبُّ أروى.

سطحُ البيت كان بابًا لرزق أهله، يربّي فيه الحاج سليم خرافًا ونعاجًا، وفي طرف السقف غرفتان صغيرتان للطيور، إحداهما للبط والأخرى للدجاج، سألتُ أُم عامر: «لماذا لا تفتحون الغرفتين على بعضهما فيتسع المكان؟». قالت: «لأنَّ البطَّ ينقر رؤوس الدجاج، فالبطُّ كاليهود والدجاجُ عربيّ». آلمني قولها، وقلت لعلها لم تقصد أنْ تلمزني. تقضي أروى وأُمها ساعات طوال في رعاية الخراف وإطعام الطيور، فاستأذنتُ الحاج سليم أنْ يُريح أهل بيته، ويسمح لي برعاية قطيعِه الصغير، فرفض، وقال: «أيخدمُ الضيفُ مُضيفه؟!». قلت: «أنت تحنو عليَّ مثلَ أبٍ، فدَعني أخدِمُك مثلَ ابنٍ». علِمَ أني أتحرج من مَكْثِنا في بيته عالة عليه، فرفع عني الحرج، وسمح لي برعاية الخراف.

أصبحتُ أقضي النهار كله فوق سطح البيت، صنعتُ سياجًا من عروقِ الخشب الطويلة، فجعلتُها مثل حلبَة، حتى لا تُبعثِر الغنم الطعام على امتدادِ السطح، أضع لها الطعام والماء داخل السياج، وأترُكها ترعى في المساحة الكبيرة خارجها بعد أنْ تفرغ من طعامها، ثُم أعيدها داخل السياج لأُخرج البطَّ والدجاج إلى ساحة السطح لتنعم بالشمس، أنثر الحبوب فيتلهَّى البطُّ بطعامه عن نقر رؤوس الدجاج، لعل أُم عامر تدرك أنَّ البطَّ لن ينقر رؤوس الدجاج، إنْ هو أخذ حصته من الطعام. أمكَن التعايش بين البط والدجاج على يدي.

أحبتني أُم عامر عندما رأت طيورها تسمن، وشكر الحاج سليم لي عملي وقال: «سأجعل لك نصيبًا من ثمن الغنم عند بيعها، فقد سمنَت على يديك». كان لصوته نبرة حازمة حين يُقرر أمرًا فلم أردّ قوله، ألفتُ أحوالَه وفهمتُها، عندما يتحدث بصيغة الرجاء فهو لا يرجو في الحقيقة، بل يعطي أمرًا لا مردَّ له.

صعدت أروى مرة إلى السطح آخر النهار، أرسلَتها أُمها بجِوال مملوء ثُلثه بالحبوب للطيور، وقد وضعَت فوق الحبوب خشبة رقيقة تعلوها طماطم فاسدة، وبقايا طعام أهل البيت، لأجل الخراف، فحملتُ الجوال، عنها ووضعته في زاوية السطح وأغلقتُه، ووضعتُ على أطرافه حجرًا ثقيلًا حتى لا تأكلَه غنمة في الليل، فيضيع طعام الصباح على الرعيّة، رعيّتي. ثُم أخذتُ أهشُّ على الدجاج لأُدخله غرفته، ثُم أهشُّ على البط ليبيت، أرادت أروى أنْ تساعدني، فرفعَت طرف جلبابها وأمسكَت بحوافه تهشُّ على الطيور، فهرولَت الدجاجات أمامها خائفة من مظلّة الثوب. أعجبتني طريقتها في الهشّ على الدجاج، لا لأنها تدفعُهم للغرفة سريعًا، لكن لأنها كشفَت عن ساق أحبها، حاولتُ غضّ بصري خجلًا، فغلبَ الشغفُ

الخجل، ونظرت. لمحت أروى عيوني، فأغْضَت وأرسلَت ثوبها فسترَ مصدر النور، خجلتُ من نفسي ودخلت لغرفة الطيور لأتأكّد أنَّ البط لم يختلط بالدجاج، ولأخفف حرارة وجهي المفضوح بتلصصه على ساق أروى، لحقت بي ووقفت على الباب وقالت: «هل أساعدك في شيء؟». قلتُ: «أُدخلي». دخلَت. لا أدري من أين أتت شجاعتي حين مددتُ يدي بغير كلام فأزلتُ غطاءَ رأسها، فانهمر شعرها، مسحتُ عليه، فأغمضَت، وسكت الدجاج عن الوقوقة ليشاهد عاشقَين في ضيافته. فتحَت أروى عيونها، تنظر هي للدجاج، وأنا أنظر لشفتيها، وعيون الدجاج ترقبُ الوجهَين قبل انهمار المطر، شفتاها المنفرجتان تقولان تعالَ، وقلبي المُشتاق يقول هَيَّا، وضعتُ كفّي على شفتيها لأسدَّ طاقةَ الفتنة، لثمَت أصابعي، فَفُتِنْت. غرقنا في قُبلةٍ أطول من عمري المديد، اختلط الريق بالريق، فارتوى القلب حتى شبع، ضمَّتني لصدرها وعانقَتني، فضممتُ خصرها دون أنْ تُفلتَ الشفاهُ الشفاهَ، التقى الضَّعفان، وتعانق الشوقان، وما عدتُ أملكُ من أمري شيئًا أحول به بيني وبين اكتمال اللقاء، ولا أروى ملكَت. فحسم الدجاجُ الأمر وأنقَذَ الموقف مُتبرِّعًا بسدِّ نقيصة عزمنا، وَقوقَ ليقول كفى، فأكتفينا. عقصَت شعرها وستَرَت رأسها، وانسحبَت وهي خَجْلى من صوت الدجاج المُحتجّ على المبالغة.

أصبحت الأيام لطيفة كريمة، أهنأ فيها بالقرب من أروى، حتى نسيتُ كل آلامي، غسل الحبُّ قلبي من الحزن وعقلي من المخاوف، عشقت، فما عدتُ أكترث لمَن يبحثون عني، ولم يَعُد يُقلقني شيءٌ إلا حديث أمي عن الرحيل إلى تونس، كبرياؤها كانت تشغلها كل الوقت، تكره أنْ تظل نزيلة ببيت رجل لا حقَّ لها عليه، وتريد رفع الحرج عن أسرة بالكاد تجد ما يكفيها، عادت مرة أخرى تحدثني عن قريبها الذي يعيش بتونس منذ زمن بعيد، وتحثني على الرحيل بعيدًا عن الذين يطاردونني. لم أجرؤ على إخبارها إنَّ قلبي صار مُعلّقًا بجدران بيت سليم الأدهم، لأنَّ بين جدرانه أروى، والحقُّ أنها لم تكُن بحاجة لأخبرَها، دائمًا تعرف أمي كل شيء. قالت بغير مواراة: «يا بنيّ أعرف أنك تُحبها، وما كنتُ يومًا لأرفض الحُب وما كان ما نحن فيه إلا لأني أحببت، لا أقول أخشى عليك من شقاء كشقائي، لكن أخشى على قوم كرام آوونا، أنْ يصيبهم الأذى، فلا تؤذِ مَن أحبَّك».

أعادتني كلمات أمي إلى مأساتي التي لا ذنب لي فيها، لأول مرة أردتُ، كانت أروى هي ما أريد، لكن أمي مُحقة فلا ذنبَ لها لتحيا مع رجل بوجه غلام، له دينان، ووطنان، ولسانان، وكلهم يصطرعون فيه وعليه، هُزِمَت قصتنا قبل أنْ تبدأ. لن يقبل أهلها أنْ أتخذ ابنتهم زوجة، ولن يأمنوا عليها مع رجل كل مَن ساعدَه قُتِل.

لم تَطُل حيرتي بين البقاء والرحيل، القدر حسم الأمر وقال كلمة الفصل. جاءت الطامة الكبرى حين قرر ثلاثة من اليهود بينهم صديقي القديم زكريا، أنْ ينتقموا من العرب الذين اختطفوا مسيحَهم المُخلِّص، دخلوا إلى مسجد الخليل في الفجر والناس يُصلُّون، فحصَدوهم بالرصاص وهم سجود، فاجتمع عليهم مَن بقيَ حيًّا في المسجد وقتلوا ثلاثتهم، وأُصيب الشيخ سليم في من أُصيبوا بالمسجد، جاء به ابنه عمَّار يحمله، وقَدَم عامر من غزة بعدما عرف بالمذبحة.

اشتعل الغضب في البيت، كما اشتعل في كل مكان. كانت عيونهم تتهمني، ليس لأني كنت السبب، وعنّي جاؤوا يبحثون، ولأجلي أتوا يَقتلون، إنما كانت تُهمتي أنَّ نصفي يهوديّ، لم تقُل ألسنتهم شيئًا، لكن قول العيون أوقعُ صوتًا وأشدُّ إيلامًا. وحدها أروى عطفَت عليَّ، والشيخ سليم. عادت أُم عامر لتجنُّبي، وعامر لا يُكلمنا، ولا يجلس إنْ جلسنا معهم، وعمَّار حائر بين حبّه لي، وغضبه من قوم أمي. صعَدَت إليَّ أروى وأنا أطعم الغنم، جلسَت بزاوية السطح ترقُبني وعيونها غارقة بسحابةِ دموع لا هطولَ لها، تحاشيتُ النظر إليها وشغلتُ نفسي بوضع العليق للغنم، فلما طال الصمت، جاءت إليَّ وقالت: «أحبُّك». فبكيتُ ولم أنطق بكلمة.

أُغلقَ الخليل، وجاءت دبابات قوم أمي لتنتقم لمقتل جنودهم الثلاثة. تترَّسَ أهلُ الخليل؛ فوضعوا السيارات المُعطلة على مداخل الطرقات الواسعة، ونصبوا حولها حصنًا من جذوع الشجر وعروق الخشب، وفي الحارات الضيقة وضعوا

أكوامًا من الحجارة، وأجوِلَة مَلؤوها بالرمال، تسلَّح الرجال بالبنادق القديمة والسكاكين الكبيرة، واختزنَت النساء الحجارة، ليقذفن بها العُداة من فوق أسطح المنازل، الجميع يعدُّ للمعركة، وأنا بين الجميع حائر. لا أحدَ من أهل الخليل يعرف بوجودي أو يعرفني، قلتُ لأمي:

- سأخرج مع عامر وعمَّار، لن أدعهما يواجهان الموت منفردين، فما كانت هذه الحرب إلا لأجلي.

- أُمك يهودية ونصفُك مني، فكيف تقاتل أهلك؟

- وأبي مسلم ونصفي منه، سأقاتل دفاعًا عن نصفي، ضدَّ نصفي.

كنت أكذب، أردتُ أنْ أقاتل لأجل أروى وحدَها، أريد أنْ أقول لها أنا منكِ ومعك. ومَن يدري، ربما لو رأى أهلُها صنيعي رضوا بي زوجًا لها.

قامت قيامة «الخليل» واشتعلت ناره، لكنها لم تكُن بردًا ولا سلامًا هذه المرة، بل جحيمًا يحرق كل شيء. قنابل قوم أمي، تسقط على رؤوس قوم أبي، طائراتُهم تحوم فوق المنازل تصبُّ الموتَ، لا تُفرّق بين طفل وشيخ، للجميع نصيبٌ من الحِمم والرصاص. وأهل الخليل ثابتون خلف المتاريس، يصدُّون الموت، ويردُّون عليه بموت. تهاوت المتاريس أمام قصف الدبابات، والتحم اليهود بالمسلمين، أبي في مواجهة أمي، وعليَّ أنْ أختار، لأيهما أُسدد الطعنة بذاك السكين الذي في يدي. قتالٌ في الشوارع، رصاصٌ آتٍ ورصاصٌ ذاهب، وحجارةٌ من فوق الأسطح بيد النساء والأطفال تهطل، وطائراتٌ من فوق الجميع تقصف، وأنا أقف بين الفريقين والسكين في يدي، أنتظر رصاصة خلاص من كل هذا، ولتأتِ من أي طرف تشاء، لكنَّ الموت جائر، لم يلتفت نحوي. رأيت عمَّار جريحًا يقاتل جنديًّا يهوديًّا بيديه، والجنديُّ جاثمٌ فوقه، يكاد أنْ يقضي عليه، وأنا أمام الجسدَين المُتقاتلَين أقفُ وأشاهد. صرخ عمَّار: «أقتله، اِطعنه». فانتبهتُ للسكين الذي في يدي، يدي العاجزة، ولم أتحرك. جاء عامر يجري نحونا وقد أثخنَته الشظايا، فاختطفَ السكين من يدي وأنقذَ أخاه بطعنات لا أحصي عددها في ظهر الجندي وعنقه، ثُم نظر إليَّ نظرةً كانت أشد من كل طعناته في ظهر الجندي المُجندَل.

أربعةُ أيام من القتال، تراجعت كتائب اليهود بعدها حاملة قتلاها، وأعلنوا النصر، وفي الخليل أزيحت بقايا المتاريس ودُفنَ القتلى، وأُعلن النصر. انتصرَ «يَهْوَهْ» رب اليهود على العرب، وانتصرَ «الله» رب العرب على اليهود، وهُزِمتُ بينهما.

صرخ عامر في وجه أبيه: «أُطرده يا أبي إنه مثلهم، وقف يشاهد أخي وهو تحت يهودي من قومه، وما مدّ له يدًا والسكين بين أصابعه». فقال عمَّار: «بل خرج للقتال يا أبي، لكنه لا يعرف القتل». وهمسَت أُمهما: «العِرقُ دسّاس». وسكتت أروى. خرجَت أمي من غرفتها وقد سمعت قول كل قائل، فوقفت تُجلّلها الكبرياء قائلة بصوتها الواثق: «ابني ليس غدّارًا، ولا هو بجبان، لم تمتد يده يومًا بأذى ولا حتى لعصفور، فكيف يقتل؟ ابتلاه الله بما لم يبتلِ به أحدًا سواه فصبر، واحتمل ما لا تحتمله الجبال. سنرحل يا شيخ سليم، يومان أو ثلاث لا غير، ولن تروا لنا وجهًا هنا». بكت أروى، ونظر الشيخ سليم إلى ولده عامر بغضب وأمره: «قُم من أمامي». فقام. حاول الشيخ أنْ يقف لأمي فما استطاع، فقال لها: «يا صفية جئت بكما لبيتي وأنا لا أعرف ما وراءكما، ثقةً بصديقي إلياس، ولما قتلوه عرفت أنكما تستحقان أنْ أبذل لكما كل شيء، فما كان إلياس ليُقتَل لشيء رخيص، وعندما نزلتما ببيتي اتخذت ولَدِك ولدًا، ولن أَكِلَ بحملِكما، فابْقِيَا هنا، ولن يمسّكما أذى من أهل البيت أو من خارجه ما دمتُ حيًّا». شكرت له أمي وقالت: «بارك الله لك، قُضي الأمر يا شيخ سليم، سنرحل». فهزّ الشيخ رأسه ولم يلحّ عليها في البقاء.

لزمتُ الغرفة مع أمي، لا أخرج إلا عندما يطرق الشيخ سليم بابها، أو تطرق أروى قلبي، فأفتح. يدعوننا للطعام فنخرج، لا يجالسنا عامر ولا أُمه، فقط الشيخ سليم، وعمَّار، وعيون أروى تراقب من بعيد. لقيمات نأكلها مراعاة لخاطر

الشيخ الكريم، ثُم نعود إلى الغرفة لا يصاحبنا فيها إلا الصمت، فلا تتكلم أمي ولا أتكلم. وكلما استأذنَت أمي في الرحيل يقول لها الشيخ: «صبرًا حتى تهدأ الريح». ورياحُ الحرب لا تهدأ، مكثنا ننتظر هبوبَ نسائم الأمن في أرضٍ، يرصدُ الخوفُ فيها كل طريق.

قُمت ليلةً قبل الفجر، فتوضأت وصلّيت ركعتين لعل الله يرأف بقلبي ولا يحرمني من أروى، ثُم وضعتُ «الكيباه» على رأسي وصليت ليَهْوَهْ لعله يرقُّ لغربتي، وينجّي قلبي من التيه الذي ينتظره إنْ رحلت عن أروى. صلّيت له صلاتَين، أناديه فيها: «تعبت، فاجعَل لي مخرجًا». لكنه لم يستمع لي، دومًا أدعوه، ودومًا لا يجيب. يقودني لما يريد، ويحجِبني عما أريد، وكانت إرادته الرحيل. سَمِعَت أروى بكاء قلبي، جاءت إليَّ ووقفَت أمامي وأنا ساجدٌ على الأرض في الظلام، وقالت: «قم». فقمت. سألتني:

- تحبّني؟

- أنتِ دمي وعظامي وخفقُ قلبي.

- إذًا خذني معك ولا تدَعني.

- لن أكسر قلبَ أبيكِ.

- سيجبُرُه الله، فلا تدَعني.

- لن أخون.

فوضعَت يدها فوق رأسي وقالت:

- الآن قد خُنت.

تركتني، وعادت إلى غرفتها، فلم أرَها طيلة الأيام التي انتظرنا فيها فرصة الرحيل.

عندما جاء الموعد المُرتقب، دخل علينا الشيخ سليم وقال لأمي: «أوصيتُ صديقًا لي في غزّة أنْ يأخذكما إلى مصر، ومنها تذهبان إلى تونس». ثُم عرض على أمي مالًا نتقوّى به على الطريق، فقالت له: «معنا ما يكفي ويزيد». وعندما ألحَّ عليها، أخرجَت نقودًا خضراء من صندوق صغير وسط ملابسها وقالت: «معي مبلغٌ كبير ادَّخرتُه من قبل، وسيكفينا يا شيخ». فأقسم عليها أنْ تأخذ منه المال إنْ كانت تُقدِّر شيبَتَه، وقال: «حسّون ابني، ولا يردُّ الولد عطيّة أبيه»، فقبلت منه.

في اليوم التالي كان عمّار ينتظر أمام البيت في سيارة ليحملنا إلى غزة، خرجَت أُم عامر فعانقَت أمي وبكت بعيون صادقة، ليس فيها مسحة من كذب أو ادعاء، ثُم قالت لي: «سامحني يا ولدي، لم أقصد أذيّتك». فقلت: «لا عليكِ يا خالة». بحثتُ عن أروى فلم أجدها بين المودّعين، منذ الليلة التي وصمتني فيها بالخيانة وأنا لا أراها، سألت نفسي: «هل يمكن ألا تودعني أروى، هل يغلب الغضبُ الحب؟!». غَلَبْ. أشفقَت أمي على قلبي، فسألَت نيابةً عني: «أين أروى لأسلّم عليها؟». فقالت أُمها: «خرجَت أول الصباح إلى عمّتها، ووعدتني أنها لن تتأخر، لكنها تأخرت». فأمسكَت أمي يدي، وضغطَت عليها لتحبس الدم السائل من قلبي، لكنه نزَف. رحلنا عن الخليل، رحلَ جسدي وقلبي مَكَثْ، ما زال عالقًا بين الدجاج والغنم، يستجدي أروى، وأروى جنحَت لكبريائها الجريحة وكسرَت جناح قلبي. تغيّرَ وجهي بعدها، ذهبَ وجهُ الغلام وصار لي وجه رجل، كَبُرتْ.

عندما وصلنا إلى غزة لم نمكث بها غير ساعة نستريح فيها، ثُم أخذَنَا الرجلُ الذي استقبلنا إلى نفق طويل، أتعبَ أمي السيرُ فيه وأرهقَها، خرجنا من طرفه الآخر، فأصبحنا في سيناء. نزلنا في بيتِ رجل بدويّ كان ينتظرنا، قال لنا إنه يعرف وجهتنا وسيدلُّنا على الطريق، لكن مرضت أمي مرضًا شديدًا أقعدَها، لم تستطع شيخوختها مواصلة السيرَ المرير، الطريقُ ينتظرُ خُطانا، والأقدامُ ما عادت قادرة على بلوغ الغاية، فلم نغادر بيتَ البدوي. جلستُ بجوار الوجه الحبيب والموتُ معنا جلس، سألتها:

- ماذا يا أمي! ليس لي سواك فمَن سيصحبُني؟

- الله يا ولدي.

- كلهم تركوني وماتوا، لا تخذليني يا أُم، لا تموتي.

- أبوك زارني الليلة في منامي، وقال لي: «تعالي». لن أعصي أمره، وقد اشتقتُ إليه.

- وأنا؟!

- وا لهفي عليك يا حسّون، هو الله، يريدك يا بنيّ، فاصبِر حتى تبلغ مرادَه، فما كان الذي كان، إلا لأمر جليل، ولن يخذلك. لكنها حكمة الرب فلا يكشف عن غايته إلا بعد انتهاء الطريق، فسِر حتى تصِل.

- أتعبني السير يا أمي، ولست أريد شيئًا، أُطلبي منه أنْ يُوقف المحنة، ليس لي طريقٌ أسلكه، ولا غاية أطلبها.

- القضاء بيدِ من قضى، وليسَ بيدِ المقضي عليه يا ولدي. الآن بِتُّ أرى، ما أحببتُ أباك إلا لتأتي أنت، أنت مُرادُ الله، فلا تجزَع يا ولد، إنَّ جدّك هارون وجدّك محمد، فاصبِر يا ابن النبيَّيْن.

- لا صبر لي من دونك، فلا تموتي.

- سأموتُ يا بني وستمضي وحدَك. احملني بعد موتي إلى جبل الرب، فما أحياني وجاء بي إلى هنا، إلا لأُدفَن تحت الجبل الذي كلَّم عنده موسى، احفر في الأرض بعيدًا حتى لا تطالني ذئاب البرية، ولا يفضح موتي مطر السماء، ثُم ادفنِّي. فإذا زال خوفك، وأمن قلبك، فـاِئْتِ إليَّ واِئْنِسْ وحشتي.

انتهت من وصيتها، ثُم صمتت، وغابت عن الوعي أيامًا، رتعَت الحمّى في جسدها، وأنا جالسٌ عند رأسها لا أغادرها، لم أبكِ، لكن دمي جرى في عروقي دموعًا. يأتي البدوي ويسألني: «كيف حال أُمك؟»، فأقول: «تنتظرُ يدَ الله». أصبُّ الماء على خرقة وأمسح وجهها الطيّب، فتفيق بين ساعة وساعة فتبتسم وتقول: «ما زلتُ هنا يا حسّون، أحبُّ وجهك يا ولدي»، ثُم تغيب. حين إفاقتها الأخيرة قالت: «افتح الصندوق، وهات الخنجر الذي فيه»، فجئت به. قالت:

- صنعتُه لأبيك وأهديته له، فأهداك الحبُّ لي، خذه ولا تفرِّط فيه. أخبرني يا بني، هل إذا متُّ دخلتُ الجنة أم النار؟

- لا أدري يا أُم.

- عبدتُ يَهْوَهْ، وعبَدَ أبوك الله، وكان واحدًا له اسمان، فلماذا أدخل النار؟

- لا أدري يا أُم.

- أيشفع لي أبوك إنْ كان اللهُ ليس يَهْوَهْ؟

- يشفَع، فقَد أحبّ.

- وأنا أشفعُ له إنْ كان يَهْوَهْ ليس الله، فقد أحببت.

ثُم رفعت بصرها إلى السقف وقالت: «يا مَن في السماء إني أشهد لك وأعبدك، فلا تفرق بيني وبين مَن أُحبّ». ثُم لم تغمض عيونها، فأغمضتُهما بيدي.

حملتُها في عتمة الفجر على ظهرِ أتان، والبدويّ يقودني إلى جبل الرب حتى بلغته، فقلت له: «انتظر هنا ولا تتبعني». حملتُ أمي على يدي، أسيرُ بها بين شوك الشعاب، حتى بلغتُ جذرَ الجبل، بحثت عن موضع في الأرض يصلح أنْ يكون قبرًا، وجدت صخرة كبيرة خضراء، تقف وحيدة في الأرض الفسيحة الجدباء، فقلت في نفسي: «إنْ دفنتها عند تلك الصخرة المنفردة، فلن أضل عن المكان حين أعود إليها». أمسكت بالفأس التي أحضرتها معي، ما كان لها قدرة على نقب الأرض القاسية، فنظرت للسماء وقلتُ لصاحب عرشها: «أعِنّي لأستر أمي». فأعانني. صنعتُ حفرة تمتد ذراعين في أربعة أذرع، وحملت صفية فأودعتُها مسكنها الأخير، ونظرتُ إلى السماء مرة أخرى، وقلت له:

- هذه صفية، أمي. فلتكن مشيئتُك كيف تكون، لا أطلب منك شيئًا، ولا أضع شرطًا، لكن لا تُعذبها فقد شبعَتْ من العذاب، هذه صفية بيني وبينك، فاصنَع بي ما شئت، لكن هذه، لا.

أهلتُ عليها التراب، ركعتُ فوق القبر، ثُم سجدت، صبَبتُ قلبي على قبرها، وسرتُ في الكون فارغًا.

لم أخلِف لصفية أمرًا من قبل قط، وقد أوصتني بالرحيل إلى تونس، فأخلَفتُ موعدها. أأتركها تحت أقدام الجبل وحيدة، حتى لو كان جبل الرب؟! اتخذت قراري، أنا هنا معكِ يا صفية، لن أدعَك للموت وحيدة، فإنَّ لكِ ابنًا، اسمه حسّون. عندما رجعت إلى البدوي رقَّ لحالي، وسألني:

- ماذا ستصنع يا بنيّ؟

- سأسكُن الجبل.

- للجبال أهلها، ولستَ منهم، الجبل كالبحر، لا تُؤمن غدرته.

- هذا أدعى لأنْ أسكنه، لن أترك أمي وحدها.

- لن يفيدها جوارك، دَعها فهي ميتةٌ يا بنيّ.

- وأنا كذلك.

عندما رأى البدوي أني حزمتُ أمري، أرشدني إلى كهف في الجبل قريبًا من الأرض، وقال: «هذا الكهف آمن، لن يطالك فيه وحشٌ من ضواري الجبل، لكن الحيّات لا يردّها عنك إلا الله». ثُم تركني في الكهف وذهب ليحضر لي بعض المتاع، أعدَّ لي فراشًا سميكًا، أسفله من جلد الجمال وأعلاه من جلود الخراف، وأعطاني غطاءين ثقيلين، وأمدَّني بجرارٍ كبيرة للماء، تكفي المقتصِد شهرًا، وأعطاني سلَّتين واحدة جعلتُ فيها الخبز الجاف، والثانية لما يأتيني به من الطعام والتين المُجفف. اتفقت معه أنْ يَمُر كل شهر ليزودني بالماء والطعام، وأعطيته ثمن ما يأتيني به مُقدمًا لمدة عام.

كان الكهف ضيقًا، يمتد لسبعة أذرع، سقفه قريب فلا أستطيع أنْ أقيم عودي فيه، شعرتُ بالوحشة أول الأمر، وقهرتني الوحدة، فكنتُ أنزل إلى أسفل الجبل كل يوم، لأستأنس بقبر صفية، أصمت طويلًا أو أحكي لها عن حياة الجبل، أصف لها الكهف الذي أعيش فيه، وأحيانًا أشكو لها حنيني لأروى، مرة قلت لها: «لا أدري يا أُم هل أنا هنا لأكون بجوارِكِ حقًّا أم لأكون قريبًا من ديار أروى؟»، فهبَّت نسمة طيّبة، ثُم نزل المطر لما ذكرت أروى، فتبسَّمت لقبر أمي وقلت: «مَن يدري؟ لعل». بعد بضعة أشهر تخليت عن زيارة قبرها كل يوم، وأصبحت أنزل إليها مرة كل ثلاثة أيام، ثُم أصبحت أزورها مرة كل أسبوع، وفي النهاية صرت لا أنزل لقبرها إلا مرة كل شهر كي ألقى البدوي الذي يأتيني بالماء والطعام، آخذ منه الزاد،

ثُم أَمُرّ بقبرها سريعًا، وأعود إلى كهفي.

أحسن البدوي صنعًا عندما جاء بالزاد في إحدى المرات، وخلفه جرو صغير، قال لي: «اجعله معك يسليك». فقلت له: «ومن أين أطعمه في هذا الجبل؟». فقال: «لا يعجز إلا الإنسان، لن يطلب الكلب منك طعامه». أخذت الكلب، وصار صاحب غربتي، أحكي له عن صفية أعلى الجبل، وأحكي لصفية عنه أسفلَه.

أصبح الكهف ضيقًا بعدما جاورني صاحبي الجديد الذي سميّته: «غلام»، كان كثير الحركة، يزعج نومي كلما غفوت، فقررت أنْ أبحث لنا عن كهف أكبر، ثلاثة أشهر وأنا أبحث في جنبات الجبل ولا أجد. أخذت غلام معي ليسلّيني في أثناء البحث، فأخذَ يجري في كل جهة كأنه يبحث معي، يمشي أمامي ويسبقني، وأنا أضحك منه عندما ينظر وراءه، كأنه يقول: «اتبعني». تبعته؛ فدلّني. دخل مسلكًا ضيقًا يتعرج بين الصخور، وينتهي عند طاقةٍ تُفضي إلى كهف فسيح، يمتد طولًا لأكثر من سبعين ذراعًا، عريضٌ وله سقف مرتفع. أمسكت بغلام أحتضنه فرحًا بصنيعه، فأخذَ يلعق عنقي ووجهي، لم تكُن فرحتي بالكهف لأنه فسيح فقط، بل لأنه كفانا حاجتنا الأهم؛ إذ يتسرب في جداره الداخلي خيطٌ من الماء لا ينقطع، ويصبُّ بين صخرتين في شقٍّ يأخذ الماء إلى حيث لا أدري. أحببت الكهف كما لم أحب مسكنًا من قبل، ولا حتى بيت أبي في غرقة القليس.

سبع عشرة سنة اعتزلت فيها الناس والعالم، أهنأ بغربتي مع غلام، أخرج للشمس أول الصباح فأجلس صامتًا، وأحلم بالراحة الساذجة، أودُّ لو نسيت كل شيء وأعيش بلا ذاكرة ولا آمال. أقضي النهار كله أعبث بالحصى، وأكلم الصخور، ثُم أعود إلى الكهف آخر اليوم فلا أغادره. غلام كان أعلى مني هِمَّة، لم تصِبه عدوى الكسل والبلادة من صاحبه، يخرج معي في الصباح يبحث بين الصخور، فيصيد كل ما يتحرك أو يزحف، ليهرب من خبزي الجاف وحبوبي التي لا مذاق لها، أحيانًا يصيد بعض السحالي ومرات يقنص حيّة كبيرة، وإذا وجد أرنبًا جبليًّا صاده وأتى به إليَّ، أشوي الصيد الثمين، فنأكل ونشرب، وقد امتلكت العالم كله، وأرنبًا مشويًّا.

صندوق أمي يحوي مع المال كتابين: مصحف أبي، وتوراتها. حفظتُ القرآن طفلًا، ثُم نسيته، قال لي جدّي: «اِحفظ». فحفظت، دون أنْ أفهم منه شيئًا، وعندما مات جدّي، نسيت. في وحدَة الجبل رجعت للقرآن، لكن بإرادتي، ليس لأجل جدّي الذي أرادني مُسلمًا، ولا لأجل أمي التي أرادت ألا أنسى دين أبي، فأصبحت أفهمه، لا أحفظه. أتدبر الآيات من شروق الشمس حتى الظهر، ثُم أدخل الكهف لأنام قليلًا، فإذا خفَّ لهيب الشمس خرجتُ لأقرأ في التوراة، حتى المغيب، أسمع صوت الله عربيًّا في الصباح وعبرانيًّا بعد الظهيرة، كلا الكتابين متشابهان، ومختلفان. القرآن عجيب يَهدأ صوته حينًا ويهدر أحيانًا، مرة يأتي الصوت من بعيد، يُكلم إنسانًا غيري، لا أعرفه، ومرة يكون الصوت قريبًا، يُحدّثني أنا، أنا حسّون، يخبرني عن خيانات لا تنتهي لأُمة غليظة الرقاب، حتى أبكي لأجل أمي ومُعلمي داوود، فتأتي آية تحنو على قلبي وتشفق على حزني، فتقول لي: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». فأفرح بها، وأودُ لو أطير من فوق الجبل إلى قبر مُعلمي، لأقول له أنتَ بخير، وأنزل إلى قبر أمي لأقول لها، لا تخافي، ليسوا سواء، أنتِ من الصالحين يا أُم. أما التوراةُ فحاسمة، لا تلينُ كبرياؤها، أرى آياتها وهي تلعن كل الأمم، وتأمر بإهلاكهم حرثًا ونسلًا، فتصفعُ قسوة الآيات عيني، وحينًا أسمع في الآيات عزف الرحمة والحب، فأشاهد وجه الرب الطيب في رؤى «إشعياء» المبارك، وأشعر بمحنتي في صوت «أيوب» الحزين، كأنَّ أيوب يعزيني وهو يتمنى لو لم تلده أُمه، كم كان مثلي، حتى لا أدري وأنا أتلو التوراة أكان هذا صوته أم صوتي: «بَعْدَ هَذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاهُ وَسَبَّ يَوْمَهُ، وَأَخَذَ أَيُّوبُ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ، واللَّيْلُ الَّذِي قَالَ: قَدْ حُبِلَ بِرَجُلٍ. لِيَكُنْ ذَلِكَ الْيَوْمُ ظَلَامًا. لَا يَعْتَنِ بِهِ اللهُ مِنْ فَوْق، ولا يُشرِقْ عَلَيْهِ نَهَارٌ.... لأَنَّهُ

لَمْ يُغلِقْ أبوَابَ بَطنِ أُمِّي، وَلَمْ يَسْتُرِ الشَّقَاوَةَ عَنْ عَيْنَيَّ». تُفتِّتُ الآيات قلبي وأبكي، فأحس يد الرب على وجهي تمسح دموعي وتواسي غربتي.

الخلوة تصنع الكثير من الألم، لكن أشد صنيعها قسوة أنها تخلق هذا السؤال: «ماذا لو؟». (ماذا لو لم...؟) سؤالٌ يخبرني بعجزي عن تغيير كل ما مضى وآلمني. (ماذا لو أنْ...؟) سؤالٌ يشعرني أنَّ ما هو آتٍ ربما أبدًا لن يأتي.

«لو»، هذا الحرف كانت له قدرة على سحب روحي من عروقي، ماذا لو أني أطعتُ أروى؟ ماذا لو اصطحبتُها سرًّا أو لحقَت بنا في غزّة وخرجت معنا إلى مصر؟ ألم تكُن صاحبة غربتي الآن؟ أما كُنا سنجعل من هذا الجبل المقفر فردَوسًا؟ فقط «لو» أنها هنا، لأصبح الكهف بيتًا، ولزرعنا حول قبر أمي شجرة للصيف وشجرة للشتاء، وغرسنا في رحم الرمل بذور البازلاء والبطاطا، وعلى أطرافها نزرع الخيار والطماطم والنعنع، ستخالفُ الأرض طبيعة القحط وتزهر بالحياة، ستَسوَدُّ الأرض وتزول صُفرة المرض عن وجهها، أروى شفاء. كُنا سننجب بنتًا تشبهها وأُسمّيها صفية، وآخذها كل يوم إلى أسفل الجبل لترى جدّتها وتراها، أو ربما ما كانت لتحبل أروى، بل هي قطعًا لن تحبل، فأنا هجينٌ كالبغال، والبغل عقيم، لا بأس كُنا سنتخذُ من «غلام» غلامًا لنا، فقط لو أنها كانت هنا.

ترهقني «لو» أروى، فأهرب إلى «لو» أخرى.. ماذا لو لم تكُن أمي يهودية؟ لو أنها كانت من عرب اليمن المسلمين، أما كنت الآن أحيا بصنعاء؟ أما كان جدّي إسماعيل قَبِلَني ولم يتهم أمي؟ لكنت يمنيًّا يمضغ «القات» ويفلح الأرض ويتزوج من امرأة طيّبة لا حظّ لها من الجمال، تنجب له أطفالًا نُحفاء طيّبين كأهل اليمن. أو لو كان أبي يهوديًّا.. لكنت الآن أحيا بحيفا آمنًا مُطمئنًّا. يهوديٌّ ككل اليهود، أفرَح بدولة فتيَّة، يأتيها رزقها من كل مكان، وكل العالم يدافع عن حقها في الوجود. لكنني عربيٌّ إسرائيليّ، مسلمٌ يهوديّ، بغلٌ، مهجَّن، لا زوجة له ولا نسل، أحيا أعلى الجبل وحيدًا، لا يجاورني إلا غلام والحيّات والصخور. كل الناس يسيرون، يسيرون إلى الأمام أو إلى الوراء، بعضهم يطلب الآتي ويهرول إليه باحثًا عن مستقبله، وبعضهم يحنُّ للماضي باحثًا عن ذكرياته، ووحدي أتجه للأسفل، أحفر وأنزل، كجذورٍ لا يخرج منها جذعٌ ولا ثمرٌ، فقط جذور، تغوص في الطين وتغرق في الأرض البعيدة هاربة من النور والهواء، تختبئ في ظلمة الأرض وتهوي إلى قاعها، يمُر العالم فوق رأسي ولا يشعر بي، يدوس على وجودي، ولا يشعر بي. جِذرٌ منبوذ، هيّنٌ مُهان، لا أثر له.

لو.. أنَّ «غلام» كان مثلي لا يموت، لَما تركتُ جبل الرب قط ولا عانيت ما عانيت، لكنه مات. سبع عشرة سنة ضربَته بالعجز، أوهنت السنوات أنيابه ومخالبه، فمات، بينما سبعة وعشرون قرنًا، لم تكُن كافية لموتي، وأنا لا نابَ لي ولا مخلب، موت غلام ملأ قلبي بالكمد، فأصبحَت وحدة الجبل لا تُطاق، ليته لم يصحبني قط، لكُنت اعتدت وحدتي. كان لحياتي كفَّتان: غلامُ والجبل. فلما سقط الأول، زهدتُ في الآخر، ولم أُصاحب بعده كلبًا قط إلا بعد سبعة وعشرين قرنًا، وها هو الآخر يصارع الموت ليتركني وحدي أواجه تحطُّم الوجود، وليس في يدي إلا قلمٌ أَسطُر به حكايتي الرديئة ومساخر سنواتي الطوال.

حملت غلام ونزلت إلى الأرض، فحفرت له قبرًا على بُعد ذراعين من قبر أمي، ودفنت معه الفأس التي حفرتُ بها، لينتهي كل ما كان لي في هذا الجبل، تركتُ صاحبي الذي أَنَسَ وحشتي، يؤنس موتَ أمي بعد رحيلي، بل لعله لم يأتِ إلا ليكون رفيق موتها لا غربتي، غادرتُ الجبل.

أخبرتُ البدوي إني راحل إلى تونس، وطلبت منه أنْ يرشدني، نصحني أنْ أركب البحر، وقال: «سيكون دخولك سهلًا من

البحر، فبلادهم تموج بثورة، وحين الاضطراب يسهل الدخول والخروج، ولن يسألك أحدٌ من أين جئت أو إلى أين تذهب». فعلتُ ما نصحني به، ركبت سيارة إلى (دمياط)، وسألت عن رجلٍ أرشدني إليه البدويّ، أخذَ مبلغًا من المال، ودفع بي إلى مركب لا يصلح إلا للغرق، على ظهره أكثر من مائة وسبعين رجلًا، يحمل أحلامهم المُرهَقة إلى أرض أوروبا، فلما قلت لصاحب المركب: «وِجهتي تونس وليست أوروبا». قال: «لن نذهب إلى تونس لكنَّ البحر واحد، وربما نصادف قاربًا في عرض البحر يحملك إلى بلادهم، وإنْ لم نجد فلتأتِ معنا إلى ما هو خير من تونس». لم أجادله، كل المقاصد تستوي في عيني، ولا فرق عندي بين بلد غريب يتكلم العربية، وبلد غريب لسانه أعجميّ، الغربة عادلة، تستوي فيها الأماكن كلها.

لم أركب البحر من قبل، كان قريبًا على الدوام، قريبًا في اليمن وفي حيفا، وقريبًا من جبل الرب، لكن لم تقترب قدماي من شطآنه قط. أخافه، لا أخاف الغرق، لكن رؤية موجه وهو يضرب الشاطئ بغير هدى، تُخيفني، ربما لأنه يشبهني، فهو الآخر سجين، جبار تسجنه أسوار الرمال، يموج ويثور ويضطرب، لكنه حبيسٌ. الجميع يخوض في حرمه، ويستبيح حرمته، وتنتهك السفن جسده، يستخرج الغزاة كنزه، يعبثون بأحشائه ويعتصرون رحِمَه، مُستباح مثلي تمامًا، حسّون، لكن مِن ماءٍ، لا يعرف كيف أتى ولا إلى أين المصير، ومثلي قديمٌ وهَرِم، عجوزٌ تَمُرُّ السنون على ظهره وهو راكع لا يتغيّر ولا يشيب. ها هو يفور اليوم أمامي، ودخان ناره المُحتقِنَة يخنق الأُفق، هو حبيسٌ يفور وأنا حبيسٌ أكتب، منذ سبعة وعشرين قرنًا وأنا أنتظر تحرره، لعلني مثله أتحرر، ومنذ سبعة وعشرين قرنًا وهو مُستسلم، فأيقنت ألا فكاك لكلينا.

شقَّت السفينة صدر البحر كسكين صدئة تُعذبه بسيرها البطيء، وتُعذبني معه. سئمتُ البُطء، كل العالم يهرول من حولي وأنا أسير ببطءٍ متراخٍ، وأقدام مُرهقة مَلّت سيرها، لا شغف يُحركني، ولا أعرف العجلة من أمري، قضيت خمسًا وأربعين سنة بأرض فلسطين، كأنها يوم واحد، لا فرق بين أول يوم دخلت فيه مخيم القادمين من اليمن وآخر يوم في بيت أروى. لا شيء أذكره إلا قُبلة أخذَتَها مني يونا في المخيم، وقُبلة أخذتُها أنا من أروى في حضرة الدجاج، وبين القُبلتين حياةٌ رديئة تشابهَت فيها كل الأيام، لا شيء إلا حُب أروى وموت صفية، ذهبَت الأولى بقلبي وأخَذَت الثانية روحي إلى قبرها، ثُم مكثتُ أعلى الجبل سبع عشرة سنة كأنها ساعة واحدة، حسَمها غلام بموته. كلهم يموتون بعدما يتعلق بهم قلبي، يجعلونني أُحبهم، ثُم يغرزون سكين الفقد في عمق روحي بلا رحمة، فعَلَها أبي، ثُم جدّي إسماعيل، ومُعلمي داوود، ثُم جدّي حزقيال، وأتت صفية على ما بقيَ مني، ثُم ختم غلام تعاستي بموته.

سبعة أيام ونحن في عرض البحر، لم تظهر القوارب كما توقع رُبّان السفينة، والحقُّ أني لم أكُن شغوفًا بالذهاب إلى حيث أوصتني أمي، فإنْ ظهرَت سفينة على سبيل المُصادفة، ذهبتُ إلى تونس، وإنْ لم تظهر فلتحملني تلك السفينة إلى حيث شاءت. اتخذت المُصادفة قرارها، في اليوم الثامن ظهر مركب صيد، فتبسّم الرُبّان كأنه يقول لي: «ألم أُخبرك؟». فلم أرد له البسمة ليقول له عبوسي: «لا فرق». حدّثَهم الرُبّان وحدّثوه، والماء يفصل بين المركبين، أُبرمت الصفقة، وكما هو دائمًا لا دخل لي في قرارات الناس، ولا القدر، فقط أستجيب لما قرروه. حدد الرُبّان مبلغًا للصيادين لا أعرف أهو كثير أم قليل، لكنه قال: «ماطلتهم ووصلت إلى ثمنٍ حسن». فقلتُ: «حسنًا». دفعت له ونزلت إلى المركب الآخر، كان أصغر كثيرًا من مركب المهاجرين إلى بلاد الشمال، لكنه بدا لي فسيحًا؛ إذ لم يكُن على ظهره إلا بضعة رجال، زاد عليهم حسّون، فلم يزيدوا شيئًا.

أخبرني كبيرهم إنهم صيادون من (ليبيا) وليسوا من تونس، لكنهم سيمرون قريبًا من شاطئ (المهدية)، ومن هناك يُمكنني الدخول إلى تونس. كنت مُتعبًا فنمت، تطلع الشمس فأجلس على حافة المركب أراقب البحر، لا أُكلم أحدًا ولا يُكلمني أحدٌ، فإذا نزل الليل تدثرت في زاوية والتحفت غطاءً أعطوه لي. بعد يومين جاء أحدهم وسألني: «أتحسن العوم؟». قلت: «لا». فدَلُّوا قاربًا صغيرًا أنزلوني فيه، واصطحبني أحدهم حتى بلغنا الشاطئ، كان الليل لا يزال يمتلك الأُفق

حين وصلنا، عند نزولي من القارب قال لي: «ليؤنس الله غربتك». أردت أنْ أشكر له دعوته الودود، لكن شغلني الموج الذي يضرب رجلي وأنا أحمل صندوقي، فخشيت الغرق، رغم أنَّ الماء لم يبلغ ركبتَيّ، فلم أرد عليه.

لفظني البحر، وحيدًا تائهًا، لا أعرف إلى أين ولا ماذا أصنع. قضيت ما بقي من الليل على الشاطئ، وانتظرت خروج الشمس لعلني أجد طريقًا، مُتعبًا كنتُ وحزينًا. الآن فقط صرتُ وحدي دون صفية، كانت تقودني حتى وهي في قبرها، فانفَتَحت عيوني على ظلام الكون وخواء نفسي، قلبي دونها صَدَفَةٌ منفيةٌ عن شاطئها، تسمع صوت البحر ولا تراه، أَخفِقْ أيها القلب بصمتٍ فقد صرتَ الآن وحدك. كم أني صغيرٌ، صغيرٌ عمره جاوز السبعين سنة، لكن له وجه شاب لم يبلغ الأربعين، وها أنا جالس فوق الرمال، أحمل صندوقًا به كتابان وخنجر، وشهادة ميلاد تقول إني مسلم يمنيّ، وجواز سفر يؤكد أني إسرائيلي يهوديّ، غربة خلفي وغربة أمامي، وبحر يُذكّرني هديرُ موجه أني حسّونٌ شريد، لا شجرةَ له.

اليوم الثالث

غادرتُ شاطئ المهدية، ودخلتُ المدينة خائفًا، عضّني الجوع فبحثت عن مكان أشتري منه طعامًا، سألت أحد المارين بالطريق عن مكان يُقدم الطعام، لم يفهم كلامي وأشاح بيده وهو يردد كلامًا لم أفهمه أيضًا، عربيان وضعَت اللهجة بينهما سورًا من العُجمة، ثُم رأيت فتاة تصطحبُ كلبًا، فسألتها بعربية فصحى: «أين أجد مكانًا أشتري منه طعامًا؟». فتبسّمَت وحدَثَتني بلهجة لم أفهم منها نصف ما تقول، لكن يدها أشارت إلى الجهة الأخرى من الطريق، فأغنَتني إشارةُ يدها عن كلامها، يمّمتُ وجهي إلى حيث أشارت الفتاة، فوجدتُ عددًا من الحوانيت، تعلو واجهاتها لافتات عن صنوف الطعام، فلم أعرف أي صنف منها، قلتُ للبائع: «أريد طعامًا، ولا تسألني عن صنف مُعيّن، فقط أعطِني ما آكله». كان الطعام شهيًّا أو ربما هو الجوع ما جعلني أشعر بهذا، سألته: «كم تريد؟». فأجابني: «ثلاثة دنانير». فأخرجت له ورقة من فئة العشرة دولارات وقلت: «لا أملك غير هذه العُملة». جذبها من يدي وقال: «ليت كل الزبائن معهم مثل هذه». ثُم أعطاني سبعًا وعشرين ورقة من دنانيرهم، وقال: «الباقي». شبعتُ وبقيَ المُـقام، سألتُ رجلًا عن فندق أنزل فيه، فمَطّ شفتيه ولم يُجِب، رجال تونس لا يُحبّون الغرباء، هكذا أيقنت، النساء كنّ أكثر لطفًا فلم أعد أسأل الرجال عن شيء، دلّتني امرأة على فندق قريب، ذهبتُ إليه وقدمت لموظفة الاستقبال جواز سفري الإسرائيلي، توقعت أنْ ترفض الإدارة إقامتي، لكن اسمي العربي جعلهم يظنون أني من عرب إسرائيل، أو ربما أصابت الثورة حركة السياحة لديهم بالركود، فلم يهتموا كثيرًا من أي بلد أتيت أو إلى أي قوم أنتمي، استقبلوني. خمسة أيام لم أغادر غرفتي، لا أفتح الباب إلا للعاملة التي تأتيني بالطعام مرة في الصباح ومرة في الليل. قضيتُ أيامي كلها في النوم، دومًا كان النوم أماني وملجئي من الخوف والذكريات.

قررت ألا أذهب إلى «مراد بن يوشع اليمني»، الرجل الذي أوصتني أمي أنْ أبحث عنه في تونس، وقالت إنه من أقربائها، على الأقل لن أذهب إليه الآن، أحتاج إلى السير بغير دليل، أريد أنْ أتذوّق الأشياء بنفسي، دون أنْ يُخبرني أحدهم إنَّ هذا حلوٌ وذاكَ لاذع. وأول ما يجب أنْ أفعله هو الخروج من عزلتي داخل هذا الفندق، أصبحتُ أغادر غرفتي كل صباح، أمشي في الطرقات بلا غاية، أعجبتني أسماء الشوارع، ما أعجبني فيها تحديدًا أنها تبدأ بكلمة «نهج»، نهج فلان ابن فلان، نهج سيدي فلان، أحسست أنها بشارة، ويومًا ما سيكون لي نهجي الذي أختاره. أحببت المقاهي أيضًا، لم أكُن قد جلستُ بمقهى من قبل قط، فأصبحت أتعمّد الجلوس كل يوم بمقهى جديد، أجلس قريبًا من الناس لأتعلم لهجتهم، في البداية ظننتُ أنَّ رجال تونس غلاظٌ أجلافٌ، لكن حين راقبتهم وجدتهم لطفاء، يسخرون من كل شيء، ويسبّون ما يحبّون أو يكرهون على حد سواء، لم أرَ أحدًا أكثر شتمًا منهم، لكني أحببتُ سِبابهم، تحديدًا طريقتهم في السِباب، «ياعَن بو زينك» كانت الشَتْمَة المُفضّلة عندي، وفهمتُ أنها طريقة للغزل أكثر منها جملة للسِباب، وددت لو أعود إلى فلسطين لأقول لأروى «ما أحلاك ياعَن بو زينك» لكن لا سبيل إليها، فقلتها للعاملة بالفندق بدلًا عن أروى، فردّت عليَّ بجملة لم أفهمها، لكنها ذكَرَت أمي في جملتها، وأظنها لم تذكُرها بخير، فلم أكرر فِعلتي مع أحد.

صندوقُ أمي يحوي مالًا كثيرًا كانت تدَّخِرَه لأجلي، لم أنفق منه فوق الجبل سوى القليل الذي كنت أعطيه للبدوي، مقابل ما يأتيني به من الطعام مرة كل شهر، وأجر صاحب السفينة التي حملَتني إلى هنا، وفي غير ذلك لم أنفق شيئًا، لم أُحْصِ المال عدًّا، لكن ورقة واحدة دفعتُها للرجل التونسي أطعمَتني، وأعطاني فوق الطعام سبعة وعشرين دينارًا، وفي الصندوق مئات مرصوصة مثل تلك الورقة. العوَزُ لا يُخيفني، لكنني أشتاق لأنْ أعمل في شيء أحبه، لم أحب قط ما كنت أفعله في إسرائيل، كنت أعمل فقط لأنني الوحيد الذي يمكنه العمل في أسرتي، واليوم يجب أنْ أقوم بشيء أريده، لا أعرف

ما هو، لكن يقيني أنَّ العمل سيدلُّني على هذا الشيء الذي لا أعرف ما هو، دومًا كنت أبحث عن شيء أجهله، شيء غير الذي أنا عليه، أريد ألا أظل أنا، كما أنا، ولذا قررت أنْ أعمَل لأُصبح غيري.

في صباح اليوم التالي اعتذرتُ من عاملة الفندق، قلتُ لها: «أنا لا أعرف معنى الكلمة، سمعتُ الناس يرددونها فظننتُها كلمة حسنة». قَبِلَت اعتذاري وتبسّمَت، ثُم قالت: «هؤلاء عالة سفَلَة، تطعمُهم زوجاتهم ثُم يجلسون على المقاهي يسبُّون القبح والجمال، فلا تكُن مثلهم يا حسّون». أعجبتني طريقتها في نطق اسمي، وأصبحتُ أنتظرُ موعد الطعام لأراها، أحببتُ أنَّ إنسانًا يتحدّث إليَّ ويهتم لشأني، حتى لو كان يتقاضى أجرًا على هذا.

ذهبتُ إلى السوق لأعرف ماذا يبيع الناس ويشترون، لعلي أفعل مثلهم، كانت أغلبُ السلع قديمة مستعملة، رأيتُ مثل هذا السوق في اليمن، وقد سئمتُ القِدَم وكرهتُ الأشياء المستعملة، تلك تجارة مضى عهدها، أريدُ أشياء جديدة، وحياة أيضًا. في الطريق رأيت محلًا يبيع الفخاريات، اشتريت مزهرية بيضاء تزينها وردة زرقاء فوقها عصفور، اشتريتُها لأُهديها إلى «وسيلة» عاملة الفندق، كنت أريد أنْ أُهدي شيئًا لأحدهم، فأنا لم أُقدّم هدية في حياتي لأيِّ إنسان من قبل، ولا أهداني أيُّ أحدٍ أيَّ شيءٍ، قَبِلَت وسيلة الهدية وفرحَت بها، احتضَنَت المزهرية وطبعَت قُبلةً على خدي، وانصرَفَت، أصبحنا صديقين.

رغم إرادتي الجديدة، ويدي المُتحفزة لصُنع حياة أرسمها بنفسي، فإنني مكثتُ خاملًا راكدًا، لا أعرف من أين أبدأ، ولا ماذا يُمكنني أنْ أفعل في هذا البلد الغريب، وما زلتُ عازفًا عن الذهاب إلى مُراد بن يوشع، فقررت أنْ أستعين بصديقتي الجديدة، سألتُ وسيلة النصيحةَ لكي أجد عملًا، فسألتني:

- ما الذي تحسن عمله؟

- لا شيء.

- جيد، هذا يعني أنك مؤهّل لتعمل بأي شيء. لكن عليك أولًا أنْ تغادر حياة الفنادق، مَن تَعوّد أنْ يخدمه الناس، لن يخدم نفسه.

- وأين أُقيم إنْ غادرت الفندق؟

- يسهل تدبير مسكن لك، وإنْ شئت فإنَّ لدينا غرفة شاغرة أعلى البيت، سأُكلم أمي تؤجرها لك، وبعدها تبحثُ عن عمل.

- معي مبلغ لا بأس به من المال، لكن لا أريد أنْ ينفد سريعًا وليس لي دخلٌ يعوضني، وأخاف أنْ تطول بطالتي ويصبح أجر غرفتكم فوق طاقتي.

- لن يكون أجر الغرفة أكبر مما تدفعه في الفندق بأي حال. تؤجر أمي الغرفة بخمسين دينارًا في الشهر، وسأُكلمها أنْ تأخذ منك أربعين فقط.

- بل أدفع مائة دينارٍ مقابل وجبتيّ إفطارٍ وغداء كل يوم من طعامكم، وليكن ما يكون ولن أعترض.

ضحكت وقالت:

- أهذه خدمتك لنفسك؟!

- أخدمها في كل شيء، إلا صُنع الطعام.

قَبِلَت وسيلة الصفقة، وغادرتُ الفندق.

يقع بيت وسيلة في ولاية (المنستير)، ولاية كبيرة قطعتها السيارة في أربعين دقيقة، رغم أنَّ الطُرق كانت خالية من الزحام. كلما أغرقَت السيارة في عمق الولاية؛ كانت مظاهرُ الثراء تنحسر والفقرُ يبدي أسنانَه ضاحكًا فوق البيوت، قطعنا الطريق حتى بلغنا مدينة (المُكنين)، وكان البيت شرق المدينة، في حارة فقيرة اسمها (القَلَّالات). نزلنا من السيارة وحملتُ حقيبتي، قادتني وسيلة في طُرق ضيقة تشقُّها أخاديدُ طويلة، لم أفهم عِلّتها، فأخبَرتني إنه «الواد». سألتها:

- وما ذاك؟

- أودية شقَّتها مياه المطر والسيول منذ زمنٍ بعيد، فأقامت (البلديّات) على جانبيها حوافًّا أَسْمَنتية حتى لا يفيض ماؤها، لأنَّ السيل يأتي جارفًا، فيحمل الوادُ الماءَ ويمضي به إلى الأراضي المزروعة.

هززت رأسي كأني فهمت، والحقيقة أني لم أفهم شيئًا مما قالت، كنت فقط أريد أنْ أتحدث في أي شيء، ولم يكُن يشغلني الواد ولا مَن شقَّهُ، وصلنا إلى البيت أخيرًا، منزل من طابقين، بابه الخارجي مصنوع من الخشب، مطليٌّ بالأزرق والأخضر، يُفضي الباب إلى سقيفة فسيحة، لها باب هي الأخرى يربطها بداخل البيت، ويعزلها عنه في آنٍ واحد. جاءت أُمها، وأخوها «بلحسن»، تبسّمَت أُمها، وتأمّلني أخوها بوجه شمعيّ لا يَشي بدخيلة صاحبه، بدَت أُم وسيلة في الستين من عمرها، قابلتني بوجهٍ بَاشٍّ وهي ترحب بي قائلة: «أهلًا بك يا ولدي». غرها وجهي، ووددتُ أنْ أقول لها إني أكبرها بعشر سنوات على الأقل، لكن لا يوجد يتيم يرفض كلمة «ولدي»، فلم أُخبرها. بعد طول صمت سألني بلحسن: «هل اسمك حقًّا حسّون!». قلت: «نعم». فهزَّ رأسه مستهجِنًا وقال: «تعال معي لترى غرفتك». خرجنا من الباب الداخلي فوجدتُ نفسي وسط بيت لا سقفَ له، تترامى حول فسحته أربع غرف، ارتقينا سلمًا إلى الطابق الثاني لأرى مسكني، لم يكُن بهذا الطابق سوى الغرفة المُعدة لسكني، وفَسَحَة كبيرة تمتدُ أمامها. الغرفة واسعة مُبهجة، ليس بها سوى سرير، وخزانة صغيرة للملابس، وكرسي واحد، نظيفة تتخلَّلها الشمس من نافذة كبيرة، تطلُّ على مزبلة في الشارع الخلفي، أوصاني بلحسن ألا أفتح النافذة ليلًا وإلا أكلَني البعوض، فلم أفتحها لا ليلًا ولا نهارًا.

كان الأسبوع الأول ثقيلًا، لم أغادر غرفتي، يمرُّ الوقت ببطءٍ، فلا يُهوّن مِن سَأَمِي إلا مجيء وسيلة إليَّ وهي تحمل غدائي، بعد انتهاء نوبة عملها في الفندق. حين يكون أخوها في البيت تأتي بالغداء وتسألني عن حالي، ثُم تنصرف سريعًا بلا جلوس ولا حديث، وحين لا يكون بلحسن في البيت تجلس معي ساعة، وتحرص أنْ يظل باب الغرفة مفتوحًا، تكلمني عن أُسرتها وحياتهم، تعتذر عن غلظة أخيها بلحسن، وتمتدح طِيبة زوجته «أُلفة»، وتشكو خوفها على حياة أُمها المريضة، وأحيانًا تشرح لي خارطة المُكنين، وتخبرني باسم كل حيّ من أحيائها الشهيرة، وطبيعة أهله، وكان فيما ذكرته لي من الأحياء (حي اليهود). أزعجني غاية الإزعاج أنَّ هناك يهودًا بالمدينة، وعندما سألتها إذا كان اليهود كُثْرًا في المُكنين، أخبرتني إنَّ وجودهم نادرٌ، يعيشون في ثلاث مدن أو أربعٍ، في تونس كلها، وإنَّ عددهم في المُكنين قليلٌ جدًّا، لكن لهم دكاكين منتشرة في حومة السوق، حتى إنَّ الحومة نُسِبَت إليهم، فصار اسمها: (حومة اليهود). من بين كل المدن التونسية وقع حظي التعيس بجوار اليهود الذين هربت منهم! لم أُكثر من السؤال عن اليهود حتى لا أَلفِت انتباه وسيلة إلى مخاوفي، والحقُّ أنها لم تكُن تسألني عن شيء ما لم أكُن أنا البادئ به، إلا إذا كان يخص العمل، فتكون هي أول مَن يبادر بالحديث عنه. كانت وسيلة فتاة جميلة، أو هكذا رأيتها، بشرتها بيضاء كالثلج، وشفتاها مكتنزتان تحيطان بفم واسع، تميل للقصر، عامِرة الصدر، خصرها دقيق، تعقص شعرها ولا ترسله أبدًا، سألتها مرة:

- لماذا لا ترسلين شعرك؟

- المُكنين بلدة تحافظ على تقاليدها، ولدينا إذا جاوزت الفتاة الثلاثين بغير زواج، لا يصحُّ أنْ ترسل شعرها.

- تبدين أصغر من الثلاثين!

- بل أزيدُ عليها، بثلاث سنوات.

- أنا أكبر منك كثيراً، فأنا جاوزتُ السبعين من عمري.

ضَحِكَت وحسبَتني أمزح معها، وقالت:

- لا تجاملني أنتَ أصغر مني ولا شك.

- لا يغرنّكِ وجهي، أنا أكبر سنًّا حتى من أُمك.

- وإلى متى سيظل الرجل العجوز، عاطلًا عن العمل؟

- لا أدري، دلّيني أنتِ، ماذا يُمكن أنْ أعمل؟ لأعرِفَ متى أعمل.

جلسَت وسيلةُ على السرير، وأنا ما زلت واقفًا في مكاني، وأخذت تحك ذقنها مرةً، وتفتل خصلة من شعرها مرة، ثُم قالت:

- ما رأيكَ أنْ تعمل معي بالفندق؟

- أريدُ عملًا لا أرى الناس فيه يرحلون سريعًا، والفنادق لا أهل لها.

- كل الناس ترحل في النهاية يا حسّون.

- فلنُطِل أجَلَ بقائهم ما استطعنا.

- إذًا اعمَل بشيء يترددُ الناس عليك فيه.

- وما هو؟

- لأخي بلحسن صديقٌ يمتلك دكانًا يبيع الألبان والأطعمة المُعلبة، يمكن أنْ يتوسط لك عنده لتعمل في دكانه، زبائن الدكاكين يترددون عليها حتى تحفظ أسماءهم ووجوههم، بل وتعرف أسرار بيوتهم كأنهم من أهلك.

- اشتغلت بهذه المهنة في أرضٍ لا أحبها، وفي زمنٍ لا أريد أنْ أتذكره. أريد أنْ أفعل ما لم أفعله من قبل يا وسيلة.

- حسنًا، سأدلُّكَ على عمل لا يقوم به أحد في المُـكنين كلها، ولا أظن أنك قمت به من قبل.

- وما هو ذاك العمل؟

- عندما كنت أدرسُ بمدينة (سوسة) كنتُ أرى شبابًا يفترشون نواصي الطرق، يبيعون الكتب القديمة، وأحسب أنهم كانوا يربحون جيدًا، فلماذا لا تجرب تلك التجارة في المُكنين؟

- كيف أبيع الكتب وأنا لم أقرأ كتابًا في حياتي غير القرآن والتوراة؟!

أُخِذَت وسيلة عندما نطقتُ كلمة «التوراة»، وذُهِلت عيناها لكنها لم تُعقِّب، كانت تعرف منذ التقيت بها أني من عرب إسرائيل، وفقًا للأوراق التي قدمتها لإدارة الفندق، ومع ذلك عندما قدمتني لأُمها وأخيها بلحسن قالت لهما إني مصري لأم فلسطينية، ربما فعلت ذلك لأني أخبرتها إني قضيت سبعَ عشرة سنة بمصر، فرأت أنَّ هذه الفترة مصَّرتني، وربما قدمتني

لهما على أني مصري تحرُّجًا من ذِكر جنسيتي المثبتة بجواز سفري، عندما رأيت توترها حين ذكرتُ التوراة، أدركتُ أنها شكّت بأني يهودي الديانة، فأخبرتها دون أنْ تطلب مني، إني أُحب أنْ أقرأ في المصحف كثيرًا، وأجد فيه ذكر التوراة مرات عديدة، ولذلك قرأت فيها لأتعرف عليها، فتبسّمت كأنها لم تكُن تكترث لهذا الإيضاح، ثُم قالت:

- ليس بالضرورة أنْ تكون قارئًا للكتب، المهم أنْ تحسن بيعها، وسأساعدك في هذا. عندي مكتبة كبيرة ورثتها عن أبي ولا نفعل بها شيئًا، سأبيعُكَ نصفها لتبدأ به تجارتك، وعندما يعرفُ الناس مكانك فسيأتي مَن يعوزه المال ليبيعك كتبه، وكل مَن تريد أنْ تخففَ زحام بيتها ستفكّر أول شيء في التخلُّص من الكتب، فتشتري منهم وتبيع لغيرهم.

فتحَت لي وسيلة بابًا للعواصف، فقد قرأتُ، فرأيت، بعدما كنتُ فقط أسمع، وليسَ مَن رأى كمَن سَمِع.

التجربة، كانت هي الشيء الذي لم أعرِفه من قبل إلا مرة واحدة، عندما قررت أنْ أجرب النزول إلى الحفرة الكبيرة بغرقة القليس، فرأيت حُلمي الذي ما زلت أدفع ثمنه، ومنذ فعلتُها وأنا دون العاشرة لم أتجاسر على أي تجربة، مهما كانت تافهة، فقط أسير على القواعد المقررة سلفًا، واليوم أنا بحاجة إلى تجربة.

وافقتُ على عرض وسيلة، اشتريتُ نصف مكتبتها، كتب كثيرة تدل أغلب عناوينها على موضوعات تخصُّ الحياة التونسية مثل: «المرأة التونسية والتحديات»، «بورقيبة والتجربة الفريدة»، «تونس بين الاتجاهات»، وعناوين أخرى لروايات قديمة أكثرها مكتوبة بالفرنسية، فلم أفهم لها عنوانًا ولا مضمونًا، وقليل منها كانت بالعربية، كان مجموع الكتب مائة وسبعة وثمانين كتابًا، حددت لي وسيلة ثمن كل منهم. غمرَتني الأماني بأني قد أربح الكثير بيوم واحد، أو يومين على الأكثر حين أبيعها، مر أسبوعان لم أبِع فيهما كتابًا واحدًا.

لم يتحسن الأمر كثيرًا على مدار أربعة أشهر، حتى تحرجَت وسيلة من نصيحتها، وشعرَت أنها ورطتني بكتُبها. رفعتُ عنها الحرج وأخبرتها إني أحبُّ ما أفعل، وإنَّ السعادة تغمرني لمجرد أنْ يأتي بعض الشباب، يُقلِّبون في الكتب ويتصفّحونها سريعًا، ثُم يرحلون دون شراء، أو يأتي رجل له طلعة وقورة، فيقف طويلًا على بضاعتي ثُم يختار كتابًا ويدفع ثمنه، فأشعر بقيمة كبيرة لأنني كنت قِبلة هذا الرجل المحترم، أو أولئك الشباب المُفعمين بالحياة.

علمتني التجربة، فقررتُ تغيير طريقتي في البيع، حدث ذلك عندما جاءت فتاة إلى فَرْش الكتب، وأمسكت كتابًا أعجبها عنوانه، فسألتني لتقرر إنْ كانت ستشتريه أم لا: «عن أي شيء يتحدث هذا الكتاب؟». فأخبرتُها إني لا أعرف شيئًا عما يحويه الكتاب. قالت: «كيف تبيع ما لا تعرف؟!». حينئذ قررتُ أنْ أعرف. لم أكُن أمتلك شيئًا أكثر من الوقت، أصبحتُ أقضي يومي كله في قراءة الكتب التي أبيعها، تعلمتُ كيف أعرف مضمون الكتاب سريعًا بقراءة مُقدمته بتأنٍّ، أما الروايات فكنت أقرأ جزءًا من أولها، وجزءًا من آخرها، ثُم أكملُ التفاصيل بعد ذلك وأنسجُها من خيالي، وإذا سألني أحدهم عن قصة الكتاب، سردتُ له الحكاية التي اخترعتُها.

نجحَت الطريقة، وزادت مبيعات الكتب حتى أوشكَت على النفاد، دون أنْ يأتيني ما يعوضها، فوضعتُ لافتة مكتوب عليها: «نشتري الكتب القديمة، ونبيعها». مع مرور الأيام أصبح الناس يأتون بكتُبهم لأشتريها، في أول الأمر كنتُ أشتري كل ما يأتيني، فكانت خسارتي مدهشة، فتسعة أعشار الكتب التي ابتعتها، لا يشتريها أحدٌ. لكن الأمر لم يخلُ من فائدة، فقد أصبحَت مكتبتي التي لا حوائط لها ولا سقف، عامرة. قررتُ أنْ أُغيّر المكان الذي أفترشه على رأس «نهج محمود الواد»؛ إذ كان طريقًا فرعيًّا لا يقصده الكثيرون، واخترتُ بدلًا عنه «نهج الحاج محمد زخامة»؛ إذ تقع ناصيته على طريق واسع، قريبًا من السوق ومحطة السيارات، وعلى بعد أمتار من معهد «الطاهر الحداد»، التلميذات كُنَّ يأتينَ دومًا للوقوف على

كتبي، تأتي إحداهُنَّ فلا تسأل عن شيء، ولا تمسِك بكتاب، إنما تشير لصاحبتها على العناوين، وتقسمُ لها إنَّ الرجل الذي على صورة الغلاف، يشبه حبيبها، وأخرى تشير بثقة لأحد العناوين، وتؤكّد أنه قد تمَّ تحويله «لفيلم» أجنبي، ولا تتردد في حكي قصته كاملة وهي واقفة أمام كتبي، حتى إني كنتُ أحيانًا أستوقِفُها قبل أنْ تغادر لتُكمل القصة، لأعرفَ النهاية. مرة سألتني إحداهنَّ عن رواية «رومانسية» فأعطيتُها عدَّة عناوين، فضحكَت من لَكنتي وقالت: «أنتَ لستَ تونسيًّا». قلتُ: «نعم، لستُ تونسيًّا». ولا أدري لماذا أخبرتُها بما قررته عني وسيلة من قبل، أني مصري، رغم أني لا أحسن اللهجة المصرية، أخفيتُ حقيقتي اليمنيّة، وصرت أمام الجميع مصريًّا، وبعد ذلك بسنوات أدركتُ أني حسنًا فعلتُ، ولم يعُزني إثبات، فكان من السهل إتقان اللهجة المصرية سريعًا، بعدما تابعت ما تذيعه الفضائيات من «أفلامهم» ومسلسلاتهم.

كان كل شيء يُعلّمني، أصبحتُ خبيرًا بالكتب التي تُروج، والكتب التي يصعب بيعها، وعلى هذا الأساس أُحدد ثمن كل كتاب أشتريه وأبيعه، أصبحَت فرشتي تحوي ما يزيد على خمسمائة كتاب، وصرتُ قِبلة الكثيرين، وضعتُ الكتب في صفوف تمتد على الأرض، كل صف منها يختص بمجال مُحدد، بعضها للاقتصاد، وأخرى للسياسة والاجتماع، وأكثرها كانت كتبًا دينية عن علامات الساعة وأدعية الشفاء لكل مَرَض، وكانت تلك هي الأكثر رواجًا، ومنها ما كان لفنون الطهي والزينة، وقليلٌ من الروايات. أصبح لي زبائن دائمون، وأروع ما في الأمر أنهم كانوا يطلبون مني أنْ أُرشدهم للكتب الأفضل، حسّون أصبحَ يدل الناس على الطريق ويرشدهم، وهو الذي جره الجميع من رقبَتِه مثل نعجة لسبعين سنة! سقط الحبل عني وأصبحتُ أُحدد وجهتي، بل وأَهدي إلى الطريق غيري، والدليلُ أنَّ هؤلاء الرجال المحترمين يستشيرونني فيما يقرؤون.

المعرفة صارت نهمي واشتهائي الذي لا ينقطع، أقرأ كل كتاب قبل بيعه، لكن كان هناك الكثير من كتبي بغير العربية، وأنا أريد أنْ أعرف كل شيء، طلبتُ من وسيلة أنْ تُعلمني الفرنسية، فكانت وسيلة بداية جيدة لتعلّمها، ثُم أكملت بعدها بقية المَهمّة وحدي، حتى أصبحتُ أُتقنها أفضل من مُعلمتي، وكان في ذلك بابٌ لفهم الكثير من كتبي، وفكٌّ لألغازِ لهجة أهل تونس، التي تنحشر الفرنسية في نصف كلماتهم، بعد تحريفها قليلًا.

قبل مرور عام واحد أصبحتُ أستطيع قراءة كتبي الفرنسية التي أبيعها، غير أني لا أزال جائعًا لأعرف أكثر، فطلبتُ مزيدًا من الطعام، قررتُ تعلُّم الإنجليزية أيضًا، وقبل مرور بضعة أشهر أصبحتُ أُحسِنُها، وإنْ كانت معرفتي بها لا تصل إلى درجة إتقاني للفرنسية، لكنها مكّنتني من القراءة بالإنجليزية لا بأس بها، عندما رأت وسيلة شغفي باللغات قالت:

- لماذا لا تعمل بالسياحة وأنت تجيد الآن ثلاث لغات؟!

فرفضتُ نصيحَتها بغير تردد، وقلتُ:

- لن أخون كتبي.

رفعتُ أجرَ الغرفة لمائة وعشرين دينارًا، دون طلب من أهل البيت، قالت لي أُم وسيلة: «لا ترهق نفسك يا حسّون، فقد صرتَ واحدًا منا، وإني أراكَ مثل ولدي». فقلتُ: «إنْ كنتُ حقًّا مثل ولدك فاقبلي مني الزيادة، فقد وسَّع الله عليَّ». فرضيَت ودعَت لي بالبركة. ورغم سعادتي بما أصنع فكان ينقُصني شيءٌ، وكما هو دومًا، لا أعرفه، تعلَّمتُ من حياتي الجديدة في تونس، أنَّ أجمل الأشياء التي تحدث لنا، ليست تلك التي نبحث عنها، بل تلك التي نتعثر بها، تعثرتُ بـ«زيدون». كان صاحبَ محلٍ للملابس يجاور دكانه فَرْش كتبي، لم يكُن يُكلمني، ولا يُلقي سلامًا حين يَمُر عليَّ، حتى جاء شهر رمضان، حدث يومًا أنْ تأخرت في جمع كتبي آخر النهار، فدخل عليَّ المغرب، فلما انتهيتُ من جمعِها في الصناديق،

وجدتُه أمامي يدعوني لأفطر معه، شكرته وقلت له: «سأفطر بمسكني فهو قريب». لم يقبل حُجتي، وأقسمَ أنْ أشاركه فطوره، فقبلت دعوته. بعدها بيومين تعمدتُ أنْ أتأخر في جمع الكتب، الصديق يشبِعُ الروح، وليس فوق الأرض من أحد أجوع مني لرفيق، صدقَ ظني وكرر دعوته، تحدّثنا في أثناء الإفطار في أشياء كثيرة، أخبرته إني مصري، وإنَّ أصول أجدادي ترجع لليمن، وإني تنقلت في بلاد كثيرة، حتى استقر بي المقام في تونس، التي ما زلت أحاول أنْ أفهم طبيعة أهلها، وأخذ هو يُحدّثني عن طفولته في (تطاوين)، ثُم أخذ يدفع عن أهله تهمة لم أتّهمه بها؛ إذ قال لي بغير سبب:

- إنَّ أهل الجنوب هم أهل تونس الحقيقيون، لا يغرنَّكَ ما ترى من أهل الساحل، تونس في الجنوب. ليست كل نسائنا كمَن ترى هنا، هل كل نساء مصر كمَن نرى على الشاشات؟! أليس منكم محافظون على أخلاقهم؟

كدتُ أنْ أقول له لستُ أعرف أي شيء عن مصر، ولا أهلها، لكن هززتُ رأسي مؤمِّنًا على كلامه، فقد أخبرته للتو إني مصري، فخضعتُ لكذبتي، وكنتُ مصريًّا.

طلبتُ من وسيلة يومًا أنْ تُعد لي طعامًا، أعطيتها عشرة دنانير وقلتُ لها: «هل تتكرمين وتصنعين طعامًا يحبّه أهل الجنوب؟». تعجبت من طلبي، وقالت: «لا أعرف ماذا يأكل أهل الجنوب، لكن أمي ولا شك تعرف». جاءتني وسيلة قبيل المغرب وهي تحمل الطعام، أعدت أُمها طبقًا من «الزّميطة»، فأخذتُه إلى محل زيدون لنفطر معًا، كنتُ أراقبه وهو يأكل مُستمتعًا بأكلة جنوبية، صرنا صديقين. تعودتُ أنْ أَمُر عليه بعدما أنتهي من عملي، فأجلس معه ساعةً قبل عودتي إلى مسكني، ويجمعُنا الأحد كيوم راحة لكلينا، نخرج معًا فنجلس بأحد المقاهي، أو نتسكع بالطرقات، عرض عليَّ يومًا أنْ نقضي أحد الآحاد في (تونس) العاصمة، سعدتُ بعرضه، فقد كنتُ بحاجة لأنْ أرى مدينة جديدة، وأناسًا آخرين، عندما علِمَت وسيلة بنيّتي في الذهاب إلى تونس، طلبَت مني أنْ أشترى لها هاتفًا جوالًا، أعطتني ثلاثمائة دينارٍ، وقالت: «إذا زاد عليها فلا تشتريه». زادَ، واشتريته.

نساء العاصمة كُنَّ أكثرُ بهجة وأمتعُ للنظر من نساء المُكنين، وددتُ لو كانت لي صديقةٌ منهنَّ، وسيلة وإنْ كانت طيّبة لكنها لم تُحرك فيَّ رغبة إليها، أخبرتُ زيدون بما يدور في نفسي، فنهرني وقال: «يا أخي هؤلاء يتشبهنَّ بنساء الكفرة، ونحن مسلمون. فلا يصحُّ أنْ تميل لمِثلهنَّ». من بين كلِّ رجال تونس وقع حظي بزيدون المتنسّك! لكنَّ الصديقَ قدرٌ، فرضيتُ بقدري. لم أعد أخبره بما في نفسي، وكلما ذهبنا إلى العاصمة بعد ذلك؛ أستخفي منه وأتابع النساء في صمت، ثُم أعود إلى مسكني فأتخيلهنَّ معي، لم تشغفني النساء بمثل هذه الطريقة من قبل، ولم أكُن أعلم ماذا يحدث لي، أصبحتُ رجلًا غير الذي أعرفه، يتساقطُ ماضيه دون أنْ يشعر، حتى أروى لم تَعُد تجول بخاطري، إلا كذكرى من ذكرياتي البعيدة، لا أدري أحيَّة هي أم ميتة، مرت سنوات كثيرة، ولعلها اليوم صارت أُمًّا ولها أطفال كثيرون، ولعلها أصابتها البدانة وعلامات الكِبَر. بعدما رجعت من زيارتي الأولى لتونس العاصمة، أعطيتُ الجوّال لوسيلة، ولم أخبرها بثمنه الحقيقي، كانت عزيزة النفس وأعلمُ أنها لن تقبل تكفُّلي بالمائة دينار الزائدة. سألتني:

- لماذا لا تقتني هاتفًا أنت أيضًا يا حسّون؟

- ومَن أهاتف؟

- ألا تتواصل مع أهلك؟!

- ليس لي أهلٌ، ولم يَعُد لي أي أحد يمكن أنْ أهاتفه.

- غريبٌ أنت يا حسّون! ليس لك أهلٌ، تعيش هنا بغير غاية، تجهل كل ما حولك، ولا خبرة لك بأي شيء، كأنك نزلت إلى الأرض من عالم آخر، ما قصتك؟!

- ليست لي قصة، وتلك هي المأساة، أنا نكرة أو على الأقل قضيتُ عمري كله نكرة، حتى أتيتُ إلى بلدكم هذا، وأريدُ هنا أنْ أصبح شيئًا، مدينٌ أنا لكِ بالكثير يا وسيلة، فما شعرتُ بذاتي إلا بعدما صار لي عمل وغاية، حتى لو كانت بسيطة كبيع الكتب، لكنها ترضيني، يكفي أنني اليوم أفعل ما أريد، بل يكفي أني أريد. أما أهلي فقد ماتوا جميعًا منذ زمن بعيد، مات أبي منذ سبعين سنة وأنا كنت لا أزال في الخامسة من عمري، وماتت أمي منذ قُرابة عشرين سنة، ماتا وتركاني لعالم لا أعرفه ولا يعرفني.

- أبوك مات منذ سبعين سنة وأنت في الخامسة من عمرك! كيف هذا وأنت تبدو في الأربعين على أبعد حد؟

- قد أخبرتكِ من قبل إني جاوزت السبعين من عمري، ولم تصدقيني.

- أنت تكذب، جاوزت السبعين، ولك وجه شاب وليس عليك مسحة واحدة من الشيب!

- لا، لستُ أكذب، ولا أدري لماذا لا أشيب؟!

- سبحان الله، له في خلقه شؤون!

سكتَت وسيلة عن غير تصديق، كانت تظن أني أسخر منها، أو أحجبُ عنها حقيقة عمري لسبب خفي، ولم تَعُد تسأل، وسكتُّ عن غير حيلة، ولم أَعُد أتكلم.

وحده صدقني زيدون، لم أُخبره إنَّ أمي يهودية، ولا إني يمنيُّ الأصل وإنْ كنت إسرائيليًّا في الأوراق الرسمية، فهو يظن كما يظن الجميع أني مصريّ، أخبرته فقط إني جاوزتُ السبعين من عمري، وإنَّ وجهي كذَّاب يخفي حقيقتي، فقال:

- بل حبَاكَ اللهُ بكرمه فاشكُر نعمته ولا تنقِم عليها، إنْ كنت أستغربُ شيئًا فليس عمرك الذي لا يناسب وجهك، إنما أتعجبُ لكونك لم تتزوج حتى بلغتَ السبعين! ألم تحبّ امرأة في حياتك يا حسّون؟

- أحببتُ مرة واحدة، فخذلتها ورحلتُ بعيدًا عنها.

- لا بأس، الله يجمعُ مَن شاء متى شاء، فلماذا لا تبحث عن عروس، أراكَ شيخًا زائغَ العين، فعفَّ نفسك بزواجٍ أيها العجوز المتصابي.

كان زيدون طيبًا، وكنت أحسب أني مثله طيّب، وأدركت بعد ذلك أني غير هذا، فقد تمكَّنت الغيرة من قلبي بعدما رأيتُ نظراته لوسيلة، ونظراتها له، اختنقتُ بحزني عندما ذهبتُ يومًا إليه فوجدت وسيلة معه في دكانه، لم أكُن أحبُّ وسيلة، لكنني حسدتُ زيدون أنْ أحبَّته وسيلة. لم تَعُد تُعِدُّ لي طعامًا كما كانت تصنع من قبل؛ إذ أصبحت تُعِدَّه لزيدون، أكَلَ طعامي، فأكلَت الغيرة قلبي.

عدتُ يومًا إلى البيت في غير موعدي، وسألتها أنْ تجلس معي لأني حزين مكتئب، فتحرجت من مطلبي وإنْ لم تردَّني بقسوة، لكنها اشترطت أنْ نجلس في حجرة الضِيفانِ، لا في حجرتي، كانت تراعي خاطر زيدون وغيرته، جلستُ معها قليلًا ولم أتحدّث في أمرٍ ذي بالٍ، ولم تكترِث هي لاستقصاء ما أحزنني، صارت كلها لزيدون.

بعد أيام أقرَّ لي زيدون بحبّه لها، وأخبرني إنه سيستخير الله في خطبتها. وقع قوله على قلبي ثقيلًا، وقلتُ له:

- لكنها غير متحجّبة وأنت مُتديّن، فكيف تخطبها؟!

- الله هو الهادي، إنَّ معدنها نفيسٌ، ولن تظل على سفورها إنْ تزوجنا.

خطبها زيدون، وفرِحَت بالخطبة وسيلة، ففعلتُ فعلتي. حكيتُ لزيدون كيف تعرفت إليها، وكيف كانت تصنع معي، كنت أمتدحها في ظاهر القول، وفي ثنايا الحديث أطعَنُها، أخبرتُه عن أول لقاء جمعني بها في الفندق، وعن القُبلة التي طبعتها على خدّي عندما أحضرتُ لها هدية، والساعات التي كانت تقضيها معي بالغرفة في غيبة أخيها بلحسن، قصصتُ عليه كل هذا كأني بريء لا أقصد وشاية، كنت أدسُّ السمَّ في روحه، وأعرف كيف سيصيب قلبه بالبرد، حتى يجمد. تغير وجهه ولم يُعقّب، ثُم لم يَعُد يزور وسيلة، حتى شَكَت لي وسألتني عن سر تغيّره، فقلتُ: «هو يحبك، ولا أعرف لتغيره سببًا».

بعد أسبوع فضَّ زيدون خطبتها، وأغلق دكانه وعاد إلى بلدته في الجنوب، دون أنْ يودّعني، انكسر قلب وسيلة، وانكسر حلم زيدون، ومعهما انكسرَت براءتي. كان الشرُّ يسكُنني ولا أدري، ربما لأنَّ مَن عاشوا حولي طيلة حياتي كانوا أشد مني شرًّا، فحسبتُ أني من الودعاء الطيبين، فلما رفعوا أحذيتهم عن قلبي، وضعتُ حذائي على قلب مَن أحبُّوني وأخلصوا لي، لم أتألم لأجل صديقيَّ اللذين فرّقتُ بينهما، أو لم أتألم حينها، لكنني بعد قرون طويلة عرفتُ الألم وندِمت، وندمُ العاجز عن إصلاح ما أفسد شديد القسوة.

جاءتني وسيلة تبكي وجيعَة قلبها، وهي تأمَل أنْ أُطبِّب جُرحها، فسكبت عليه ملحَ اليأس الذي في روحي، قلتُ لها بصوت لا رحمة فيه: «لا بأس، ستنسين، سيَمُر الوقت وتصبح آلامكِ لصيقة بروحك حتى تألفها ولا تشعر بها، ثُم يتلاشى الحزن ويصيب البرد قلبك، تضحكين بغير سعادة وتحزنين بغير صدق، لن تعرفي حبًّا ولا كراهية، ستُميتُ الفجيعة قلبك فتستوي لديه الأفراح والأتراح. ثقي بي، فقد خبُرتُ الجراح كلها، وأعرفُ ما سيكون». كانت كشاةٍ بين يَدَي جزار، تستجيرُ بي، والسكينُ في يدي يبحثُ عن عُنقها.

قضيتُ ليالي كثيرة أبحثُ عن سرّ القسوة في قلبي، فلم أصِل إلى سبيل، ثُم لم أكترث بعدها لِعلة قسوتي، كنتُ أحتاج لكل التجارب، وكان ذاك موعد الدناءة لأجربها، فإذا اكتملَت تجاربي جلستُ لموعد الحصاد، وكان الحصادُ مُرًّا.

تركتُ تجارة الكتب، ولم أَعُد أقرأ أي كتاب، ما عدتُ أريد أنْ أعرف شيئًا من خارجي، فقد شغَلَتني نفسي لأعرفَها، جلستُ شهرًا في غرفتي لا أخرج منها، ولا أجلس مع وسيلة إلا إذا ألحَّت عليَّ، فقد ظفرتُ بها، وأنزلتُ بها عقابي الأليم، أردتُ أنْ أعاقِبَ أحدًا ولو لمرة، وأنْ أجرّبَ القسوة ولو على بريء لا ذنبَ له، أدركتُ أنَّ القسوة تفتحُ طاقات في النفس، لم أكُن أعرفُها، فتحت القسوة عيون الريبة في قلبي، فما عدتُ أحسن الظن بأحد، وتمسّكتُ بها حتى لا تصيدني الفخاخ من جديد.

بعدما مر الشهر، سئمت عزلتي وقررت أنْ أبدأ حياة جديدة، أجرب فيها أشياء لم أعرفها من قبل، كنت أبحث في كل شيء من حولي، لعله يرشدني إلى أول الطريق، وفي أثناء تطلعي إلى ما يحيط بي، انتبهتُ إلى «أُلفة» زوجة بلحسن، لم تكُن موضِعَ نظري من قبل، فلما تسللت القسوة إلى نفسي، رأيتُها. كانت أجمل من وسيلة، نحيفة، طويلة الشعر، شفتاها ممتلئتان حمراوان تشتهيان القطاف، وأنا الحصَّاد المرتقِب، لكن لا بدَّ للحصّاد من منجلة، لم أجد حيلة أغويها بها، فانتظرت القدر ليلقي إليَّ بطرف الحبل، وكان القدرُ كريمًا فألقاه سريعًا بين يديّ، صعدَت أُلفة يومًا لتنشر غسيلها، فأخذتُ تفاحة وقدمتها لها، تمنَّعَت عن تفاحتي، ثُم أخَذَتها، بعد يومين ذهبتُ إلى (حومة اليهود)، كانت أول مرة أنزل فيها سوق اليهود، بعدما كنتُ أخافهم وأتجنّبهم ما استطعت، اشتريتُ سوارًا من الفضة مُطعّمًا بأحجار تخلب العيون، وتحيَّنتُ موعد صعود ألفة للسطح، صعدَت، فأهديتها سواري، ترددت في بادئ الأمر وقالت:

- سيقتلني بلحسن إذا عرف أني قبلت هديتك.

- لن يعرف إلا إذا أخبرتِه أنتِ، أو أخبرتُه أنا، وأنا لن أخبره، فإنْ لم تفعلي فلن يعرف، قولي له إنكِ اشتريتِه.

قَبلَتهُ، فأدركتُ أنَّ القطاف قد اقترب.

تجنبتُها بعد ذلك عدة أيام، وحرصتُ ألا تراني، تعلَّمتُ من يونا وأنا طفلٌ في المُخيم أنَّ الغيبة تُذكي نارَ الشوق، والشوقُ يقود المُتطلِّع، تعمدت تغيبي عن ألفة فقادها شوقُها، تركتُ لها الخطوة التالية ولم أبادر، فبادَرَتْ. ذات صباح سمعتُ صوت ارتطام قُرب باب غرفتي، في موعد لا يصحو أهل البيت فيه؛ إذ كان بلحسن يذهب إلى عمله باكرًا، وقد أصبحت وسيلة لا تستيقظ من نومها إلا عند الظهيرة بعدما تركَت العمل بالفندق، عندما سمعتُ الصوت أدركتُ أنَّ ألفة تريد أنْ تنبهني لوجودها، فتحتُ الباب، فوجدتها أمامي، كانت ترتدي «سفساري»، ضحكتُ لها وسألتها: «ما هذا الذي تلبسين؟!». أجابتني: «هذا السفساري الذي تُصلّي فيه أُم بلحسن، ألبَسُه عندما أكون في عجلة من أمري، فهو سهل في ملبسه ويستر جسدي كله، فلا أحتاج أنْ ألبس تحته شيئًا». ألقَت بحبلِها، فأمسكتُ طرفَه بغير تردد، دعوتها لغرفتي، فدخلَت، أجلستها على سريري، ورفعتُ عنها السفساري، بدا لي جسَدُها فرسًا بغير لجام، مسحتُ بيدي على مفاتنها، فصهلَ الفرس، عاشرتها وذقتُ امرأةً لأول مرة في حياتي، لم أشعر بالندم على الخطيئة، ولا شعرت باللذة التي كانت تجتاح خيالاتي، لكنَّ شيئًا ما قد سقط مني، ولم أجده بعد ذلك قط. تذكّرتُ مُعلمي داوود وزوجته الخئون، وددتُ أنْ أقول له: لا تحزن، كلُّهنَّ يقتحمن أبواب الخيانة إنْ وجدن الطريق إليها. ضاجعتها بعد ذلك مرتين، ثُم امتنعتُ عنها، لا عن ورع، ولكن بُغية الإذلال.

أصبَحَت ألفة تتحيّن كل فرصة لتصعدَ إلى غرفتي، تُحدِثُ جلبةً، فلا أفتح الباب، تتعمدُ الغناءَ، فأصمّ أذني عنها، وعندما يئست من استجابتي لها طرقَت بابي، فتحتُ لها وأدخلتُها ثُم قلت: «شبعتُ منكِ، يكفي ما كان، لا أريدُ المزيد». غادرَت الغرفة ولم تصعد بعدها قط، لكنها أضمرَت شرًّا، تعلمت على يديها ألا أكسر كبرياء امرأة، ردَّهن يكون بالغ القسوة والإيذاء إنْ جرحتَ كبرياءَ الرحِم، وكان تدبيرُها هو ما أرغمني على مغادرة بيت وسيلة بعد ذلك بشهور لم تَطُل.

اشتقت للصلاة في المعبد، كأني زهدتُ حسّونَ المسلم، واشتقتُ لحسّونٍ يهوديّ، أو ربما كان حنينًا للعيش بين الغرباء، فكل من حولي يحيون في وطنهم، ووحدي الغريب بينهم، وفي المعبد وسط اليهود المنبوذين حتى في أوطانهم، سأكون غريبًا بين الغرباء، فلا أشعر بوحدتي. كان المعبد قريبًا من حومة اليهود، دُرتُ حوله ولم أغامر بالدخول، شيءٌ ما في نفسي يخبرني إنَّ ثمَّة خطرًا إنْ عرفَ الناسُ أني يهودي، لم يكُن خوفي من اليهود أنفسهم، فقد سقط الخوف من قلبي، ولم أَعُد أخشى مخالطتهم، وظننت أنَّ السنوات الطوال التي مرت منذ خروجي من فلسطين، كانت كفيلة بزوال الخطر ويأْس مَن يبحثون عن مسيحهم المُخلِّص، كان الخوف من المسلمين الذين عِشت بينهم إنْ عرفوا أني يهوديّ، فاكتفيتُ بالوقوف أمام باب المعبد ولم أدخل.

قررتُ أنْ أجد طريقة أقترب بها من اليهود، فذهبتُ إلى (سباط اليهود). كان سوقهم يقع في طرف السباط، يصنعون الحُلي، ويوشّون الثياب بخيطان الذهب، امتلكتُ شجاعتي وذهبتُ إلى أحد الحوانيت أطلبُ من صاحبه عملًا، فقال: «لا حاجة بي لعامل». أخذتُ أتفرسُ الوجوه وأتابع الحوانيت لعلني أجد ضالتي، وجدتُ رجلًا مُسنًّا في طرف السوق، يجلسُ بدكّان لا يؤمُّه الناس، عرضتُ عليه أنْ أعمل عنده، فقَبِل. دكانه الخاوي من الزبائن والبضاعة، يدل على تاجر مفلس، لعله قَبِل بي ليقنع نفسه أنَّ له تجارة رائجة، والدليل أنه جاء بعامل جديد إلى دكانه. أخبرته إنَّ اسمي «حسَّان» وإني مصري أعيش في تونس، خشيت أنْ أذكر له اسمي، فأنا لم أقابل أحدًا في تونس اسمه حسون، فأردت أنْ أتخذ اسمًا لا ينتبه إليه

الناس في سوق اليهود، سألني صاحب الدكان: «هل عملت بالصاغة من قبل؟». قلتُ: «لا، لكن يُمكنني أنْ أحرس الدكان في الليل وأكنسه في الصباح، وأفعل كل ما تطلبه مني». تعمدت أنْ أذكر له أمر الحراسة في وقت كَثُرت فيه السرقات، وغاب فيه الأمن منذ هروب حاكم البلاد. رضيَ بعرضي وقال: «تعالَ في الصباح، لكني لن أعطيك أكثر من دينارين في اليوم، فأنتَ لا خبرة لك». قبلتُ بأجره البخس، ولم يكُن يعنيني الأجر، كانت غايتي أنْ أفعل شيئًا جديدًا، وأنْ أستعيد نصفي الذي كدت أنساه منذ نزلت إلى تونس، قرابة سنتين قضيتهم هنا وأنا مسلم خالص، لا يعرف أحدٌ من الناس أني يهودي، كأنَّ روحي حنَّت إلى شقائها القديم وتنازُع الأضداد فيها، لعلها تعبت من الراحة فطلبَت حيرتها من جديد.

ذهبت في الصباح إلى الدكان ولم أخبر وسيلة بالعمل الجديد، وهي لم تسأل عن سبب خروجي كل يوم من غرفتي، وتغيبي طيلة اليوم حتى أعود في المساء، كأننا كُنا على اتفاق أنَّ شيئًا بيننا تم كسره ولا جبر له، ورضي كل طرف منا بما أصبحنا عليه. كنت أبذل كل طاقة في العمل لأنال رضا صاحبه، أذهب قبل موعدي ولا أنصرف إلا حين يأمرني، أُنظف دكانه، ولا أراقب صنيعه، حتى لا يظن أني جئت لأسرق حِرفَته. قلتُ له يومًا:

- إنَّ النساء هنَّ زبائنُك، والنساءُ يغويهُنَّ البهرج، كل الدكاكين من حولك جديدة، فلماذا لا تجدد الدكان؟

- ماذا تصنع زينة الدكان إذا كان الصانع حمارًا بليدًا؟ هؤلاء يبهرجون دكاكينهم ليخفي البهرج خيبتهم، وأنا تُغنِيني مهارتي عن مثل هذا.

- التجارة دهاء، فلماذا لا تحتال لجذب الزبائن.

- ليس لديّ ما أُجدد به دكاني يا حسّان، فاحفظ نصيحتك لنفسك وابلع لسانك.

- أنا أُقرِضك ما تحتاج إليه، ثُم رُدّه بعدما يتحسّن الحال.

- ومِن أين ستقرضني وأنت عالة لا مال لك؟

- ورثتُ عن أمي مبلغًا كبيرًا، وكنت أدخر لسنوات، فأصبح عندي من المال ما يكفي حاجتي وزيادة.

- ولماذا عملت أجيرًا عندي، إنْ كان لديك مثلما تزعم من المال؟!

- اليد البطَّالة نجسة.

- حسنًا، اعلم إذًا أني لن أردَّ القرض بفائدة.

- لا أقبل الرّبا، رُدَّ أصل المال بغير زيادة.

زادني في اليوم التالي نصفَ دينار فوق أجرتي، بعدما جئته بخمسمائة دينار ليجدد الدكان، وزادت ثقته بي بعدما أفادته نصيحتي وتحسّن الحال، لكنه لم يرد إليَّ ما أقرضتُه، ولم أطالبه بشيء، ثُم أصبح بعد ذلك يناديني لأساعده في تنظيف الحُليّ القديمة، فعَلِمت أني حزتُ على قدر كبير من ثقته؛ إذ جاد بتعليمي شيئًا من صنعته، لكنه لم يُعلِّمني كيف يصوغ الحُليّ، فاكتفيتُ بصقل الذهب وتنظيفه.

مرت أشهر على هذه الحال، أذهب إلى الدكان أول الصباح حتى يدخل الليل، ثُم أعود إلى مسكني، لا أُكلم أحدًا من أهل البيت ولا يُكلمني أحدٌ، حتى الطعام لم تَعُد تأتيني به وسيلة؛ إذ أقضي يومي كله بالدكان، اعتزلتهم واعتزلوني. كل يوم يقربني أكثر من اليهودي صاحب الدكان، فيجود عليَّ بشيء من أسرار صنعته، حتى أصابه المرض، فجلس في البيت أيامًا لا يفتح الدكان، زرته في بيته لأطمئن عليه، كنت أعلم أنَّ ثقته لم تبلغ الحد الذي يجعله يترك لي مفتاح الدكان، ظن أني جئت لأسأله أجرتي عن الأيام التي لم نفتح فيها، فطمأنته بأني لا آخذ أجر العاطل، بعد زيارتي له بيومين عاد لفتح

الدكان، لكنه لم يأتِ منفردًا، جاءَ مُتكئًا على ذراع ابنته التي أصبحت تأتي معه كل صباح، كانت ماهرة في العمل كأبيها، وبعدما اشتد عليه المرض فألزمه الفراش، أصبحَت ابنته تأتي وحدها، كان اسمها «دُرصاف».

كنت أظن أنَّ درصاف مُطلّقة، فقد سمعتُ أباها يتحدث عن زوج لها لم أره قط، لكنها بعد ذلك أخبرتني إنها ليست مُطلّقة، وإنَّ زوجها هاجر بعد قيام ثورة أهل تونس، وإنه خاف تبدُّل الحال بعد ذهاب نظامهم القديم، وتردد الأقوال إنَّ الإسلاميين هم الأقرب للحكم، فخاف على نفسه وأمواله وهاجر إلى إسرائيل، بينما رفض أبوها السفر، واختارت درصاف الـمكث مع والديها، وقد بدا لي أنها لم ترحل معه حبًّا بوالديها، بل كراهية لزوجها؛ إذ إنها لم تكُن تذكره قط. كانت درصاف قوية، لا تكِلّ من العمل، تركَت لي تنظيف الحُليّ القديمة وصقلها، مثلما كان يفعل أبوها معي، وتفرغَت هي لحياكة الأثواب وتزيينها بخيوط الذهب، وكانت تعرف أنَّ أباها يدين لي بخمسمائة دينار، ورغم أني لم أطالبها بشيء، فإنها قالت لي من تلقاء نفسها: «سأردُّ إليك دَينَك، لكن لا تخبر أبي أني فعَلت». أصبحت تدفع لي كل أسبوع عشرة دنانير، كنت أحصيها في دفتر، فلما أعطتني العشرة المتمِّمة لأربعمائة دينار، قالت:

- هكذا أخذتَ دَينكَ كاملًا.

- لكنَّ أباكِ كان يدين لي بخمسمائة دينار، لا أربعمائة!

- وأنا أعطيتكَ الخمسمائة، فلا تماطِلني في حسابي.

لم أفهم حِرصها على سدادِ الدين، ثُم حِرصها على أكلِ خُمُسَهُ بغيرِ حقٍّ! لم أجادلها، ورضيتُ بما ردَّته إليَّ.

طيلة أشهر لم تسألني وسيلة عن سرّ تغيُّري، ولا طلبت مني تفسيرًا لترك تجارتي التي علمتني إياها، ولذلك استغربتُ قدومها لغرفتي بعد طول غياب لتسألني بلا مقدمات:

- لماذا تركتَ بيع الكتب، ألم تكُن تجارتك خيرًا من الخدمة في دكاكين اليهود؟!

- مَن أخبركِ أني أعمل في دكاكينهم؟

- رأيتك بنفسي في الحَومة.

- وما الضير في هذا؟ اشتغلت عندهم لأتعلم صنعة تنفعُني، الناس لا يُقبِلون كثيرًا على الكتب، لكنهم يُقبلون دومًا على الذهب.

- ولم تجد عملًا ينفعك إلا عند اليهود!

- تكرهينَ اليهود يا وسيلة؟

- لا أكرهُهم ولا أحبّهم، غير أني لو كنت مثلك ولم أجد عملًا إلا عندهم، فالبطالة خيرٌ لي.

- أنا يهوديٌّ يا وسيلة.

ذُعِرَ وجهُها وابتلعَت ريقَها بصعوبة، وقالت:

- قد رأيتك تُصلّي وتصوم! أهذه كذبةٌ أخرى مثل سنّك الذي جاوز السبعين؟

- لم أكذب. جاوزت السبعين حقًّا، وأنا يهوديٌّ لأمي، مسلمٌ لأبي.

- أنت غريب، وكل ما تنطق به يصيبني بالرعب، أصبحت أخاف منك ولا أفهمك، لا أعرف لك أصلًا ولا فصلًا، ولا أدري كيف أسكنتُك في داري وبين أهلي؟!

- تخافين مني يا وسيلة وأنتِ أقرب الناس لي، بل لم يَعُد لي في الناس أحدٌ سواكِ!

- لا أعرف يا حسّون، أحبك كصديق، ولا أطمئن إليك. أكره الالتباس ولا أثق بمن يقف في الضباب، أرى وجودَهُ ولا أدرِك ملامحَه!

ثُم تركتَني وخرَجَت.

زاد خوفُ وسيلة بعدما وسوسَت ألفة في أذن زوجها وأُمه، وقالت لهما إن زيدون فضَّ الخطبة لشكّه بأنَّ شيئًا كان بيني وبين خطيبته، وأخبرَت زوجها إنَّ وسيلة كانت تصعد إلى غرفتي في غيبته. جاءتني وسيلة بعدها وأخبَرتني بما فعلَته ألفة، وقالت: «أُترك بيتي، فقد أصابَ وجودكَ عِرضي». أردتُ أنْ أُخبرها قبل رحيلي إنني قمتُ بجرم لا يقل حقارة عما فعلَته ألفة، وإني من ألقيتُ الشك بنفس زيدون، لكنني لم أستطع أنْ أعرّي دناءتي أمام نُبلها، فقلت لها: «زيدون يحبك، ليتك تعودين إليه، هو طيب وأنتِ نقية يا وسيلة. اغفري لي إنْ كنت تسببتُ بأذى لكِ». بكت وقالت: «بل اغفر لي أنتَ يا صديقي». حزمتُ حقائبي، ثُم تصافحنا، ورحلتُ.

أخبرتُ درصاف إني تركتُ السكن، وطلبتُ منها إجازة ليوم أو يومين حتى أُدبر مسكنًا أقيم فيه، فقالت: «أكمِل عملك اليوم ثُم اذهب إلى إحدى (الإقامات) فاقضِ فيها ليلتك، فربما دبرتُ لك مسكنًا في الغد». فعلت كما قالت، وفي اليوم التالي سألتني:

- كم كنت تدفع أجرًا لمسكنك؟

- مائة وعشرون دينارًا، وكانت صاحبة البيت تعد لي وجبتين في اليوم.

- سأُعطيك سكنًا بالأجر نفسه، لكن مع وجبة عشاء فقط، فقد كلمتُ أبي في شأنك، وسنوفر لك غرفة ببيتنا.

- إذًا لن أدفع أكثر من مائة دينار.

وافَقَت، وانتقلتُ لبيتهم.

لم أشعر بالراحة في بيت درصاف، لكن لا بديل أمامي، فتعايشت مع الأمر. درصاف حازمة، تعرفُ ما تريد، ولا تسمح بتجاوز دائرة حدَّت حدودها، كانت تتخفف في بيتها من ملابسها كثيرًا، خرجتُ ليلةً من غرفتي لأتبوَّل، فوجدتُها في ساحة البيت سَكْرَى تبكي، سرى دفءٌ في عروقي لـما رأيتُ عُريها الشهي، ولم ألتفِت لبكائها، اقتربتُ منها وسألتُها: «أأنتِ بخير؟». فقالت: «لا شأنَ لك». وسددت نظرة قاسية لعيني، كأنها تقول: أعرف ما يدور برأسك، لا تفكّر في هذا. فأكملتُ طريقي للمرحاض ثُم عدت إلى غرفتي دون كلام، كان مُعلمي داوود يقول لي إنَّ نساء اليهود لا يتمنَّعنَ عن رذيلة، فلماذا صدَّتني درصاف؟! داوود لا يحسنُ الحكم على النساء. نمتُ، وفي الصباح كُنا في الدكان كأنَّ شيئًا لم يكُن.

العمل في الدكان ليس مرهقًا، لكنه مضجر، يتكرر ما أفعله كل يوم بحذافيره، كم شعرت بالندم على ترك العمل في بيع الكتب، غير أني كنت عازمًا على إكمال التجربة في الحياة بين اليهود حتى النهاية، دفعني السأم إلى التفكير في «مراد بن يوشع» الذي أوصتني به أمي، وقلت ما دمت أحيا مع يهودٍ هنا، فلماذا لا أبحث عن مراد هذا؟ لعلني أجد عنده ما هو خير من العمل في دكان درصاف والعيش في بيتها، سألتُ أباها يومًا:

- هل اليهود يعيشون هنا منذ زمن بعيد؟

- نحن نعيش هنا منذ قرون، في تونس والمغرب كله، كنا هنا حتى قبل أنْ يدخل المسلمون إلى القيروان، ألم تسمع عن

«ديهيا»؟

- لا.

- تلك التي دوّخَت عقبة وأصحابه، كانت سيدة البربر التي حكمت أرض المغاربة كلها، وقد كانت يهودية. لقد كنا هنا قبلكم يا بني.

- فلماذا لا أرى إلا عددًا قليلًا من اليهود هنا؟

- هاجر اليهود منذ سنوات بعيدة، ولم يبقَ منهم إلا القليل.

- وهل بقوا في المُكنين وحدها؟

- بعضُهم، وبعضُهم في تونس العاصمة، وقليلٌ منهم في (سوسة) وأكثرهم في (جِربة). لماذا تسأل عن ذلك؟

- لأني أريد أنْ أسألك عن أحد اليهود إنْ كنت تعرفه، أو تعرف كيف أصل إليه.

- ومَن هو ذاك؟

- أنا لا أعرفه، لكن أعرف أنَّ اسمه مراد بن يوشع، فهل سمعت به؟

- لو كان من يهود المُكنين لعرفتُه، أما وأني لا أعرفه فهو قطعًا ليس من أهل المُكنين. لكن مَن هو ذاك؟ وماذا تريد منه؟

- لا شيءَ، عندما كنت أسكن في حارة القلالات، طلب مني ابن صاحبة البيت عنوانه عندما علم أني أعمل معك، وظن أنك قد تعرفه بما أنه يهودي، ولا أدري لماذا يريد عنوانه، أردت فقط أنْ أسدي إليه خدمة، فقد أحسنوا معاملتي.

- ربما كان من يهود سوسة، أو جربة، لا عِلم لي.

قلت في نفسي بما أنَّ أبا درصاف لا يعرفه، إذن هو كما قال من يهود سوسة أو جربة أو ربما كان من يهود العاصمة، يُمكنني البحث في هذه المدن، غير أنَّ العاصمة كبيرة، وجربة بعيدة، فقررت أنْ أبدأ البحث عنه في المكان الأقرب إلى المُكنين، فذهبتُ إلى سوسة وقصدتُ معبدها «تاج التوراة» وسألت عنه، فلم يعرفه أحدٌ، انتظرت فترة حتى لا تنتبه درصاف ولا أبوها لما يشغلني، وبعد شهر من زيارتي لسوسة، قصدتُ جزيرة (جربة). ذهبتُ إلى معبدها الأَشهَر «الغريبة»، عرفتُ أنَّ أغلب اليهود يقصدون هذا المعبد القديم، سألتُ أحد الحاخامات عن مراد بن يوشع، فلم يُفِدني خبرًا، وأحسبُ أنه ارتاب في أمري، خرجتُ للساحة الفسيحة أمام المعبد وسألتُ بعض الوقوف عنه، فقالوا إنهم لا يعرفونه، كدت أنْ أيأس مع الوصول إليه، فقلتُ هو ولا شك رجل كبير في العمر، وربما لن يعرفه أحدٌ من هؤلاء الشباب، فرأيتُ عجوزًا تجلس وحدها، تبسّمت لي عندما سألتها وقالت: «ومَن لا يعرف مراد؟! يسكن في (الحارة الكبيرة)، وبيته يعرفه أهلُ الحيّ هناك، فاذهب إليها يدلونك عليه».

طرقتُ بابه وقلبي مضطربٌ يرتجف، لا أدري ماذا أقول له، فتحَت لي خادمةٌ شابّة، سألتها عن مراد فأدخلتني وقالت: «انتظر». دخل مراد والخادمة تدفعُه على كرسي، شيخٌ هَرِم وجهه يقول إنه ابن سبعين سنة على الأكثر، لكنه أخبرني بعد ذلك إنه جاوز التسعين. اعتذرتُ له عن زيارتي بغير موعد، فهزّ رأسه وسألني:

- مَن أنت، وماذا تريد؟

- أهلي من اليمن، وأمي أوصتني أنْ أصل إليك، وأخبرتني إنك مِن أقربائها.

- ما اسمك، ومَن أُمك؟

- أنا حسّون، وأمي صفية بنت حزقيال بن ميمون القدَّاح.

انتفضَ لسماع الاسم كأنه ملدوغ، وصاح:

- يا قدوس! حسّون! أنت الذي يبحثون عنه؟

فزعتُ من قوله إنَّ هناك مَن يبحث عني، وقفزَت صورة الحاخام باروخ أمام عيني، حتى كدتُ أنْ أنكر اسمي الذي نطقت به منذ لحظة، لكن خوفي دفعني لأنْ أعرف مَن هم أولئك الذين يبحثون عني، فربما ليسوا الذين أخرجوني من فلسطين، وساعتها فإنَّ كل خوفٍ يسير. فقلت:

- نعم أنا حسّون، لكن مَن هم الذين يبحثون عني؟

- أخبِرني أولًا ماذا وراءك؟ وبعدها أجيبُك.

كان وجهه طيبًا وصوته أمينًا، فقصصتُ عليه ما حدث في اليمن وكيف هاجرنا إلى إسرائيل، ثُم خروجي إلى مصر، وكيف استقر بي المقام في تونس منذ سنتين، لكن لم أخبره لماذا خرجت من إسرائيل. تعرّق واضطرب حتى خشيتُ عليه وقلتُ سيصيبه مكروه، شرب كوبًا من الماء ثُم سألني:

- هل معك أوراق تثبت مَن أنت؟

- معي شهادة ميلادي التي تثبتُ أني يمني، وجواز سفري الإسرائيلي.

كانا بحوزتي فأخرجتهما له، ثُم قلت:

- أخبِرني الآن، مَن هم الذين يبحثون عني؟

- يهودٌ من إسرائيل، جاؤوا إلى هنا مرتين، بحثًا عنك، المرة الأولى كانت منذ تسع عشرة سنة، والثانية منذ سنتين، كانوا يريدون الوصول إليك بأي ثمن. ماذا فعلتَ وماذا يريدون منك؟

- لم أفعل شيئًا، يزعمون أني المسيح المُخلِّص، إنهم مجانين، أي مسيحٍ أنا؟ وأنا لا أعرف حتى إلى أي دين أنتمي، مسلم أم يهودي، يمني أم إسرائيلي؟ قتلوا جدّي وهربتُ منهم مع أمي، ثُم اعتزلتُ في الجبل سبع عشرة سنة وما زالوا يريدون صيدي، أقسمُ لكَ أنا لستُ مسيحًا ولا مُخلّصًا.

- حكايتك مريبة حقًّا، قصتك تقول إنك جاوزت السبعين، ووجهك يقول إنك شاب لا تزيد على الأربعين!

- نعم، ولا أدري لماذا لستُ أكبر مع السنوات، ولا أدري ماذا يريد الله مني، لكنني لستُ مسيحَهم الذي يزعمون.

قلتُها وبكيت. فمسح على رأسي وقال:

- أصدقك، أصدقك يا بنيّ، لا تخَف أنت آمِن عندي، ربما جاؤوا يطلبونك عندي لأنهم عرفوا أني من أقرباء أُمك، وقد عرفتُ من بعض أهلي في (طهران) أنهم بحثوا عنك هناك أيضًا، وكذلك عرفتُ من بعضهم في المغرب أنهم طلبوك عندهم، وهذا يعني أنهم لا يعرفون أين أنت. يظنون أنك ستذهب إلى بعض اليهود في بلاد الشتات، فيبحثون عنك في كل موطن فيه أهلك.

- إذًا سيصِلون إليّ، ما داموا لم ييأسوا مني طيلة هذه السنوات.

- سيصِلون إلى حسّون، وعليكَ ألا تكون حسّون بعد اليوم.

- وكيف يكون هذا؟!

- اترك الأمر لي. أخبرني أين تقيم؟

- ببيتٍ أصحابه من يهود المُكنين.

- ويعرفون اسمك؟

- لا، بل يعرفون أني مصريٌّ مُسلم، وأنَّ اسمي حسّان لا حسّون، فقد كنت حذرًا أنْ يعرف الناس حقيقتي منذ نزلت إلى تونس.

- حسنًا فعلتَ، اذهب إليهم واقضِ شهرًا عندهم، حتى لا يرتابوا بأمرك، فإذا انقضى الشهر أخبرهم إنك راحلٌ إلى مصر، ثُم اِئْتِني.

فعلتُ ما أمرَني به. قضيتُ الشهر وأنا أفكّر في الهرب من تونس كلها حقًّا، وألا أعود إليه، لكن كلما مر يوم اطمئنَّ قلبي، وقلت لو كان الرجل يريد بي شرًّا، لوصل إليَّ مَن يبحثون عني بعدما خرجتُ من بيته.

أصبحتُ أذهب إلى الدكان فلا أعملُ شيئًا، حتى تذمرَت درصاف من تكاسلي، أخبرتُها بعزمي على السفر، فحزِنَت، وكان حزنُها أنها خسرَت أجيرًا ثمنُه بخس.

في الموعد المُحدد كنتُ أمام باب مراد، كان بيته فسيحًا بهيًّا يخبر عن فُحش الثراء، ولم يكُن معه بالبيت إلا خادمته، التي عرفت بعد ذلك أنها حفيدته، هاجرَ أبوها بعد موت أُمها مع زوجته الجديدة إلى إسرائيل، وبقيت البنت مع جدّها. «سوار» كان اسمها، لكنه سوار صَدِئ، فملابسها لا تُخبر أنها حفيدة ذاك الثريّ، حتى إني ظننتها الخادمة أول الأمر لهيئتها المتواضعة.

رقّ مراد لحالي واجتَبَاني وأحسن إليَّ، كما لم يحسن إليَّ أحدٌ من قبل، كنت أدرك أنَّ له غاية لم يكشف عنها، لكنني لم أشعر بالخوف ولم أظن فيه السوء، فما الذي سيعود على هذا العجوز من إيذائي؟! لم أسأله عن سرّ عطفه عليَّ، وقلتُ يومًا سيخبرني من تلقاء نفسه ولا شك. أصبح يقضي أغلب اليوم معي، وعندما يأتي موعد نومه تدفعه سوار على كرسيه إلى المصعد الداخلي، وتذهب به إلى غرفته. كانت غرفتي في الطابق الأول، ولم أحاول قط أنْ أصعد إلى الطابق الثاني، أول مرة صعدتُ إليه كان في يوم خرجَت فيه سوار إلى السوق وتأخرت، وكان مراد مُجهدًا، فقال: «تأخرت سوار، وإني مُجهَد، فخذني إلى غرفتي». أسعدني أنه أعطاني مكانة سوار، ولو في أمر بسيط مثل تكليفي بأخذِه لغرفته. كان بالطابق الثاني خمسُ غرفات، على اليمين غرفتان مُغلقتان، أخبرني مراد إنَّ الأولى كانت غرفة ابنه المُهاجر «يوسف»، والدُ سوار، والثانية لابنته الميتة «فهرية»، وعلى اليسار كانت غرفة سوار ثُم غرفته، وعلى رأس الطُّرقة غرفة خامسة، قال هذه غرفة ذكرياتي، فلم أسأله عن تلك الذكريات، ولا هو أخبرني بها.

مرت ثلاثة أسابيع وأنا ببيته لم أغادره قط، دون أنْ يُخبرني عن أمري الذي قال إنه سيدبره، ولم أسأله عنه، حتى أخبرني بذلك، حين قال: «كان لابنتي فهرية ولدٌ اسمه «يونان»، وقد مات معها عندما سقطَت سيارتها عن الجبل حين كُنا بفرنسا منذ ثلاثين سنة، الناس هنا يعرفون فهرية ويعرفون بموتها، لكنهم لا يعرفون أنَّ لها ولدًا، وقطعًا لا يعرفون بموته. سأعطيكَ اسمه، وسأجعل لك أوراقًا تنسبك إليَّ».

أصبحتُ «يونان». يونان بن موسى بن شاول اليمني، ابن فهرية بنت مراد بن يوشع اليمني. لو كان يونان حيًّا لكان

وفقًا لرواية جدّه في الأربعين من عمره، ووجهي وجه ابن الأربعين، فلن يرتاب أحدٌ من الناس في أمري، يمكن للخدعة أنْ تَمُر. ما كان يقلقني حقًّا هو موقف سوار، هل ستقبل بهذا الغريب الذي أصبح في ليلة وضحاها ابن عمتها، وشريكًا لها في قلب جدها، وربما لو مات مراد لأصبح الغريب شريكًا في ميراثه أيضًا، كيف تقبل سوار بهذا؟! لا أريد إفساد الحياة على هذا البيت الطيب، لم أحتمل هذه الوساوس في قلبي، فسألتُ مراد:

- ماذا ستقول سوار وقد شاركتُها فيما ليس لي؟

- سوار زاهدة في كل شيء، وقد أخبرتُها بكل ذلك قبل أنْ أتحدث معك في الأمر، وقد قَبِلَت ما قررتُه.

- ربما قبلته وهي كارهة له، إرضاءً لك.

- أنا أعلم بها منك، سوار قلبها نقي تحب الخير لكل الناس. وإنْ شئتَ أنْ ترد الجميل فاحفظ وصيتي: «إنْ أصابني الموت بسهمه فهي أمانتُكَ، اِرْعَها كما كان جدّها يفعل».

فقبّلتُ رأسه، وقلتُ:

- أفعَل.

صَفت نفسي في بيت مراد بن يوشع، وزالت مخاوفي، لأول مرة أحسُّ أني آمنٌ، لا لأنني أصبحتُ أحمل اسمًا جديدًا، ولا لأني صرتُ بعيدًا عن يدِ مَن يطلبونني، لكن لأنَّ لي أهلًا، حتى لو كانوا أهلًا مُنتَحَلين، منحني مراد قلبَ والدٍ حُرمت منه، فأحببتُه وأحبَّني. كثيرًا ما كنتُ أسأل نفسي، ما الذي جعله يخاطر بأمرٍ كهذا؟ وهو يدرك أنَّ اليهود الذين يبحثون عني لو علموا بفعلته لقتلوه، وإذا لم يعلموا وعلم الناس هنا بما فعل، لقضى سنواته القليلة الباقية في السجون، لم أجد جوابًا لحيرتي، وقلتُ لعله فعل هذا لنفسه قبل أنْ يفعله لأجلي، ربما دفعته وحدته لأنْ يجتبيني ليأنس بي، وربما فعل ذلك ليخدع نفسه بأنَّ حفيده لم يَمُت، وأنَّ لابنته ولدًا يعوضه غيابها، أو لعله فعل هذا حتى لا يترك سوار وحيدة بعد موته، فاختلق لها ابن عمة يرعاها من بعده، مثلما أخبرني بنفسه، وأيًّا كان السبب، فقد أصبحت لي حياة بينهما، لم أذق مثلها منذ موت أمي.

سوار كانت تتجنبني ونادرًا ما تتكلم معي، إما أنها ترعى شؤون المنزل وإما تنشغل بقراءة كتابٍ، لم أرَ أحدًا يقرأ أكثر منها، حتى إنَّ كل ما كان بحوزتي من كتبٍ في أثناء تجارتي في المُكنين لا يساوي خُمسَ مكتبتها، ورغم أنها لم تُسِئ إليَّ قط، فإنَّ نفسي لا ترتاح أمام صمتها المُطبِق الذي تتلفَّح به على الدوام، سكوتها يصنع الرهبة في نفسي وشيئًا من الريبة، ورغم ما قاله مراد من أنها تعرف تدبيره وترتضيه، فإنني أردت أنْ أستوثق من هذا بنفسي، ولم أستطع ذلك أمام صمتها الطويل. حاولتُ كثيرًا أنْ أتقرب إليها، عرضتُ عليها أنْ أساعدها في تنظيف المنزل؛ إذ لم تكُن هناك خادمة في البيت رغم ثراء أهله، فرفضت. قلت لها: «أساعدكِ في مطبخكِ». فأبَت. فقلت: «لا بأس، فلأخرج أنا إلى السوق بدلًا عنك، واستريحي أنتِ»، فوافقت. ليتها رفضت عرض السوق، فقد كنت دائمَ الخلط بين «المعدنوس» و«القزبر»، وكان طعامها لا يخلو من أحدهما، إذا طلَبَت الأول جئتُها بالثاني، وإنْ كان الثاني مطلبها أتيتُها بالأول، لما كَثُرت عثراتي ضحكَت مني وقالت:

- لا خير في الرجال، ولا نفع بهم، كل مرة تأتيني بغير الذي طلبته منك.

- بل لا خير في «المعدنوس والقزبر»، كلٌّ منهما يشبه الآخر، فيختلط الأمر حتى على الشيطان.

- إذًا اِلزم البيت، ولا تخرج للشراء أيها الشيطان الأبله.

كانت سخريتها مني، أحبَّ شيءٍ إلى قلبي منذ دخلت بيتهم، شيءٌ من الجليد ذَوَّبَته المُخالطة، أنا أعلمُ الناس أنَّ الوحدة

ثقيلة حتى على المعتزِل بإرادته، وربما لأجل هذا سمحَت لي سوار بمشاركة وحدتها. سألتني مرة عن حياتي باليمن الذي لم تزره قط، رغم أنَّ أهلها ينحدرون من أرضه، فأسهبتُ لها بحكايات طفولتي، قصصتُ عليها ذكرياتي في قرية الجدس، وكلمتُها عن مُعلمي داوود وكيف قتلوه، ثُم حكيتُ لها عن طفولتي الأولى في غرفة القليس، وقصصتُ عليها حلمي العجيب، والدينين اللذين لا أدري إلى أيهما أنتسب، أردتُ أنْ تشاركني حيرتي كما شاركتُها وحدتَها، فسألتُها:

- ماذا يصنع صاحب الدينين يا سوار؟ إنْ أقررتُ بأنَّ أحدهما حقٌّ كان لزامًا عليَّ أنْ أكفر بالآخر، فأخون أحد والديّ.

- لماذا تحبُّ أنْ تكون أعور؟ وقد منحكَ الله دونَ كل الناس عينيْن للحقيقة، أنتَ ترى الرقعة كاملة، بينما نحن لا نرى إلا يمينها أو يسارها.

- ظلَمتني أمي يا سوار حين تزوجت برجل من غير ملَّتها، فجعلتني شجرة مُشتتة بين جذرين يتنازعان.

- بل زادتكَ خصوبة ونماءً، عَشِقَت أباك وقاتلَت عن حبّها، نِعمَ المرأةُ أمُّك.

كَثُرت جلساتنا وحكايات الألم التي جمعت بيننا، نقضي أغلب الوقت معًا، تسألني عن تفاصيل حكاياتي إنْ أنا سَكت، وتسقيني بالأمل إنْ تشقَّقَت باليأس روحي، سألتها: «هل تصدقين أني مكثتُ في رحم أمي سنتين وسبعة أشهر؟». فقالت: «لستُ مؤمنة بمعجزات الرب، لكنني أثق بمعجزات العشق». شغفتها حكاياتي وتجاربي كلها، الحكاية الوحيدة التي لم تشغفها هي أيامي بإسرائيل، عرفتُ بعد ذلك أنها تكرهها وتكره كل ما يرتبط بها، هِجرة أبيها كانت قاسية على نفسها، تراه خائنًا لذكرى أُمها، لا تتصل به أبدًا ولا تقبل أنْ يتصل بها، لعلها لهذا أحبَّت أمي التي ظلت وفيّة لأبي بعد موته، لم أُحدّثها عن أروى، تعمدت هذا، ولا أدري لماذا، لكنني حدّثتها عن عزلة الجبل، فأحبّت كلبي غُلام، وقالت: «أنت محظوظ بوفاء كلبك، الرجال محظوظون دومًا بمَن يفي لهم، رغم أنَّهم أكثر الكائنات غدرًا». أيقنتُ أنَّ لسوار قصةً، ولما اكتملت ثقتها بي عرفتُ أنها قصصٌ كثيرة، لا قصة واحدة، وأدركتُ أنَّ كثرة الغدرات هي التي أسلمتها للحزن الصَمُوت. صفَت لي سوار، وصفوت لها، وحنّ الحزنُ على الحزنِ، فتآلفت أرواحنا.

وفَّى مراد بما وعد، فاستطاع أنْ يدبر لي أوراقًا رسمية تثبت هُويتي الجديدة، وكلها حقيقية غير مزورة، ولا أدري كيف فعلها بهذه السرعة، ربما كانت له صلاتٌ قوية ببعض العاملين في البلديات، أو قدم لهم بعض الرِشَا فأتموا الأمر، وأيًّا كان ما فعل، فقد أصبح لي خلال أسابيع معدودة بطاقة هُوية رسمية، وجواز سفر تونسي، باسم يونان. طلبتُ منه ومن سوار أنْ يُنادِيَاني داخل البيت باسم حسّون، وليكُن يونان للغرباء. ثُم رأيتُ أني مجحفٌ فيما طلبت؛ إذ لم أسمح لذكريات مراد بحق التنفس، كان مثلي، يبحث عن راحة زائفة، وأمان كاذب، وإحياء ذكراه الميتة، أخبرته بعد ذلك إني تعودت على اسم يونان، وطلبت منه أنْ يناديني به، فأشرَق وجهُه ببسمة أضاءت قلبي. سألته أنْ يساعدني في الحصول على عمل، فقد كرهتُ أنْ أظل عالة عليهم، رفض ما سألته وقال: «الاختلاط يُكثِرُ الكلام، وأخاف أنْ ينكشِف أمرك، يهود جربة لا يزيد عددهم على الألف، وسيكون ظهُورك حكاية يلوكونها بألسنتهم إنْ كَثُرت مخالطتك لهم، فاكمُن حتى نرى بماذا ستأتي الأيام». وذات يوم طلبت منه أنْ أذهب إلى المعبد، فقال: «لا بأس، لكن لا تقصد المعبد الصغير، اذهب لمعبد الغريبة فهو معبد يقصده اليهود الغرباء عن تونس من كل العالم، ولن يسألك أحد من أين جئت». لم أكُن أعرف سر هذا المعبد الذي يقصده اليهود ويحجّون إليه، وعرفت بعد ذلك أنهم يحجون إليه لأنَّ به واحدة من أقدم نسخ التوراة، لكن لم أعرف لماذا اسمه الغريبة! سألتُ سوار عنه فأخبرتني إنَّ طفلة غريبة جاءت من فلسطين في زمن «السَبي» إلى جربة، فنبذها اليهود الذين كانوا يعيشون هنا في الزمن القديم، وماتت وحيدة جائعة بأحد الطُرق، فندموا على فعلتهم وبنوا المعبد على رفاتها، وسمُّوه الغريبة، فسألتها: «وهل كان هناك يهود بتونس في هذا الزمن السحيق؟!». أجابتني: «لا أظن، لكن هكذا يقول أغلب يهود جربة، وهناك مَن يقول إنَّ به صخرة من الهيكل جاء بها حاخام مبارك من فلسطين، ولأنها صخرة غريبة

عن تلك الأرض سمُّوه بهذا الاسم «الغريبة»، وآخرون يقولون لأنَّ به أقدم نسخة للتوراة، وأيًّا كان سبب تسميتهم له فإنهم يجنون منه المنافع، الأساطيرُ مفيدة دائمًا، ولولاها لما أصبح المعبد قِبلة اليهود من كل الدنيا، يحّجون إليه فتَكثُر العطايا بجيوب الحاخامات كل عام». لم يكُن المعبد بعيدًا عن حي (الحارة الكبيرة) فذهبتُ إليه مع سوار مَشيًا على الأقدام، وكانت دليلي داخل المعبد، أوقدنا الشموع وجاءت سوار بِبيضتيْن وقالت: «اكتب أُمنية على هذه البيضة». لم أجد ما أكتبه غير «دُلّني على نفسي» ووضعتُ البيضة حيث أشارت لي، ثُم قلت لها:

- ها أنتِ تؤمنين بمعجزات الرب، وتضعين أمنياتكِ على بيضة!

- لا، لست مؤمنة بشيء، لكن تقليد ما يألَفه الناس يريحك من العناء، كما أنَّ الأمنيات جديرة بأنْ تفعل لأجلها حتى الأشياء التي لا تؤمنُ بها.

- وماذا كتبتِ على بيضتك؟

- إنْ تحققت أُمنيتي سأخبركَ بها حينئذ. وماذا كتبتَ أنت؟

- إذا تحققت أُمنيتي فستعرفينها بنفسك، ولا أظن أنَّ هذا سيحدث، أُمنياتي لا تتحقق أبدًا.

خرجنا من المعبد، وذهبنا إلى أحد المقاهي، جلسنا وقتًا طويلًا نثرثر ونضحك، كفارغين لا يجدان حديثًا، ضحكة سوار صافية، ونادرة، شعرت بالفرح حين منحتُها شيئًا من السعادة، وأصبح كل يوم يقربني إليها أكثر، وأيقنت بكلام جدّها، أنَّ لها قلبًا صافيًا يحب الخير لكل الناس، وأنها غير ناقمة على ما فعله معي.

البيت، السوق، المعبد، لا جديد في حياتي، ولا شيء أفعله، ربما لو بقيت في المُكنين لما كان حالي أشد سوءًا من هنا، على الأقل كانت لي حياة أنشغِل فيها بالعمل، سواء في تجارة الكتب، أو في دكان درصاف، حتى إني هنا أقرب لمَن يبحثون عني، في المُكنين لم يكُن هناك أي إنسان يعلم أني يهودي، غير وسيلة التي أخبرتها بنفسي، لا شك أنني كنت هناك آمنًا أكثر ألف مرة من وجودي في جربة، ومع ذلك لم أفكر في العودة إلى المُكنين، فإنْ كانت أيامي هنا تتشابه كلها، وإنْ كنت لا أجد ما أشغل به نفسي، إلا أنَّ سوار وجدّها أصبحا أحبَّ الناس إلى قلبي، ووجدت بينهما ما أنا على استعداد لأنْ أركب الخطر ولا أُضحِّي به.

خمس سنوات قضيتها في جربة، وفي العام الخامس أصبحتُ أقضي أغلب الوقت بجوار مراد بعدما أصابه المرض الذي لم تحتمله شيخوخته، وألزمَه غرفته فما عاد يتركها، يستيقظ فيراني أمامه، ويغفو فأظل إلى جواره، يطلع الصباح فأخاف أنْ أفقده في الليل، ويدخل الليل فأخاف أنْ أفقده في الصباح، تحسّنت صحته يومًا واسترد شيئًا من قوته، فجمعنا إليه وقرر أنْ يكتب وصيته، بكت سوار وأصرت ألا يفعل، وهي تمنيه بطول العمر والبقاء، لكنه أصر على كتابتها، خضعنا لرغبته، واشترطتُ عليه ألا يكتب لي أي شيء في وصيته، ثُم علمت من سوار بعد موته، أنه بالفعل كان قد هيَّأ نفسه لحسم ميراثه من قبل أنْ يجمعنا، وأنَّ الوصية كانت لجعل بيتٍ قديمٍ له وقفًا على المعبد، والتبرع بعشرة آلاف دينار لبعض الجمعيات، أما ممتلكاته وأمواله فقد كتبَها كلها باسم سوار، لكنه اقتطع جزءًا كبيرًا من المال وأودعَه أحد البنوك باسمي، ولم يجعل لابنه المُهاجر دينارًا واحدًا. عرفتُ بالمبلغ الذي جعله لي بعد موته، وكان كبيرًا جدًّا، حتى إني لا أعرف ماذا يمكن أنْ أفعل بهذه الثروة، لم يكُن يعوزوني المال ولا أكترث به، كان يشغلني فقط ألا تتركني سوار هي الأخرى بالهجر، كما تركني جَدّها بالموت، لكنها أصبحت لا تطيق تونس وليس فيها جدّها، وقررت الهجرة إلى أوروبا، إلا أنني لم أستسلم لقرارها، كان جدّها يظن أني سأحميها من بعده، ولا يعلم أنها هي مَن صارت قلعتي وأماني، قلتُ لها: «أتتركينني للعالم ولست أعرف فيه إلا وجهكِ ولا أطمئن إلا لقلبكِ، ماذا أصنع في غربتي إنْ خذلتِني أنتِ يا سوار؟!». ظننتُ أنها لن تستجيب لضعفي، لكنها لم

تخذلني، حنّت على وجيعتي، وقالت: «لن أتركك لآخر نَفَس في صدري». ثُم عانقَتني كأُمٍّ، وأمِنتُ بين ذراعيها مثل ابنٍ.

بعد موت مراد أصبحت الحياة لا تُطاق، لا في البيت ولا في جربة كلها، كل شيء يذكرنا أننا فقدنا الجدار الذي كانت تستند إليه أَظْهُرنا، قررنا الرحيل عن جربة، عرضَ علينا بعض الناس شراء البيت، لكن سوار رفضت، وحين نصحتها بالبيع قالت: «مَن يدري، لعلنا نعود إلى منزل أحبابنا إنْ ضاقت بنا الدنيا». استجبت لقرارها، وتذكّرت أمي التي رفضت أنْ تبيع بيتنا في غرقة القليس، وقضت عمرها وهي تظن أننا يومًا سنعود إليه، لكننا قط لم نَعُد. تشاورنا كثيرًا إلى أين يمكن أنْ نذهب، واستقر رأينا على تونس العاصمة، اشترينا بيتًا كبيرًا هناك، تقاسمنا دفع ثمنه معًا، وأثثته سوار بالقليل من المتاع، سألتها: «هل سيأتي يوم وتندمين على مشاركة حسّون التعيس هذه الحياة؟». فقالت: «التعاسة هي ما تجمعنا، وإلى الأبد».

لم أرَ في سوار حبيبة، ولا هي رأت، كان الأمر أبلغ حتى من الحب وأجمل، كُنا صديقين بغير غاية، جمع التيه بين يهوديّيْن، كلٌّ منهما لا يعرف غايته، ولا يقتنع كثيرًا بما وجد عليه نفسه، ورغم السنوات الخمس التي قضيناها معًا في جربة، فإنها لم تخبرني قط بتفاصيل الخيبات التي مرت بها، دومًا تُجمل ولا تفصّل، فلما أخبرتني بها عرفت لماذا كانت تكره إسرائيل، ولا تحب أنْ تستمع إلى حكاياتي عن أيامي فيها، لم تكُن تبغضها فقط لأنَّ أباها هجرها إليها، لكن لأنَّ حبيبها أيضًا تركها وذهب إلى إسرائيل دون أنْ يُخبرها، تركها بجنينها تأكلُهما الغَدرة، فأجهضت الجنين من رحمها، وأجهضت أباه من قلبها، ثُم رحلت صفيّتها وصديقتها الوحيدة هي الأخرى إلى إسرائيل، فلم تتخذ بعدها صاحبًا ولا صاحبة. بعدما قصَّت عليَّ كل شيء، قالت لي: «كأنَّ الله خلق هذا البلد ليختطف كلَّ من يسكنون قلبي».

تونس كانت أكثر أمانًا من جربة؛ إذ لم ينتبه الناس إلينا في مسكننا الجديد، لا أحد يكترث لأحد في هذه المدينة، وربما ظن مَن يعيشون بالجوار أننا زوجين، تمسكنا بالعزلة وجعلنا منها سياجًا آمنًا، يمسك كل منَّا بيد صاحبه، يجمعنا الخوف والرجاء، لكن لا كما يجتمع رجل وامرأة، يومًا سألتني سوار: «لماذا لا تتزوج؟». كنت أعرف أنها لا تقصد دفعي للزواج، بل تخاف أنْ أكون عازفًا عنه مراعاةً لها، فدفعتُ ظنونَها وقلت: «لا حاجة بي للزواج، ثُم بِمَن سأتزوج؟ مِن يهودية؟ فهل تقبل بنصفي المُسلم؟ أم مِن مُسلمة؟ وكيف تقبل توراتي؟ وعلى أي دين سيكون أبنائي؟ إذا كان أبوهم لم يحسِم أمرَه بعد، فكيف يحسمه الأبناء؟! أنا أعرف لماذا تسألينني عن الزواج يا سوار، اعلمي أنه لو كان أحدنا يحمل صاحبه ويحتمله فهو أنتِ، ولو أنَّ أحدنا يدين للآخر فهو أنا». فأمسكت يدي وقالت: «أنا هنا بحبّ، وسأظل».

سوار كانت علمانية، تؤمن أنَّ الدين عَلاقة بين طرفين، ولا يحق لأحدٍ أنْ يتدخل فيها، تؤمن باليهودية ويرفض عقلها الكثير من حكايات التوراة وملاحم الأنبياء، ولم تكُن لديها أي ضغينة ضد دين من الأديان، تحترم انتسابي لأبي وتعرف أنَّ نصفي ما زال مسلمًا، فلم تذكر الإسلام بسوء أمامي قط، الحقيقة أنها لم تكُن تذكره لا بشرٍّ ولا بخير، كُنا نتمشَّى في شارع «الحبيب بورقيبة» عندما تحدثنا معًا لأول مرة عن الإسلام، رأيتُ لافتة تُعلن عن رحلة للحج، وقفتُ أمامها دقيقة، وشعرتُ حنينًا لزيارة «البيت الحرام» لم أعرف مَبعثه، وهو الأمر الذي لم يخطر ببالي من قبل، سألتني سوار ساخرة: «أتفكّر في الحج يا شيخ حسّون؟!». لم أضحك لدعابتها، وقلت: «نعم». فتغيرت نبرتها من الهزل إلى الجد وقالت: «وهل تفتح مطاراتُ مكَّة أبوابَها لرجلٍ اسمه يونان بن موسى بن شاول؟!». آلمتني كلماتها ولم أجد ما أجيبها به، عندما عدنا إلى البيت جلستُ صامتًا، وعادت سوار تنكأ جرحي بأسئلة جديدة:

- كيف تحنُّ للحج، ولم أرَكَ تُصلّي كما يُصلي المسلمون، طيلة الخمس السنوات التي قضيناها معًا؟!

- أُصلّي في غرفتي، وأحيانًا أنقطع عن الصلاة، لكنني دومًا أعود إليها، فقد كانت وَصَاةُ أمي على الدوام: «لا تَخُن أباك»، وكلما نسيتُ العهد عدتُ إليه.

- وتحبُّ هذه الصلاة؟

- تعودت عليها.

- وماذا عن صلاة اليهود؟

- تذكّرني بأمي.

- أسألك عن الصلاة ذاتها، تحبّها؟

- لا أعرف، فقط أُصلّي، لله أو ليَهْوَهْ، وإذا شعرتُ الراحة علمتُ أنَّ الباب مفتوحٌ ولم يُغلَق بوجهي.

- أنت طيب يا حسّون، ومسكين.

- مسكين نعم، لكن لا أظنني طيبًا.

اعتذَرَت لي عن أسئلتها، ثُم قالت كأنها تريد تطييب خاطري: «اقرأ عليَّ شيئًا من القرآن». فقرأتُ عليها فاتحة الكتاب، فلما وصلتُ إلى خاتمتها «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» سألتني بوجهٍ غير راضٍ:

- أنا أعرف جيدًا هذه السورة، حتى إني كنت أحفظها عندما كنت في المدرسة، هل تعرف مَن هم المغضوب عليهم أم أخبرك أنا؟

- نحن يا سوار.

هزّت رأسها بتوتر، وقالت:

- ولماذا وصَمَنا القرآن بغضبِ الرب علينا؟!

- لا أعرف.

- إذن أنت لا تعرف عن دين أبيك شيئًا، ومع ذلك تُصلي وتريد أنْ تحج، كم أتعجب من تعصّب الناس لدين لا يعرفون عنه شيئًا.

- أنا أعرف الكثير عن الإسلام، حتى إني كنتُ أحفظ القرآن كله، لكن لم أستطع أنْ أفهم لماذا يلعن الله اليهود!

- الله أم محمد؟!

- الله أنزل القرآن على محمد، لا فرق.

- أعتقد أنَّ هناك فرقًا، أنا لا أحب التحدّث كثيرًا في الأديان لكنني أعرف الكثير عنها، وأحترم حق الجميع في تحديد قناعته، لكن هناك مشكلة فعلًا، صنعت هذا العداء بين المسلمين واليهود، لو أنَّ اليهود كانوا لا يعيشون في المدينة في زمن محمد، فهل كان سيلعنهم؟! أنت يهوديّ فهل ترى في عقيدتنا ما يستحق اللعن؟!

- لا أظن أنَّ العداء كان لأجل العقيدة، فإنَّ الله واحد هنا وهناك، حتى إنه لا يوجد بين التوراة والقرآن أي فارق في جوهر الإيمان، لكن اليهود حاربوا محمدًا، وحاربهم، وفي النهاية نبذهم من مدينته.

- إذن كانت المعركة سياسية، والمنتصر يحصل على الأرض. فلماذا كان لعن العقائدِ حتى بعد انتهاء المعركة وموت

أصحابها؟ إذا كان الله واحدًا هنا وهناك كما تقول، وإذا كان الإسلام لا يكترث إلا لتوحيد الرب والإيمان به، فلماذا يرانا المسلمون مغضوبًا علينا إلى اليوم، ونحن لم نخالف عقيدتهم في كثيرٍ ولا قليل؟ لماذا ترونَنا كفّارًا يا حسّون؟

- لا تنسَي إنني مثلكِ يهوديّ، أو نصفي على الأقل، الإسلامُ لا يراهم كفّارًا لأنهم أشركوا مع الله غيره كالنصارى، إنه يكفّرهم لأجل قسوتهم وجحودهم يا سوار، كُفر الفعل وليس الاعتقاد، كانوا يعادون محمدًا أشد العداء ولا يؤمنون به، رغم أنه جاء برسالة توافق ما هم عليه، فحكَمَ بكفرهم.

- إذًا أنتَ تعتنق دينًا يحكم بكفرك أو كفر نصفك على الأقل، ولا أدري كيف تتصالح مع الأمر! وعلى أي حال وعن نفسي، أنا لم أُسِئ إلى إنسان قط، بينما أساء إليَّ الجميع، فلم تمتد يدي بانتقام، ولم أكره أحدًا من الناس، ولا حكمتُ على دين أحد، فعن أي قسوة وجحود تحدّثني يا حسّون؟ وهل المسلمون هم الطيّبون لمجرد أنهم آمنوا بمحمد؟! ألم يكونوا أكثر جحودًا من أجدادنا وسفكًا للدماء؟ هل تحبُّ أنْ أحدّثك عن بلاد العرب؟ ما رأيك أنْ أُكلمك عما فعلَه أهل العراق ببعضهم، أم تُفضل أنْ أحدثك عن سورية؟ بل دعني أذكر لك ما رأيته بنفسي منذ سنوات قليلة، عندما كان يهربُ أهل الجزائر إلينا في تونس فزَعًا من القتل، جدّي مراد، ذاكَ المغضوب عليه، كان يفتح لهم بيته عندما لم يجدوا مأوى، خلال عشر سنوات قتلَ فيها بعضُهم بعضًا، مئات الآلاف قُتلوا، لم يقتلهم اليهود، بل قتلوا أنفسهم بأيديهم، لكنهم مسلمون وُدَعَاء طيبون وسيدخلون الجنة، حتى لو ارتكبوا الشنائع كلها، فقط لأنهم يؤمنون بمحمد! أما أنا وجدّي فمغضوبٌ علينا حتى لو لم نؤذِ بعوضة في الأرض، ولن يشفع لنا إيماننا بالرسالة لأننا لا نُقر بهذا الرسول! على ربك أنْ يراجع موقفه يا حسّون، فلسنا بهذا السوء، أو على الأقل لسنا جميعًا.

كانت سوار غاضبة كما لم أرها من قبل، قد آلمتُها عندما ذكرتُ لها غضب الله على اليهود، رغم أني في النهاية يهوديٌّ مثلها، لم أقصد إيذاءها ولا أردته، وربما ردَّت سوار إيذائي لها دون أنْ تدري، فقد صفعتني كلماتها وحيّرتني أسئلتها لسنوات طوال، وكأني كنت بحاجة لمزيد من الحيرة!

لم نتطرق بعد هذه الليلة الثقيلة إلى الحديث، لا عن اليهودية ولا الإسلام، غير أني أصبحتُ أُردد أسئلتها في نفسي كثيرًا، حقًّا لماذا حكم القرآن بكفر اليهود؟ هل لأنهم جاحدون وقتلَة أنبياء كما يقول القرآن؟ إنَّ أمي لم تقتل نبيًّا، وإنَّ سوار لم تسجد «لملوخ» ولا هي عبدَت «عجل السامريّ»، فهل نُحاسَب على جرائم لم نقترفها؟ فأين هذا من قوله «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»؟! هل هو كفر العقيدة؟ لكن قوم أمي لم يشركوا بالله أحدًا، حتى قصة «عُزير» التي ذكرها القرآن: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ»، لم أجد سِفرًا واحدًا من أسفار التوراة ذكَرَها، وما مِن آيةٍ واحدة ذكَرَت أنَّ اليهود جعلوا لله ولدًا! فلماذا نسب القرآن لهم ما لم تَقُل به التوراة ولا قال به اليهود؟! ولماذا حقًّا تكون أمي كافرة، وعقيدةُ اليهود هي ذاتها عقيدةُ المسلمين، هل لأنهم لم يؤمنوا بمحمد؟ لكنهم مؤمنون بكل ما جاء به، حتى من قبل أنْ يأتِيَ به. ما القضية التي خلقت الصراع، الرسول أم الرسالة؟ وأيهما الأحق بالإيمان؟ إذا كنتُ مؤمِنًا بكل ما تقوله الرسالة وأعتقِدُه، فهل أكونُ كافِرًا فقط لأني رفضتُ الرسول، أليس الرسول مرسلًا كي يبلّغ الرسالة فقط؟ الرسولُ أم الرسالة، أيهما مُراد الرب؟ سؤالٌ غرزته سوار في عقلي دون أنْ تدري، وظلت ثمار الشوك تطرح في روحي زمنًا طويلًا، ما كنتُ بحاجة لمزيد من الريبة والضلال، دينان يصطرعان بقلبي ولا يصطلحان أبدًا، فإذا تم إيماني بأحدهما كان لزامًا أنْ أكفر بالآخر، إلى أيهما أنتمي أمي أم أبي؟ لا جواب، بقيتُ كما أنا: بَين بَين.

رغم راحتنا في تونس، فإنَّ تَشَابُه الأيام أمرضَ أرواحُنا بالسأم، مرت سنتان منذ تركنا جربة، ولا فرق بين أيامنا منذ جئنا

إلى العاصمة، قلتُ لسوار: «لا بدّ أنْ نعمل حتى لو لم نكُن بحاجة للمال». فاستجابَت، قد سئمت هي الأخرى تلك الراحة الخاملة، واقترَحَت أنْ نفتتح محلًّا نبيع فيه الذهب، فقلت لها: «أعملُ بأي شيء إلا الذهب، إنها التجارة المُرة، يمكن أنْ نفتتحَ مكتبة، قد كانت لي تجربة في تلك التجارة وأعرف عنها الكثير، وأنتِ مولعة بالقراءة وستجدين في المكتبة سعادة كبيرة». رضيَت سوار برأيي ورحَّبت به.

بحثنا عن مكان يصلح لتأسيس المكتبة، ووقع اختيارُ سوار على إحدى العمائر الجديدة في حيّ (الزياتين) فاشترينا الطابق الأرضي بكامله، وجعلنا فيه مكتبتنا. لم يكُن الحيّ غنيًّا ولا هو بالفقير، أغلب سُكّانه من الطبقة المتوسطة، وقد تعلمت من تجربتي في المُكنين أنَّ هؤلاء هم أكثر مَن يقبلون على شراء الكتب، تشاركنا في دفع ثمن المكان وتجهيز المكتبة، مثلما تشاركنا من قبل في المنزل، وتواصلنا مع كل دور النشر المحلية لتزودنا بالكتب، كما بحثنا عن وكلاء يأتوننا ببعض الكتب من خارج تونس، فأصبحت الأرفُف عامرة بكل صنوف الكتب، العربية منها والأجنبية، ثُم تشاورنا في اختيار اسم للمكتبة، فقالت سوار: «اخترتُ أنا مكان المكتبة، اختر أنت اسمًا لها». قلت: «كانت أصفى أيام حياتي حين سكنتُ الجبل، فليكن اسمُها (مكتبة الجبل)». وافقتني، وبعد شهر واحد كانت المكتبة قائمة، وعلى واجهتها لافتة كبيرة، مكتوب فوقها بخط عربي جميل: (مكتبة الجبل - تأسست سنة ٢٠٢٠).

عدتُ إلى تجارة الكتب من جديد، تخوفت من الكساد في بادئ الأمر، لكن المكتبة خالفت سوء ظني وازدحمت بالروّاد، وإنْ لم يكونوا زبائن حقيقيين، يتصفحون الكتب والعناوين، ثُم يشترون أشياء لا عَلاقة لها بالكتب، كالأقلام المُميزة والدفاتر الملونة وبعض البطاقات، قليلون مَن كانوا يشترون الكتب. حرِصَت سوار على تزويد المكتبة بتلك الأشياء التي يطلبها الزبائن وأصبحت هي المسؤولة عنها، وحرصتُ أنا على إثراء المكتبة بكل النوادر من الكتب وأصبحت المسؤول عنها، فكان زبائني يزيدون بشكل غير ملحوظ، بينما زبائن سوار تتضاعف أعدادهم كل يوم. فرحتُ أنها أحبَّت الأمر، وصارت تُحسّن من نشاطها، لتكتسب المزيد وتحافظ على ما هو موجود.

وضعنا إعلانًا نطلب فيه عِمالةً لما كَثُر الزبائن، وبعد أيام أصبح يعمل معنا بالمكتبة شابٌّ وفتاة، ساعدني الشاب في شؤون الكتب، والبنت كانت من نصيب سوار، الشاب كان اسمه «خلدون»، عمره سبع وعشرون سنة، يحبُّ الكتب وشغوفٌ بالأدب، كان كنزًا بالنسبة لي؛ إذ دلّني على كثير من المعارف والكتب المُهمّة التي كنت أجهلها، فكبرت المكتبة وصارت الأرفف حُبلى بما تحمل. ذاتَ صباح دخل المكتبة شيخٌ وقور، له وجه يدفعك لتبجيله دون إرادة منك، جالَ الشيخ في أركان المكتبة وأنا أراقبه من بعيد، يقف أمام كل كتاب يتأمل غلافه كأنه يستنطقُهُ، لا يمسك بأي كتاب، فقط يقف أمام الأغلفة ويطيلُ النظر، جاءني بعدما طال بحثه بين الكتب وقال:

- أريد كتابًا ولا أراه لديك.

- ما اسم الكتاب؟

- «كَسْرُ الجنَاحَيْن».

- لم أسمع به قط.

فهزَّ رأسه أسيفًا، وعقد يديه خلف ظهره، ومشى حتى اقتربَ من باب المكتبة، لكنه لم يخرج، رجعَ إليَّ وسألني:

- ما اسمك يا بنيّ؟

- يونان.

فتبسّم حتى انكمشَت تجاعيدُ وجهه، دون أنْ تنفرِجَ شفتاه، وقال:

- لا واللهِ، لستَ يونان!

ألقى عليَّ بهذه الصاعقة، ثُم خرج. أصابني الرعب، حدّثتُ نفسي أنه لا بدَّ ممن كانوا يبحثون عني، ولا بدَّ أنهم عرفوا حقيقتي وجاؤوا اليوم يطلبونني. لم أنَم طيلة الليل، وفكّرت في الهروب من تونس كلها من شدة الفزع، ولولا سوار وخوفي أنْ أخذلها، لما طلع عليَّ الصباح وأنا بالبيت، قلت إذا طلع النهار وأنا بخير سأخبِرُها بما حدث، وأخذتُ أُهدئ من روعي بكل سبيل، حتى لا تخور قواي، أقول لنفسي لأُطمئنها: لو كان ممن يبحثون عني لكان يهوديًّا، والرجل نصف جبهته موسومة بعلامة السجود، وغطاء رأسه الأبيض يدل على أنه مسلم، هو قطعًا ليس منهم. ثُم تذهب محاولتي سدى حين أرد على نفسي: لعله يهودي يُخفي أمره، أو مسلم يتجسس لمن أرسلوه! ثُم أعود وأقول: لكنه شيخٌ طاعن ولا يصلح مثله لهذا الأمر، لو كان ذلك كذلك، لأرسلوا شابًّا وليس هذا الشيخ الهرم. أسأل وأجيب، كادت الشكوك أنْ تُزهق روحي، قضيتُ الليلة وأنا أُصلّي لله بكل إيمان اليهود والمسلمين، وأسألهُ النجاة، وما أنْ طلع النهار حتى أيقظتُ سوار وأخبرتُها، فابتسمت وقالت: «أنت تبالغ في خوفك، ما أكثر المجانين في هذه المدينة، فلا تكترث لرجلٍ خَرِف». أصبحتُ حذِرًا أترقب كل داخلٍ للمكتبة، وانتظر قدوم الغرباء ليأخذوني، مر شهران ولم يحدث شيء، فزالت مخاوفي وقلتُ كانت سوار على حق، ونسيتُ الأمر كله.

ثلاث سنوات مضت بعد تلك الزيارة من الشيخ العجيب، أعادتني خلالها المكتبة للقراءة، أقضي كل الوقت بين الكتب، ثمَّة قسم كان للكتب الأجنبية، كنت قد نسيت ما تعلمته في المُكنين من إتقان الفرنسية والإنجليزية، فأخذت نفسي بالصبر حتى استرجعتُ ما نسيت من اللغتين، وزدتُ عليهما تعلُّم الإيطالية ثُم الإسبانية والألمانية، كانت سوار تتعجب من سرعة إتقاني لتلك اللغات، ولم أجد تفسيرًا أُقدمه لها، لكنني ومنذ طفولتي وأنا أحفظ، دومًا أحفظ بِيُسر وأفهم بالجهد الكبير، حفظتُ القرآن كله على جدّي إسماعيل، قبل أنْ أتمَّ العاشرة، وحتى التوراة حفظتُ أكثرها وأنا فوق الجبل، رغم أني لم أتعمَّد هذا قط، ثُم ها أنا وبعد مرور ثلاث سنوات فقط، أصبحتُ أتقن سبعَ لغاتٍ: عربية أبي، وعبرية أمي، وفوقهما خمسٌ من لغات الغرباء، وكلما شربتُ ماء المعرفة لأفهم، وجدته مالحًا يزيدُ عطشي، فأطلب مزيدًا من الرِّواء. صارت المكتبة عامرة بما خطَّته الأقلام باللغات السبع التي أتقنها، وما من كتابٍ فيها إلا وقرأتُه، اجتمعت لدي معارف الشرق والغرب، لكن لم يغادرني قط ذاك الشعور بأني جاهلٌ، نَكِرة. ربما لأني لم أكُن أطلبُ المعرفة ذاتها، بل كنتُ أسعى دومًا للهرب كيلا أصطدم بنفسي، أشغلُها بالقراءة في كل شيء وأي شيء، وأجتهد لملء كل الفراغات، وأخدع نفسي بأني أسعى للفهم، حتى لا أفكّر في وجودي ولا في تلك الحالة الصِفرية التي أعيشها على الدوام، أُغرِق نفسي بين دفَّات الكتب لعلها تنجيني من الغرق في الفراغ، أصنع بالقراءة قيمة مزيفة، بعدما انعدمَت قيمتي في عين ذاتي، فأنا لا انتماء لي يشدني إليه، ولا غاية عندي أسعى إليها، حياتي كلها ضبابٌ أعمى، رجلٌ جاوزَ الثمانين ولا يشيخ، ينتظر الأيام بعد الأيام، ولا يعني الزمن لي إلا دورة العقارب في الساعات، مستقبل بليد لا تتبعه صفة تميزه، وماضٍ كجملة فعلية تعددت فواعلها، وأنا المفعول به مهما تغيرت مواضع الكلمات، جملة بغيضة ظالمة، لم أكُن ولو لمرة واحدة فاعلًا فيها. بحثت طويلًا لأخرج من هذه البئر المُعطلة، فلم أجد إلا القراءة مخرجًا، المثقفون محترمون دومًا مِمن حولهم، وأنا أريد أنْ يراني الناس، ولو لمرة، فأخذتُ أقرأ وأحفظ كل ما استطعت، أشعار العرب والإسبان، عقائد الإسلام واليهودية والمسيحية، الزرادشتية وفلسفتها، البوذية وروحها، أدب العربية واللاتينية وأدب الفرنسيين والإنجليز والطليان، «حسّون يعرف؛ إذًا حسّون جديرٌ بأنْ تَرَوه»، هكذا قلتُ لنفسي، وهكذا فعلت.

أخرجتنا المكتبة من العزلة، أو على الأقل أخرجت سوار، فصارت لها صداقة مع بعض النساء والرجال من روّاد المكتبة، واعتادت أنْ تلتقي بهم في المطاعم والمقاهي، رفضتُ مرافقتها في بادئ الأمر؛ إذ كان الخوف من ظهور تفاهتي وتهافتي

يرعبني، أشعر أنَّ من ينظر في عيني سيرى الفراغ الذي بداخلي، لكنها ألحَّت عليَّ لأخرج من عزلتي بعيدًا عن البيت والمكتبة، فاستجبت لها وأصبحتُ أرافقها، أسعدني أنَّ أصدقاءها أحبوني، أو على الأقل لم يكرهوني؛ إذ كانوا دومًا يستمعون إليَّ وهم منتبهون، وأدهشني أني أمتلك ما يثير الدهشة! وكان مثارُ ذلك اتساع معارفي التي أشادوا بها في كل حوارٍ دار بيننا، فقدمتُها لهم صنوفًا بغير حجب، وفي كل مرة لا أبادر أبدًا بالكلام، حتى يسألني أحدهم عن شيء، فأفيضُ بما لدي، أفيض بوجودي المستعار، وأحشو الفراغ الذي في روحي بالامتنان الذي في أعينهم، لكن الفراغ يعود فيبتلعني كلما خلوت بنفسي، حتى أصبحت أنا مَن يطلب من سوار أنْ نلتقي بأصدقائنا، ووجدت في نفسي سعادة كلما انضمت إلينا «عثمانة»، ربما لبعض التشابه بيننا، فقد كُنا الوحيديْن اللذيْن لا يدخنان بينهم، وكانت عثمانة مثلي كثيرة الصمت، كما أننا كنا محط مزاحهم الساخر أحيانًا، لذوقنا التقليدي في الملابس، وعدم معرفتنا بأسماء الأطعمة الغريبة التي تقدمها المطاعم التي نأكل فيها، وكانت أكثرهم رقة في معاملتي، وإنْ كانت أقلهم كلامًا معي، لم تكُن تسألني عن شيء كما يفعلون، لكن تراقب وجهي، دومًا تراقب، حتى ظننتُ أنها تعرف سر وجهي وتدركُ أنَّ ملامحي كاذبات، شيخٌ، لكنه لم يَشِخْ. زالت مخاوفي عندما سأل أحدهم مرة كلًّا منا عن عمره، قالت سوار إنها في السابعة والثلاثين، وعثمانة أخبرته إنها في التاسعة والعشرين، وعندما جاء دوري لم تُمهلني سوار وأجابت عني، فقالت: «يونان ابن عمتي في الأربعين من عمره، لا تغرنّكم براءة وجهه الذي يبدو أصغر من ذلك». أحسَنَتْ إذ كذَبَت نيابةً عني، إذا أخبرتهم بعمري الحقيقي كيف يصدقون؟ وإذا صدقوني، فبأي شيءٍ أفسّر لهم أمري؟ أراحتني سوار.

تطور الأمر بيني وبين عثمانة، حتى أصبحنا نلتقي أحيانًا وحدنا دون بقية الأصدقاء، قلت لها مرة: «أحبُّ اسمكِ». تضرج وجهها خجلًا وقالت: «ذاك اسمٌ قديم، لن تجد في تونس طولها وعرضها فتاة اسمها عثمانة سواي، غفر الله لأبي لا أدري لماذا اختاره لي؟!». قلت لها: «كان لي صديق اسمه حسّون، وعلى غرابة اسمه لكنه لم يخجل منه قط، رغم أنه كان سر بلائِه». أثارت كلماتي فضولها لتعرف سرّ هذا البلاء الذي ذكرتُهُ، فاختلقتُ لها أشياء لا وجود لها، حتى لا أسترسل في فضح أمري، وإنْ كنتُ أشعر بحنين إلى التحدث معها في ذلك، ذاك الحنين الذي يجده الغريب أمام إنسان يشعر أنه آمِن، فيودُّ أنْ يلقي بكل أثقاله بين يديه، لكنني أمسكتُ فلم أبُح. تعددت لقاءاتنا، ومع كل لقاء يشتبك بيننا شيءٌ، حتى أصبح الفصام مستحيلًا، ولا أدري كيف استقرت بقلبي سريعًا، أحببتُها. فزعتُ عندما أدركت ما يدور بداخلي، لا أريد التورط في أي إنسان، سئمتُ وجيعة الفراق، لكن تدبير الرب عجيب، يسيرُ فلا يوقفه نبضُ قلبٍ ملسوع، ولا رجاء إنسان يخاف الحبّ، قضاءٌ لا يلتفت لكل الدموع التي في العيون، ولا يهتز أمام ارتعاش الأرواح الخائفة من الخذلان أو الفراق، تمَّت مشيئة الرب في الخاتمة، وربط الله بين القلبين، فكان ما أراد له أنْ يكون. لقاءات بالمكتبة ولقاءات خارجها، تلامست أيادينا، وطارت الأحلام في أفقها الوسيع، تصنع عناقًا لم يحدث، وتقول كلامًا جَبَنَتْ الشفاهُ عن نطقه، امتلأ القلب بالحب قبل أنْ يقول أحدُنا لصاحبه نصفَ كلمة عن الحب، نسير بحذر الذي لا يريد تكرار المأساة، لكن لم ينفع الخائفَ حذرُه؛ إذ كان قضائي أنْ أقعَ في العشق، أراقبُ نفسي دون حراك وهو يجتاحني، يحملني حيث شاء، يلقيني بأودية الفرح والأحزان، كنتُ أطير إليها بجناح اللهفة، لكنني لا أمتلك بوصلة تدلّني، كطائر أعمى أسكرَته نشوة الطيران الأول، والمسكين لا يدري بأي شجرة سيصطدم رأسُه، أو على أي جدار سينكسر جناحُه. كنتُ مرتبكًا على الدوام، القلبُ جسورٌ يجتاح، واللسان جبان متردد. ذات مرة قلت لها:

- هل تعرفين يا عثمانة أنكِ صديقتي الوحيدة في هذا العالم؟

- صديقتك! أحسب أنك تكذب، أنتَ تخاف أنْ تفتح الأبواب التي تجهل ما وراءها.

- لا لومَ عليَّ، فماذا يصنع من لا خبرة له بالعالم؟

- لا يحتاج الرجل إلى خبرة ليقول كلمة من قلبه، لا من لسانه.

كانت عيونها تستحثّني أكثرَ من كلماتها، نظرتُها في تلك الساعة كانت أبهى من كل مرة رأيتُها، كانت عيونها وديعة ومفعمة بالأمان، عيون بسيطة كالماء ودافئة كالحبّ، أخرَسَت نظرتُها لساني الكذّاب، وقالت للقلبِ: «تكلم أنت». فتكلم. قلتُ لها:

- أحبّك يا عثمانة.

- وأنا أعشقُكَ يا يونان. هل كنتَ تحتاج أنْ تصل إلى نهاية العالم حتى تنطقها أيها المتردد الخوَّاف؟!

ضَحِكَت هي، وحزنتُ أنا. قلت لها:

- إنَّ المتاريس تسدُّ كل الطرق يا عثمانة، فأنا أكبر منك كثيرًا.

- ليس كثيرًا، أنا في التاسعة والعشرين وأنت في الأربعين، إحدى عشرة سنة فقط، وهذا يناسبني جدًّا.

ما كنتُ أستطيع أنْ أخبرُها حقيقة عمري، وإذا أخبرتُها فهي أبدًا لن تصدقني، تركتُها على ظنها، نلتقي على الدوام دون أنْ نسأل ذاك السؤال المؤلم: ماذا بعد؟ لم نتحدّث قط في الزواج، فهي تعلم أني يهوديّ، ولا يزوج المسلمون بناتهم لليهود.

أصبحَ الأمرُ ثقيلًا على نفسي، الهوى يدفعني، والواقع يكبحني، وأنا بينهما صريع لا قوة لي، أمرضني الشوق، فلزمتُ البيت ولم أخرج للمكتبة أسبوعًا كاملًا، وعندما علمت عثمانة من سوار بمرضي، جاءت إلى البيت ملهوفة تزورني. كانت أول مرة تدخل بيتي، جلسنا متقاربيْن بغير كلام، حتى قطعت عثمانةُ الصمت وسألتني:

- ماذا بكَ؟

- أنتِ.

- إذًا شفاكَ الله مني.

- بل لا نجاني الله من عينيكِ أبدًا يا عثمانة.

- ما قيمة وجودي وقد أربكتُ حياتكَ، وها أنا أمرضتُك، أخشى عليكَ الشقاء من هذا الحب.

- لكنني لا أخشاه، كنتُ ميتًا، فجئتِني أنتِ وبين يديكِ الحياة.

- إذًا قُم لأجلي، فأنا أريدك.

تعانقنا، وقبَّلتُها حتى ذابت الأرواح بين الشفتيْن، مسح ريقُها عن قلبي كل الشقاء، كأنني لم أذُق من قبلُ عناء، حررت جسدها برفقٍ من بين يديّ، وأطالت النظر بعيني وقالت:

- تزوجني يا يونان، فأنا لن أكون إلا لك.

- وهل يقبلُ أهلكِ بيهودي!

- أنا أقبل.

أُسقِط في يدي، تسبقني عثمانة دومًا بخطوة، وتمتلك شجاعةً لم أمتلكها يومًا، لا أدري ماذا يمكن أنْ أفعل بعدما عرضت الزواج بنفسها، لن يكون الأمر سهلًا، حتى وإنْ كان زواج مسلمة برجل على غير دينها غير مُجَرم في تونس، بعدما أباحت قوانينهم الجديدة ذلك، لكن ما زال للدين سطوتُه هنا، وإنْ غلَبَ القانونُ في العلن، فإنَّ الدين يغلبُه في الخفاء. لم أستطع أنْ أعلن أمامها أو أخبرَ أهلها، إني مُسلم أبًا عن جدّ، أو على الأقل نصفي، ستكون المغامرة كبيرة، والثمن أليم، إنْ

عرف الناس حقيقتي. استشرتُ سوار فحذرتني وقالت: «إياكَ أنْ تفعل، لو علم الناس بهذا لأدرك الجميع أنك لست يونان، وطاردتك الدولة بتهمة الانتحال، وطاردك من كانوا يبحثون عنك منذ سنوات». فسكتُّ ولم أخبر عثمانة ولا أهلها.

رفضت أسرتها، وقاتلت عثمانة عن حبنا ببسالة، حتى تزوجنا رغمًا عن أهلها بقوة القانون، لكن بقيَ في قلبها شيءٌ يحول بيننا، فلم يجمعنا فراشٌ، الدينُ في قلبها لا يزال يصرخ بها ألا تفعل، وأنا أدرك ما تفعله يدُ الدين في القلبِ المتردد، سألتُها:

- تحبينني يا عثمانة؟

- أحبّك بروحي ودمي وعظامي.

- لكنك مترددة، تخافين لقاء جسدك بيهودي.

أطرقَت ودمعَت عيونها. فمسحت عيونها بيدي، وقلتُ لها:

- سأخبركِ أعظمَ أسراري.

بحتُ لها بكل شيء. طار قلبُها فرحة وإشفاقًا، كانت تقبّل وجهي كله، تبوس عيوني ووجنتيّ وجبيني وشعري وشفاهي، وهي تردد:

مسكينٌ يا حبيبي، مسكين يا أجمل الناس.

تبكي وهي باسمة، تشفق على حياتي الأليمة، وتفرح أني مسلمٌ مثلها، ولا حرج في معاشرة حبيبٍ لن يغضَبَ الله إنْ هي عاشرَته. أصبحَت تناديني في البيت حسّون، وحين ندخلُ في الفِراش معًا تدعوني إليها: «تعالَ إلى عُشِّكَ يا طائري الجميل».

أدركتُ السعادة التي لم أذقها من قبل، بعدما كانت أكبر أمنياتي أنْ أحيا بأمان فقط، أحيَتني عثمانة، فأحببتُ العالم لأجلها، وكانت سوار أسعد الناس بحبّي لعثمانة، شارَكَت حكايتنا، وشارَكَتنا السعادة، فكانت تقول لي: «لمثلِ هذا لم أهاجر إلى إسرائيل، الحبُّ وطنٌ يا رفيقي، وقد وجدتَ وطنَكَ، فإياك أنْ تخذلهُ أو تخونه، أحِبّها يا حسّون، أحِبّها من كل قلبك». لم أرَ قلبًا أكثر وداعة من قلب سوار، وددتُ لو أنها وجدت راحتها هي الأخرى، لكن ليست الأمنيات دومًا سهلة المنال، عاشت شقية، وكذلك ماتت.

بعد أشهر استدار بطنُ عثمانة، سيكون لحسّون فَرخٌ صغيرٌ من صُلبه، ليت أمي كانت معي، وليت غلام كان هنا حيًّا لأعوضه عن وحدة الجبل حين يلاعبَه طفلي، لكن لا أمي هنا ولا غلام. كنت أسأل نفسي: «هل يمكن أنْ يطول حملُ عثمانة كما طال حملُ أمي، أيمكن أنْ يظلَّ ولدي في بطنها سنتين وسبعة أشهر مثلما كان أبوه؟». كانت عثمانة تضحك حين أخبرُها بأفكاري، وتقول لي: «أنت آخر المعجزات يا حبيبي، لا يعنيني كم سيظل في بطني، وليس لي أُمنية إلا أنْ أراه بين يديّ». خابت الأمنيات كلها، ظل ولدي ببطنها إلى الأبد، ولم يغادِر رحمها.

ستة أشهر فقط احتمل العالم فيها فرحتي، ثُم قال: كفى. جاءَ الموقِّعُون باسم الله على صكوك القتل، فقتلوا زوجتي وطفلي الذي ينمو في رحمها، بعدما أعلن الأشقياء أنَّ مسلمة لا تتزوج بيهودي، ومَن تفعل فجزاؤها القتل، قتلوها. رجعتُ إلى البيت يومًا، فلم تكُن الحبيبة في استقبالي مثلما كانت تفعل على الدوام، رأيتُها، رأيتُ قلبي مذبوحًا، عثمانةُ النور، قد أُطفِئت. شعرها مخضبٌ بالدم وفي عينيها نظرة لا تزال عالقة بروحي، وفي رحمها ولدٌ رجَوته، فلم يأتِ.

انقلبَت تونس بعد الفاجعة، اليساريون يُحمّلون الإسلاميين تهمة القتل، والإسلاميون يلقون التهمة على الليبراليين فيتهمونهم بأنهم سبب الفوضى، لأنَّ دعوتَهم للحرية المنفلِتة ضربت السِلم الاجتماعي، والليبراليون ينوحون على رِدّة

الثقافة، وعودة أخلاق العشيرة. كلهم يَتّهِم، وكلهم مُتهم. كانت الفجيعة مثل برق أضاء السماء، ثُم عادت لعتمتها بهدوء، نَسِيَ الناسُ، وانحسرَت الدوائر بعد إلقاء الحجر في البركة الراكدة، كأنَّ الحجر لم يُلقَ قط، ذهب دمُ عثمانة هدرًا. اعتزلت كل شيء ولزمت بيتي رافضًا الكلام مع أي جريدة أو صحافي، ابتعدت عن الجميع، فالجميع شارك في نكبتي، والجميع لا يكترث لأمري، وحدها سوار كانت تُحِس وجيعة قلبي، تحتويني بصمت، تأخذ رأسي على فخذها طيلة الليل، تمسحُ على شعري ودموعها تتساقط على وجهي بغير كلام، كانت رفيقة روحي المحتضرة.

شهورٌ طويلة مشت فوق قلبي وهو في مقبرة الأحزان لا يغادرها، لم تشفني الأيام، لا شيء يفعله الزمن؛ إذ النزفُ في الداخل. أشارت عليَّ سوارُ بالعودة إلى المكتبة لتسليني، فلم أفعل. أقضي كل دقيقة وأعيشها بدقة، أشعر بوخز اللحظات، أستمع لوقع عقارب الساعات ودبيبها الراحل في دائرته الأبدية، أُحدّث ولدي الذي لم أرَه، وأعتذر لعثمانة لأنها رحلت وبقيت أنا، سنتان وأنا في البيت لم أغادره قط، لم يحدث فيهما أي شيء، أمران فقط قد تغيّرَا: نضبت الدموع، وظهر الشيخُ الغريب من جديد.

على غير عادتها، تركت سوار المكتبة بعد ساعة من وصولها إليها، ورجعَت للبيت، اقتحَمَت غرفتي دون أنْ تطرق الباب وقالت بأنفاس مضطربة:

- هل تذكر الشيخ الذي جاء إلى مكتبتنا منذ خمس سنوات وشغَلك بالخوف والقلق؟

- نعم أذكره.

- جاء اليوم إلى المكتبة، وترك لك رسالة.

فتحتُ الرسالة، فلم أجد بها إلا كلمات ثلاث: «اِلْحَقْ بِنَا نُواسِكْ».

الخوف لم يَعُد قضيّتي، وما عدت أكترث لأي مصير كان، فأردتُ الوصول إلى الشيخ المـُربِك، لأعرفه، لا لأتّقيه، لكن كيف السبيل إليه وأنا لا أعرف له اسمًا ولا موطنًا؟! غايةُ ما أعرفه عنه عنوان كتاب سألني عنه منذ سنوات، ولم أنسَ اسمه قط، يقيني أنَّ لهذا العنوان سرًّا، بحثت عن الكتاب كثيرًا ولم أهتدِ إليه، رغم كل معارفي، فإنَّ هذا العنوان لم يصادفني مطلقًا، ذهبتُ إلى خلدون موظف المكتبة فقد كان واسع الاطلاع هو الآخر، فلم نصل إلى شيء، ذهبتُ إلى (دار الكتب الوطنية) أسأل عن كتاب «كسرُ الجناحين»، فقالوا بأنَّه غير مدرج لديهم، جربت في مُحركات البحث، فعجزت شبكة العنكبوت الجبارة عن الإمساك بالذبابة، مرّ أسبوعان ولم أصل إلى شيء، حتى يئست.

«اِلحق بنا نواسِك»، الرسالةُ العجيبة من الشيخ الغريب، شيءٌ استقر بقلبي يقول لي إنه حقًّا قادرٌ على مواساتي، لم تستنكر سوار بحثي الدؤوب، بل كانت تدفعني لمواصلته حين يأسي، وكانت هي الجسر الذي أوصلني إليه في الخاتمة. كُنا بالسوق نبحث لها عن حقيبة معينة تريد أنْ تشتريها، وعندما لم نجد بالسوق ما تريد، دلّنا أحد الباعة على متجر يقع في منطقة تبعد كثيرًا عن السوق، وقال: «لن تجدوها إلا هناك». تاهت خُطانا بين الشوارع ولم نستدل على المكان الذي وصفه الرجل، وفي ذاك التيه توقفت سوار وأشارت إلى رجل، وقالت:

- هذا هو، هو ورب موسى. ذاك الرجل يعرف الشيخ صاحب الرسالة، وكان ينتظره أمام المكتبة، خرج الشيخُ وأنا أراقبه فصافح ذاك الرجل ووضع يده على كتفه، ثُم مشيَا معًا حتى ابتلعهما الطريق. قد رأيته بوضوح، ولفَتَني عور عينه ولحيته الحمراء، لا يمكن أنْ يكون غيره، أقسم لك يا حسّون إنه هو.

كان الرجل واقفًا أمام باب مسجد كأنه ينتظر شيئًا، ولم يكُن وقت صلاة؛ إذ كانت هناك ساعة تفصلنا عن صلاة المغرب، لم أتجاسر على الذهاب إليه مباشرةً، فقررت أنْ أراقبه قليلًا، حتى أرى ماذا يمكن أنْ أفعل. جلسنا على مقهى غير بعيد عن باب المسجد، وانتظرنا، ساعة كاملة وهو على حالِه ساكن لا يتحرك، حتى ارتفع أذان المغرب، نظر الرجل عن يمينه ويساره كأنه ينتظر شخصًا أخلَفَ موعده، ثُم دخل المسجد، فتركتُ سوار على المقهى ودخلت وراءه. وجدته في الصف الأول، فجلست في الصف الثاني، صلّيتُ بقلب لا يعرف ماذا يقول في صلاته، حتى إني صلّيت بغير وضوء، يركعون فأركع، يسجدون فأسجد، حتى انتهت الصلاة، جلستُ في مكاني، أسدد نظري إلى ظهر القشة الأخيرة التي قد تحملني إلى مُرادي، فرغ المسجد من المُصلين، والرجل في مكانه لم يتحرك، تقدمتُ إليه وألقيت السلام، ثُم جلست وسألته:

- هل تعرفني؟

- لا. مَن أنت، وماذا تريد؟

- اسمعني، سأقول ما قد يبدو غريبًا لك، لكنه الحقيقة، أنا أمتلكُ مكتبة هنا في تونس، في حيّ الزياتين، وذات يوم منذ خمس سنوات، جاء رجلٌ إلى مكتبتي وسألني عن كتاب لا وجود له، اختفى الرجلُ بعدها ولم يَعُد قط، ثُم جاء مرة أخرى منذ أسبوعين إلى المكتبة ولم أكُن هناك حينها، فتركَ لي رسالة ورحل، أخذتها منه ابنة خالي وقالت إنها رأتكَ معه، وأنا أريدُ الوصول إلى صاحب الرسالة فدلّني عليه.

- وكيف عرفتني أنتَ إذ لم تكُن هناك حين ترك الرسالة مثلما تقول؟!

- عرَفتكَ ابنة خالي، رأيناك ونحن نسير بالطريق فأشارت لي عليك.

- وأين رأتني ابنة خالك؟

- هنا أمام باب المسجد، حينما كنتَ واقفًا تنتظر الصلاة.

- بل كنت أنتظرك أنتَ، لا الصلاة.

- ولكنك تقول إنك لا تعرفني!

- نعم لا أعرفك، لكن شيخي هتف بي في يقظة بغير منام، سمعت صوته يتردد في قلبي، وهو يأمرني بالوقوف أمام المسجد، وقال: سأرسل إليك زائرًا قبل زوال النهار. وقد صدقَني شيخي، وها أنتَ أمامي.

- لا أفهم شيئًا من كلامك!

- دعكَ من كلامي الآن وصِف لي الرجل الذي زارك منذ خمس سنوات.

وصفته له، فتبسّم وقال:

- نعم، ذاكَ شيخي، مُرني أستجِب لك.

- دُلني عليه، فأنا لا أعرفُ له اسمًا ولا عنوانًا، كل ما أعرفه هو ذاك الكتاب الذي أخبرتُك عنه ولا وجودَ له.

- عن أي كتاب سألك؟

- «كسر الجناحين».

عانقني عندما سمع اسم الكتاب وقال:

- نعم، هو أنت إذًا مَن كان يبحثُ عنه. لكن شيخي لم يغادر مسكنه منذ عشرين سنة، ولم يأتِ إلى تونس، ولا أنا كنتُ

معه عند مكتبتك، ولا رأيته منذ أمرني بالرحيل.

- لم يأتِ إلى تونس، ولم تكُن معه! إذًا هل كنتُ أحلم أنا وابنة خالي؟!

- بل بعين اليقين رأيتَه، لا بعينِ رأسِك.

- أنا لستُ نبيًّا ولا وليًّا، لكن لا علينا مما تقول، ما يهمني الآن أنْ أعرف إذا ما كان لهذا الكتاب من وجود؟

- نعم.

- وما الذي في هذا الكتاب؟

- لم أقرأه، ولا وقعت عيناي عليه قط.

- مَن كَتَبَهُ؟

- شيخي.

- ومَن هو شيخك؟

- هو يخبرك مَن هو.

- وكيف أصل إليه؟

- أنا أدلُّكَ عليه.

أرادت سوار أنْ تسافر معي، لكنني أبَيت، قلت لها ذاك الضباب لي وحدي، أسير فيه أعمى حتى أبلغ الضياء، أو أهلكَ دونه.

اليوم الرابع

سافرتُ إلى (القيروان) بعدما أخبرني الرجل إنَّ الشيخ يقيم هناك، وصلتُها فجرًا، قصدتُ جامع «سيدي بوعبانة» والسماء ما زالت تتنازعها روحا الظلمة والنور، الليل يجمع أشلاء عتمته المُحتضِرة، والصبح في مخاضه يزفر بالضياء الوليد، بين الموت والحياة وصلت. كان المسجد خاويًا، ليس فيه إلا الرجل الذي ابتسم لي واستقبَلني كأننا على موعد، قال فاتحًا يديه: «تأخرت، ولكنك في الخاتمة أتيت يا حسّون، أنتَ أنتْ». عانقته وبكيتُ كل ما في روحي من مواجع، كأنه حضنٌ صفية، آمنتُ به بغير دليل، وأدركتُ صدقه دون كلمة، بلغتُ مُرشدي، وصار لي حصنٌ آوي إليه؛ إذ صار لي شيخٌ.

جلسنا في المحراب، ينظر الشيخ بوجهي ويطيل النظر، ثُم يسجد. ثُم ينظر بوجهي ويبكي، ثُم يعود ليبتسم ويعانقني، ثُم يسجد، سألته:

- ما يُبكيكَ يا سيدي؟!

- منذ أربعين سنة وأنا أنتظرك يا حسّون.

- أخبرني كيف عرفتَ اسمي ولم يكُن يعرفه أحدٌ، ولماذا تنتظرني منذ أربعين سنة وأنا لم أعرفك من قبل قط؟

- إنها البشارة يا حسّون، بشارة طال انتظاري لها، وما أظن أنَّ الموت أمهَلني كل هذه السنوات إلا لأجلها.

- أي بشارة يا سيدي؟

- بشارة قديمة أتتني حين كنت في حرم الله، كنت أطوف حتى أتعبني الطواف فجلست بين الركن والمقام، وغفَت عيناي، فرأيت نبيًّا الله؛ موسى ومحمد، وقد دخلا عليَّ من (باب العتيق) وبينهما رجلٌ، موسى عن شماله ومحمد عن يمينه، ثُم وقفوا أمامي وأنا أستند إلى الكعبة، فلما رأيتُني في حضرة الكليم والحبيب، نزلت على ركبتيَّ وأحنيتُ رأسي، فقال محمد: «ارفع رأسَكَ أبا بكر». فرفعته. وقال موسى: «قُم». فقمت. ثُم نظرَا للرجل الذي يقف بينهما وقالا له: «ذاكَ صاحبُك». ثُم أشار إليَّ موسى قائلًا: «يا أبا بكر، هذا ولدي فأحسِن إليه». وقال محمد: «ذاكَ مني فكُن له خيرَ صاحب». ثُم دفعاكَ نحوي وقالا: «اِلزَمه يا حسّون». أربعون سنة وأنا أبحث وأنتظر صدق البشارة، مكثت سنوات أنتقل بين مكة والمدينة لعل أحدَ الحرمين يجمعنا، فلم نجتمع. انتقلتُ من أرض الحجاز وقلتُ لعلكَ لستَ من أهله، ذهبتُ إلى أرضِ المغرب والجزائر فلم أجِدكَ في الأمازيغ ولا العرب. قلتُ لعله من نسل الكنانة فأقمت بمصر لعل بركة (الأزهر) تُرشدني إليك، أبحث في مساجد القاهرة وطُرقها، فلم تكُن. أقمتُ في المسجد الأموي وقلت لعل الشام موطنك، فخذلَتني كل المَواطن. أبحث في وجوه تلامذتي في كل بلد، وأنظر في وجوه الناس في الطرقات، والروّاد في المساجد، أحمل مصباح قلبي في كل سبيل لعلي ألتقي بالوجه الذي أُمِرت بصحبته، وأخبَرَني النبيَّان إنَّ اسمَه حسّون. طال بحثي ولا أقبض غير الريح! كل هذا العناء وأنت بجواري هنا في تونس، لكن لم يكُن الكتاب قد بلغَ أجَله، فلما تمَّ حَمْلُ البشارة وفِصالها، أرشدني قلبي إليك.

- لكنك حين جئت إلى مكتبتي لم تقُل شيئًا يا سيدي، إلا سؤالك عن الكتاب، فلماذا لم تُخبرني وقد طال بحثك وانتظارك؟!

- لأنك أنكرت نفسك حين سألتك عن اسمك، وزعمت أنك يونان، فعرفتُ أنَّ موعدنا لم يَحِنْ.

- ولماذا لم تقُل إنه ليس أنا الذي رأيتَ في منامك؟

- ما كنت لأضل عن الوجه الذي سكن قلبي، وما كان ليكذبَ نبيًّان أبدًا.

- لكن تلميذك الذي دلَّنا عليك قال إنك لم تأتِ إلى تونس ولا هو رآك منذ عشرين سنة!

- صدَق في الثانية وجَهِل بحقيقة الأولى، هو حقًّا لم يرَني، لكني أتيت إليك حين دلّني فؤادي بأنك بهذا المكان.

- لكن سوار رأتكَ في المرة الثانية حين تركت الرسالة، وكان تلميذك معك.

- لم أزُرك إلا مرة واحدة، ولم أترك رسالة، ولا كان تلميذي معي.

- هل كانت سوار تتخيل إذًا؟ وإذا كان قد خُيِّل إليها فكيف جاءتني بالرسالة؟!

أمسكتُ حافظتي حيث وضعت الرسالة لأريه إياها، فلم أجِدها. فتبسّم الشيخ. قلتُ:

- كانت معي هنا، ولم أخرجها من حافظتي منذ وضعتها فيها.

- أصدّقك، أدت الرسالة رسالتها ثُم ذهبَت.

- هي كرامةٌ لك إذًا.

- بل كرامة لك أنتَ يا حسّون.

- لكن سوار رأت، وهي من دلَّتني على تلميذك.

- سخَّرها الله فأراها بعين القلب، كي تصل أنت، فكم سلك الطريق أناسٌ ولم يكُن لهم، فكانوا إشاراتٍ للسالك المُجتَبى.

- عجيبٌ ما تقول! غير أني أصدقك فإنَّ حياتي لا تخلو من عجيبةٍ منذ ولدتني أمي، بل منذ خلقني الله في رحمها، فلا بأس بمزيد من العجائب. إذن اسمك الذي ناداك به النبيَّان في منامك، أبو بكر.

- نعم أنا «أبو بكر التيجاني»، صاحبك، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

- ماذا يريد الله مني يا سيدي؟

- لا نعلم مُراد الله إلا حين يقع يا بنيّ.

- يسوقني منذ ثمانين سنة بل يزيد، وأنا لا أفهم ماذا يريد.

- لن ترى لأنك تفتح عينيك، أغمِض عينيك لترى.

جلسنا في المسجد ساعات طوال، قصصتُ عليه حكايتي بأجمعها، حكيتُ له عن أمي اليهودية التي تزوجت بمسلم وحبلَت بي سنتين وسبعة أشهر، أخبرته عن حلم القليس، أقول له: «سبق حلمي حلمك يا سيدي». فيقولُ: «لا سابق ولا مسبوق، كل شيء بقدر». أخبرته إني جاوزت الثمانين ووجهي لا يتغير، فظل يناديني: بُنيّ. رغم أنه أصغر مني بعشر سنوات! وددتُ لو أني أظل معه في المسجد إلى الأبد أحدّثه ويحدّثني، كانت روحي عطشى لروح آمنة أُودِعها حِملي الثقيل، لكنه قال: «قُم يا حسّون». فقمت.

خرجنا من المسجد، مشيتُ بجواره بغير كلام، لا أسأله عن وجهتنا، أسلمته نفسي، وأنا آمن عليها لا أخاف المصير، حتى بلغنا منزله، بيتٌ من طابق واحد، متواضع تظهر عليه علامات الفقر، لكنه فسيح يريح النفس فتألفه، كأنها وُلِدَت بين

جدرانه، أدخَلني إلى غرفة وقال:

- ستُقيم عندي ثلاثة أيام، وبعدها يقضي الله بما شاء.

- أخاف أنْ أزعِج أهل بيتك، تكفي ليلة واحدة وبعدها أبحثُ عن سكن.

- لن تزعج أحدًا يا بني، ليس في البيت غيري وزوجتي، وستؤنِس وحدتنا.

لم يكُن للشيخ أبناء، زوجته عجوز جاوزت الستين، رأيت فيها وجهَ أمي الطيب، ورغم أني أكبر منها كثيرًا ناديتها: يا أُمّاه. ففرِحَت وأشرق وجهها، ولم تَعُد تناديني بعدها إلا: يا بنيّ.

تركني التيجاني ساعة أستريح فيها، فذهبت في نوم عميق حتى انتصف النهار، دخل غرفتي وقال: «أدِّ ما فاتك من الصلاة». عندما فرغت من صلاتي، وجدته يضع أمامي طعامًا، كنتُ جائعًا فأكلت بنهم، وهو ينظر إليَّ دون أنْ يُشاركني الطعام، سألته: «ألا تأكُل معي؟». قال: «إني صائم». بدأت أحس بالشبع، فأخذت أمضغُ الطعام ببطءٍ لأراقب وجهه السّمِح، يدور برأسي ألف سؤال، فيردعُ الخجل لساني، للتيجاني مهابة تعقِل الألسنة عن الكلام. انتهيتُ من طعامي، فقام ليحمل الأطباق، أردتُ مساعدته فقال «اجلس». فلزمتُ مكاني. مكثتُ يومين لا أراه إلا حين يأتيني بالطعام، ينظرُ في وجهي ويبتسم ثُم يخرج، قلتُ له:

- تدور برأسي أسئلة كثيرة، وأعلمُ أنَّ لديك الجواب.

- لم يَحِن وقت السؤال يا بنيّ، دَع الأرواح تطير حتى تبلغ عُشّها، وحينها لن تضل عن حقيقة الشجرة. أنا شجرتك، فلا تنشغِل بثمرتي وتغفَل عن غُصني، فإنْ وجدتَ لك عُشًّا بغصني، تساقطت أثماري بين يديك، فاصبر نفسك وكُن من الصامتين، تَصِل.

كلامه دومًا يحمل معانيَ لا أفهمها، طريقته غريبة، كنت أحيانًا أشعر من فِعاله معي أنه حازم حد القسوة، وكثيرًا ما كنتُ أشعر أنه أرحم بي، من أُم بولدها، من بين كل الذين صادفتهم في حياتي لم أرَ رجلًا مثله، إلا مُعلمي داوود عندما كان يحدثني وهو سكران، كلاهما كان يقول أشياء ويقصد غيرها. لزمت أمره على أي حال ولم أسأله عن شيء.

ظننتُ في بادئ الأمر أنَّ الشيخ لا عمل له، وقلت لعل له مالًا يعيش عليه، وعرفتُ بعد ذلك أنَّ للشيخ دكانًا يُصلح فيه أحذية الناس، فكان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر، ويظل بدكانه حتى ترتفع الشمس، ينتهي من عمله ثُم يغلق الدكان ويعود إلى بيته قبل الظهر، فلا يشتغل إلا بقدر ما يكفي أهله. سألته عن بيتٍ أتَّخِذه سكنًا بعد انقضاء اليوم الثالث، فطلب مني ألا أتعجَّل وقال: «انتهى حق الضيف في أيامه الثلاثة، وبقي حق الصُحبة، وتلك لا انقضاء لأيامها». قبلت بالبقاء، غير أني اشترطت أنْ تكون إقامتي في الغرفة مدفوعة الثمن. رَفَضَ.

كنا نصلي الفجر، ثُم يذهب هو إلى الدكان، وأمكث أنا في غرفتي لا أغادرها حتى يعود من عمله، أسأمني الفراغ فطلبت منه أنْ أصاحبه في الخروج إلى دكانه، فقبل. أصبحنا نُصلّي الفجر ثُم نخرج معًا، أشفقتُ على تعبه وانحنائه الطويل على إبرته التي يَرتقُ بها فَتق الأحذية، قلت له:

- لماذا لا تشتري «ماكينة» تخيط بها الأحذية، فتريحك وتكون أيسر من عملك بالإبرة؟

- لستُ مُتعبًا.

- علّمني إذًا لأساعدك.

- أُعلّمك، لكن لن تساعدني.

- لماذا اخترت حِرفة الإسكافي دون غيرها يا شيخي؟

- دَينٌ قديم كان على جدّي الأكبر، أوفّيه عنه.

أخبرني شيخي بعد سنوات إنه كان يغتسل من وزرٍ علقَ باسم «التيجاني»، أسرته تنحدر من أصول أندلسية، وكان جدُّه الأكبر أمهر أهل الأندلس في صنع التيجان للملوك ولأمراء، وورث الأبناءُ عنه صنعَتَه، حتى صار «التيجاني» لقبًا لأسرتهم، فلما سقطت الأندلس هاجروا مع من هاجر إلى تونس، وعلى مر القرون زالت الصنعة، وبقيَ اللقب، وعمل الشيخ إسكافيًّا يتلقّى أحذية الفقراء، ليستغفر لأجداده عن صنع التيجان، كان يقول لي: «لعل الله يرحم أجدادي حين يرى حفيدهم، وهو يتلقف أحذية المساكين، فيَغفِر لهم أنْ صنعوا تيجان الظالمين».

عامٌ كامل مرّ منذ صحبت الشيخ، وأنا لا أعرف ماذا يريد مني، لكن روحي مطمئنة راضية في صحبته، أدرك أني هنا لغاية وإنْ كنت أجهلها، وكلما مرّ يومٌ ازداد تعلقي بالشيخ حتى إني ما عدت أفكر في العودة إلى تونس، فقط أطمئن على سوار من حين لآخر، تهاتفني أو أهاتفها، وكلما سألتني عن موعد عودتي، قلت لها: «وجدت الراحة يا سوار، ولكنني لم أبلغ مرادي، فاصبري حتى يتم الأمر وساعتها أعود». لم أكُن أعرف ما هو هذا الأمر الذي أنتظر تمامه، لكنني أعرف أني هنا بإرادة تقودني، وسأنتظر حتى يكشف القضاء عن وجهه. أقضي جُلَّ يومي بين يدي التيجاني، في الدكان أصاحبه وفي البيت أجالسه، وفي المسجد أصلّي معه، لا أفارقه إلا بالنوم. لم تطُل سكينتي؛ إذ نسفَتها خطة الشيخ. دخل عليَّ يومًا وقال: «احزم متاعك لتخرج». ودون أنْ أسأله إلى أين، ذهبت إلى حقيبتي لأجهّزها، فقال: «ليس هذا متاعك، بل قيدك». وتقدم نحوي حتى أصبحتُ أحسُّ بأنفاسه على وجهي، فوضع كفَّه على صدري وقال: «هنا متاعك، وذاك النابضُ دابّتُك. مهما ابتغيتَ الوصول بغيره لن تصل، فأحسِن عَلف الدابة تَحمِلك، وعلفُها الصفاء من همٍّ الدنيا والآخرة، هيا قم معي». خرجنا من البيت، يمشي أمامي يسبقني نشطًا كشابٍ في العشرين من عمره، حتى أتعبَتني سرعته وأنا أحاول اللحاق به، كأنه على موعد يخشى فواته، بلغنا مسجد سيدي بوعبانة، فرغنا من صلاة الظهر فحسبتُ أننا سنخرج من المسجد بعدما انقضت الصلاة، ولم يكُن ذلك موعد درسه الذي يلقيه عادةً بعد العصر، لكنه ظل جالسًا في مكانه لا يتحرك، ومكثت بجواره أنتظر، أتعبني طول القعود، لكنني لم أحرّك ساكنًا، بقينا هكذا حتى ارتفع نداءُ العصر فصلّينا، وقلتُ سنخرج بعد الصلاة، لكنه عاد لجلسته كما كان، فقمت وجلست بجوار سارية المسجد لأريح عليها ظهري الذي كاد أنْ ينكسر، أريد أنْ أمدَّ رجلي، فيمنعُني الحياء أنْ أمدَّها وهو أمامي، جاء المغرب، وبعده حلَّت العشاء، وفرغ المسجد من المُصلين، وهو على حاله حتى انتصف الليل. عضَّني الجوع وأنهَكَني طول الجلوس، فغفَت عيناي وغلبَني النوم، قمتُ في الثلث الأخير من الليل فوجدتُ عباءة الشيخ تغطّيني، وهو على جلسته لم يتحرك، فذهبت إليه وقلت: «سيدي، ألم يُتعبك طول الجلوس؟». تبسّم دون أنْ يلتفت، فرجعت إلى مكاني بغير كلام. قُبيل الفجر جاء خادم المسجد فسلّم على الشيخ، ورفع الأذان، فلما انتهت الصلاة وغادر الناس، تقدم الشيخ نحوي وقال: «اُمكث هنا، لا تكلّم أحدًا من الناس، ولا تغادر المسجد حتى آمرك».

قضيت اليوم كله في المسجد كما أمرني، يومان لم يدخل جوفي طعام، لا شيء إلا شربة ماء أجرعها حين وضوئي، عند كل صلاة. قبيل المغرب جاء غلام صغير، يمسك بيده قطعة مطوية من القماش، تركها بجواري ومضى، فأمسكت بطرف ثوبه وسألته: «مَن أنت؟». أجابني: «أرسلني الشيخ». فسألته: «وأين هو؟». خلّصَ طرف ثوبه من يدي، ولم يرد على سؤالي، وأعطاني ظهره ومضى. فتحت القماشة، فلم أجد إلا رغيفَ خبزٍ جافٍّ وثلاث تمرات، أكلتهم، فزاد جوعي. ظننت أنَّ الشيخ سيأتي عند صلاة العشاء أو الفجر، أتلفّت حولي وأنظر في كل الوجوه، أراقب كل داخلٍ من باب المسجد لعلني أجده، لكنه لم يأتِ. قبيل المغرب في اليوم التالي أتى الغلام نفسه، وترك بجواري مثلما ترك بالأمس. سبعة أيام مرت عليَّ وأنا في المسجد،

يأتيني الغلام عند المغرب بالتمرِ ورغيف الخبز، ولا شيء غير ذلك. أدركت أنَّ الشيخ يقول لي: صُم. فصُمت.

انقضت أربعون يومًا وأنا في المسجد، أفطر على تمرات ورغيف خبز وأتسحّر على شربة ماء، لا أكلّم الناس، ولا أجالس أحدًا، لا شيء إلا الصلاة والصوم، وطعام يأتيني به الغلام قُبيل كل مغرب، طعامٌ ربما لا يُشبع دجاجة، في بداية الأمر كنت أحس الجوع حين أفطر، أكثر مما أحسه في صومي، ثُم اعتدت قلة الطعام، فأصبح الرغيف والتمرات الثلاث طعامًا يكفيني ويُشبعني. الساعات الطويلة التي أقضيها في فراغ المسجد تحثّني على قراءة القرآن، منذ زمنٍ وأنا لم أصافح صفحاته، ولم يكُن التيجاني يأمرني بالقراءة في المصحف، ولا العودة لحفظه طيلة العام الذي قضيته معه، الحقُّ أنه لم يكُن يأمرني بشيء إلا الصلاة إنْ غفلتُ عنها، ولا يعظني بشيء إلا حين أكون بين تلامذته وهو يلقي دروسه في المسجد، فأستمع إليه كما يستمعون، وحين نعود إلى البيت يكلمني كما يكلم الوالد ولده في شوارد الأمور، أو يقص عليَّ بعضًا مما مرّ به في حياته، دون وعظٍ ولا توجيه. عندما صَفَت روحي في خلوة المسجد، حنَّت نفسي إلى القرآن فأمسكت بالمصحف، ولم أُجاوز أمَّ الكتاب، أقرأ الفاتحة وكلما انتهيتُ منها بدأتُها من جديد، أربعون يومًا لا أقرأ غيرها، أتنقّلُ في بساتينها بين «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» و«وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، أسأل قلبي ويسألُني: أنعبدُه لنستعينَ به؟ أم نستعينُ به لنعبدَه؟ أيهما الغايةُ وأيهما السبيل؟ يُعييني الجواب فأقول لنفسي: سأسأل شيخي حين أراه. أغادر المُعضلة ثُم أذهب إلى «اهدِنَــا الصِّرَاطَ المـُستَقِيم، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ» فتصفعني معضلةٌ أخرى ويحيرني سؤال جديد: أنذهب إلى الصراط المستقيم بأنفسنا؟ أم تحملنا إليه نعمته علينا؟ وإنْ بلغناه، فبحُسن عزائمنا أم بفيض كرمه؟ فتُجيبني الخاتمة: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». إذن الإرادة حاضرة، والعزمُ هو السبيل، تخبرني الآيات إنَّ حقّ الاختيار خطرٌ، فالمغضوب عليهم والضالون، كانت لهم إرادةُ الوصول، فهلكوا. لم تنفعهم الغاية الفريدة؛ إذ خذلتهم الوسيلة، فكان فريق منهم مغضوبًا عليه والآخرُ ضلَّ السبيل، الفاتحةُ غابة، أغصانُها متشابكات، كل الأشجار فيها متشابهة، لكنَّ ثمار كل شجرة تُخبر أنها غير أختها. تركتُ المصحف الذي تتقاذفني آياته، كلما أقول وصلت، أجدُني قد انتهيت إلى حيث بدأت، فاكتفيت بالصلاة.

أنتظر بعد العشاء ساعةً، حتى إذا انصرف عُمّارُ المسجد سكنتُه وحدي، أشعلُ قناديل التهجّد فتنير جنبات روحي، الصلاة راحة، وكم كنتُ تَعِبًا. ألقيتُ بقلبي على وسادة العرش الأعلى، أحِسُّ يدَ الله تُهدهدني حتى أنامَ في قُدسِ السكينة، تغيَّرَ في قلبي شيءٌ، صرتُ أزهدُ الناس، لا أشتاقُ لأحد ولا أتعلق بغاية، إذا جلستُ بعد الفريضة، ورأيت أحدًا يصلي بعين زائغة أو تحرّكت جوارحه بغير خشوع، احتقرت صلاته في قلبي، حتى أودُ لو قلت له ما هكذا تكون الصلاة، وإنْ سمعتُ جلبةَ الناس خارج المسجد غضبتُ عليهم، وأقول في نفسي ضلُّوا السبيلَ إذ هجروا المحراب، وكلما ارتقيتُ في الصفاء، تصاغَر الناسُ في عيني، حتى أضحَوا لا شيء. تعلّق قلبي بالسماء، حتى لم أعُد هنا، وزهدتُ الناس فلا أنا منهم، ولا هُم مني، فقد وصلتُ سِدرةَ الانتهاء، وحلّقتُ في نور الأنوار، حتى غادرت عالَمهم التعيس، وقادتني الخلوةُ إلى بلاد الأفراح. هكذا ظننتُ، وبعض الظن حُمق، كنتُ أحمقَ.

قبل أنْ أبلغ اليوم الأربعين، أصبحت أفطر على التمر ولا أمسُّ الرغيف، يأتي الصبّي فيأخذ رغيفَ الأمس، ويضعُ مكانه رغيف اليوم، فقلت له: «يا بنيّ، لا يحتاج السالك لغير تمرة، ادَّخِر رغيفك، لا حاجة بي إليه». تمَّ ميقاتي، أربعين يومًا، وفي اليوم الأخير عندما فرغت من صلاة الفجر، وجدت الشيخ عن يميني، ولم أكُن قد انتبهت إليه قبل الصلاة. وضعَ يدَه على كتفي وقال: «قُم يا حسّون». عندما خرجتُ من المسجد تغيّر في نفسي شيء، كأنَّ هواء الطريق أزال غطاء السكينة عن قلبي، حتى وددت أنْ أترك الشيخ وألوذ بمسجدي، لكنني مضيت، وما كان لي إلا المـُضِي.

رجعتُ إلى بيت الشيخ بنفسٍ قلقة، تملؤها الغربة، كأني لم أدخل هذا البيت من قبل، بل كأنهم أخذوني من بساتين لا

نهاية لامتدادها، ودفعوا بي إلى زنزانة لا تسع رجلًا واحدًا، ما عدت أنتمي إلى شيء ولا حتى بيت شيخي، لكنني أسلمت إليه نفسي منذ وطأت قدماي القيروان، وما كان لي إلا أنْ أنتظر أمره، فأستجيب له. أبصرَ التيجاني غمّي الذي لا يخفى على لبيبٍ، وسألني:

- أزعجك أنْ غادرت المسجد؟

- نعم.

- لا بأس، فلا يصلُح أنْ يكون للسالك سكنٌ، ولا حتى بيت الله.

ثُم تركني في الغرفة وخرج، وبعد ساعة دخل عليَّ، وهو يحمل خُوانًا فوقه طعامٌ كثير، من لحم وفاكهة وعسل، وقال:

- كُلْ.

- هذا الطعام كثير، وقد صارت نَفسي تَعافُ كل هذا.

- إذًا لا تَتّبِع نَفسك، ولا تُتْبِعَهَا هَواها.

- نفسي تزهد الطعام يا سيدي، فأين الهوى؟!

- لم تزهد نفسك. بل اشتهت التّرك.

- كيف يكون الترك اشتهاءً؟!

- النفسُ لا تزهد أبدًا، هي تخدعك، تريد ما اعتادت عليه، وهي ألِفَت الجوع فاشتهت ترك الطعام. خالِف ما تحب، فثَمَّ الزُّهد.

أطعتُه وأكلت، ثُم رقدت في مكاني بعدما خرج، فغفت عيناي ونمت. دخل الشيخ مرة أخرى مُحدِثًا جَلبة، فانتبهتُ لدخوله ونهضت من سريري، ظننت أني لم أنم غير ساعة، سألتُه:

- هل أذَّن الظهر يا سيدي؟

- أذَّن الظهر، وأذَّن العصر، وها هو المغرب قد أوشك.

أفزَعَني ضياع الصلاة، وقلت له معاتبًا:

- تَركْتني حتى ضيّعتُ الفريضة!

- ليس على النائم حرج، توضَّأْ وأدرِك ما فاتك.

استوقفته قبل أنْ يخرج، ولا أدري لماذا قلت له بغير سبب:

- أريد أنْ أرى كتابك.

- أي كتاب؟

- «كسر الجناحين».

- أدرِكْ ما فاتك يا حسّون، ثُم اطلب ما لن يفوتك.

لا ينفكُّ التيجاني عن إرباكي، كلما سألته لأهتدي به، أجاب بكلام لا يَشبعُ منه سؤال، ولا ترتاح له حيرة، لكنني لا أرتاب في حكمته، أسير خلفه كما يسير الواثق، لا الأعمى، لا يأمرني بأمرٍ إلا وهو يريد غيره، ظننت أنه دفعني لخلوة المسجد

لتصفو نفسي، وخاب ظني. بعد يومٍ واحد من مغادرتي للمسجد، وجدته أمامي وقد أعدَّ لي سِلالًا وقال: «اطلب الرزق في السوق». سلال أمي عادت من جديد، لكنني اليوم مَن أبيعها وليس أبي، والشيخُ صانِعُها لا صفية. تعجبت مما طلبه مني، لماذا أبيع السلال، في زمن ما عاد الناس يأبهون لمثل هذه الأشياء، ولا ينتفعون بها؟! فما كان رائجًا في اليمن الفقير منذ ثمانين سنة، لن يروج اليوم في تونس، لكنني فعلت ما أمرَني به.

استأجَر سيارة حملَت السلال، وصحبني إلى سوق قرية فقيرة تقع على أطراف القيروان، أدهشني أنها ورغم تباعد الزمن، لم تكُن أحسنَ حالًا من غرقة القليس في اليمن. كلّم الشيخ تاجرًا يبيع القماش في السوق ليسمح لي بافتراش الأرض أمام حانوته، كان التاجر يستمع له بأدبٍ جمٍّ، يُحني رأسه ولا يرفع فيه عينيه، عاقدًا يديه على صدره تأدُّبًا، فلما انتهى الشيخ من كلامه قَدِم التاجر نحوي وصافحني بودٍّ صادق، وقال: «أهلًا بك يا أخي، بارك الله تجارتك».

تهافت الناس على السلال وكأنها سلعةٌ نادرة! قلتُ في نفسي: لعل الشيخ هو من يُرسلهم ليشتروا بضاعتي الكاسدة. كنتُ غريبًا في السوق، وكلما كثر البيع وراجت التجارة؛ شعرتُ بالغربة أكثر. قلبي ما زال مُعلّقًا بالمحراب، تُؤذيني رؤية وجوه الناس، وتسحق مخالطتهم سكينتي، وددت لو أترك هذا السوق فلا أعود إليه، فأنا غريبٌ بينهم، ليسوا مني ولا أنا منهم، أرجو الفرار، وتمنعني طاعة الشيخ. حصّنتُ نفسي من غفلة الأسواق، أحافظ على الصلاة في موعدها، وأسبّح الله كلما خلَت فرشَتي من زبائنها، وبعد أيام قليلة تداعت جدران الحصن، زالت غربتي، واعتدتُ حياة السوق.

رأيتُ أنَّ النساء يطلبن أشياء لا أبيعها، كالحبال والأواني والملاعق، فأخذت أدوِّن ما تطلبه النساء، وأجلبه لهن، كثُرَ البيع والشراء، صرتُ ابن السوق لا المحراب، لم أعُد أصلّي الفرائض في المسجد؛ إذ تزدحم عليَّ النساء دومًا وقت الفريضة، فأصلّي الظهر والعصر في مكاني، ثُم أصبحتُ أتكاسل فأنتظر حتى أعود إلى بيت الشيخ، وأصلّي بغرفتي، وإنْ رجعت إلى البيت متعبًا، تركت الظهر والعصر، ولا أُصلي غير المغرب والعشاء وصلاة الصبح، وإن تأخرت على السوق خرجتُ على عجل، فيضيع الصبح.

في أول الأمر لم أكُن أنظر بوجه امرأة أبيعُ لها، وعندما يلفتني جمال إحداهنَّ أعتذر لعثمانة، ثُم أستغفر الله، الوجه الكذَّاب ما زال يُضل الناظرين، يحسبونني رجلًا في الأربعين، وكما أهملَت السنواتُ وجهي فلم تغيّره، أهملَتْ شهوتي، فلا تزال تفور، أصبحتُ أنظر للنساء فلا يردّني وفاءٌ لعثمانة، ولا يردعني وازعُ الورع الذي زالَ عني، يتكلّمن معي، فأتكلّم. يخضعن بالقول، فأتقدّم. نساءُ القيروان جريئات، إنْ اشتهينَ لا يتردَّدن في الطلب، فلم أتردَّد في الجواب.

كدتُ أقع في الزنا مرتين، لكن الله سلّم، فلَم أجاوزِ اللمَمْ. ثمَّة امرأة كانت تتردد عليَّ كثيرًا في السوق، حتى أصبحت أعرفها وتعرفني، وكثيرًا ما كنا نتمازح بالقول وأحيانًا بالأيادي، دعتني يومًا لبيتها بعدما اشترَت حبالًا، لتنشرَ عليها غسيلها، وقالت: «زوجي مسافرٌ ولا أقوى على ربط الحبال، فتعال إلى بيتي، بعدما تنتهي من السوق لتشُدّ حبالي». ذهبتُ إليها، وما أنْ خلوتُ بها وخلَت بي حتى أدركَتني رياحُ الشهوةِ، فعصفَت بستائرِ الصبر، وعرت غطاء المروءة، أشعلتني أنفاسُها المشتاقة، ولسَعتني قبُلاتُها، طال العناق حتى غفلت عن نفسي، ونزعت يدُ الشهوة ما غرسته خلوة المسجد من عفَاف، فلما دعتني للفراش، انتبهت، دفعتها عني وقلت: «لا». ثُم تركتها وخرجت. كَسرت السقطةُ قلبي، فأنكرتُه، لا أسمعُ صوتَه، ولا يَسمعُني. في السقطة الثانية كان الأمرُ أهوَن، والإنابةُ أصعب؛ إذ غاب وخز المعاصي، فأحببت الغواية، وإنْ كنتُ لم أسقط بعدُ بفِراش، لكنني كنتُ قابَ قوسين أو أدنى، أدرَكَني الشيخ.

فرغتُ يومًا من صلاة الصبح، وأعددتُ عُدّتي للسوق، فدخَل عليَّ التيجاني وقال: «اجلس، لا سوق بعد اليوم، قد أتممتَ فيه أربعين يومًا. سوقٌ بمسجد، وهذه بتلك. فأَخبِرْني أي الجناحين غلب يا حسّون؟!». ألقى عليَّ سؤاله ثُم تركني غارقًا ولم ينتظر جوابي، والحقُّ أنه ما كان عندي من جواب، كان الدرسُ قاسيًا. تركني بالمسجد أربعين يومًا حتى قلتُ إني من

المُخلَّصين، ثُم ألقاني بالسوق أربعين حتى أيقنتُ أني من الفاسدين، ثُم تركني بينهما مُلقًى على الطريق، لا إلى هؤلاء، ولا أولئك. ماذا يريد الشيخ مني ولماذا لا يمسك بيدي لو كنتُ حقًّا صاحبَه بوصاية نبيّيْن؟! عاد السأم لنفسي وضجَّرني كل هذا، لا أرغب بشيء، ولا أثق بطريق ولا طريقة.

اتصلَت بي سوار، وفي اليوم التالي جاءت تزورني، عرفت من صوتي أني لست بخير دون أنْ أخبرها شيئًا، فجاءت على عَجَلٍ. كنتُ مشتاقًا إليها، تعانقنا وبكت على كتفي، جلسنا وحدنا وقصّت عليَّ كل ما حدث لها في غيبتي طيلة العام، أخبرتني عن فقدها لي، ووحدتها القاسية، لكنها لم تطلب عودتي إلى تونس، سألتني عن حالي مع الشيخ، قلتُ لها: «ما زلت أنتظر». فقالت: «لا أحبُّ غيبتَك عني، لكنني لن أردَّك عن سبيلك حتى تصل إلى ما تحب». سوار كما هي على الدوام، حنون لا تقسو، محايدة لا تحملني على شيء، تترك لي مساحة كافية للقُدوم أو الذهاب. رحَّب الشيخُ بها، وكان يناديها ابنتي، ولم أرَ تغيّرًا على وجهه، بعدما وقعت عيناه على النجمة المُعلّقة على صدرها، ولا علّق بكلمة على هيئتها، وخلوتي بها. قضت النهار معي ثُم رحلت، وقبل أنْ تركب سيارتها قالت لي: «هذا الرجل أمين عليك، ولن يخذلك يا حسّون».

بعد رحيلها جلست مع التيجاني وسألته:

- ما رأيك في سوار؟

- طيبة، صافية القلب.

- نعم هي كذلك، وهي حكيمة عاقلة، حتى إني كثيرًا ما كنت أشعر أني بجوارها طفل صغير. ذات يوم تحدثنا معًا فسألتني سؤالًا لم أجد إلى اليوم له جوابًا، ليتك تُجيبُني اليوم عنه يا سيدي.

- عن ماذا سألتك؟

- كيف يكون اليهودي كافرًا وهو يعتقد ما يعتقده المسلمون، هل فقط لأنه لا يؤمن بالرسول؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأيهما غاية الله، الرسولُ أم الرسالة؟!

تبسّم الشيخ ولم يردّ على سؤالي، ثُم نهض من مجلسه وقال:

- حان وقت الطعام.

وخرج من الغرفة ثُم عاد وهو يحمل الأطباق على يديه، فقمت لأحمل عنه، فقال:

- أُقعد.

ثُم عاد يحمل خُوانًا ثقيلًا، فقمتُ مرةً أخرى لأحمل عنه حِمله، فقال:

- اِلزم مجلسك.

وفي المرة الثالثة جاء وفوق رأسه مِشنّة بها خبزٌ، وفي شماله مفرشٌ، ويمسك بيمينه سطلَ ماء، يمشي متعثّرًا يكاد أنْ ينكفئ، فلم أُطِق تَعبَه وقمتُ للمرة الثالثة كي أساعده، فنهرني قائلًا:

- الأدب أنْ تلزم ما أمرتُك به، كما أمرتُك به، لا أنْ تفعل ما تراه أنت الصواب، والأدب مع الله أنْ تُحقّق مراد الله، كما أراده الله، لا كما تريده أنت. ليست العبادة أنْ تُصلّي فحسب، بل تُصلّي كيفما أمَر، أرأيتَ لو صلّيت الظهر خمس ركعات، فهل تُؤجَر على الزيادة أم تبطل الصلاة؟ أرأيتَ لو صمتَ يوم العيد بعد رمضان أيكون دليل صلاحِك، أم سوء أدبك؟ أنتَ أسأت الأدب حين قمتَ لتساعدني بعدما أمرتك بالجلوس، واليهود أساءوا الأدب مع الله حين ردّوا أمر

ربهم، ولم يؤمنوا به بالطريقة التي اِرتضاها لهم، وطريقته هي رسوله، ومن ردّ الرسول فقد أساء إلى من أرسله، وإنْ زعم تعظيمه وتقديسه، وذلك كُفرهم.

أجاب التيجاني سؤالي، فكان جوابه ضربة في القلب، ليتني ما سألته، فقد أحكم جوابه الحصار على أمي، كان الضباب أكثر رحمة من هذا النور الذي جاء بما أكره، وكانت الحيرة أكثر راحة من يقين يسلبني ما آمنت به، تناسيت الأمر كله، وما عدتُ أفكر أي الدينين صواب وأيهما ضلال، أنا ما أنا عليه، ولتكُن مشيئة الله كيف كانت.

بضعة أعوام مرت وأنا في القيروان أنتظر ما لا أعلم، فقط أنتظر، غيّرت الأيام شيئًا بيني وبين التيجاني، والحقيقة أني أنا من تغير، وعاد شعوري بعبثية كل شيء، أردت أنْ أغادر القيروان وأرحل عن الشيخ، بعدما انطفأت عزيمتي ووهنَ قلبي، وما عدت أكترث لفهم ما يُراد لي، حتى وإنْ كان شيخي جسرًا للوصول، فقد زهدتُ الرحلة كلها. أصبحتُ أخرج مع التيجاني إلى دكانه فلا يتكلم معي، ولا أسأله عن شيء، ثُم نعود إلى البيت أتناول طعامي وأحبس نفسي في غرفتي، حتى تطلع شمس يوم جديد، كثيرًا ما كنت أحس أنه سَئِم مني هو الآخر، وأنَّ دوري قد انتهى، تسلل الغضب إلى نفسي، وملأت الريبة قلبي، كنتُ أقول لنفسي: «لم يكُن يبحث عني أنا، بل عن بُشراه هو، كان يريد تَحقُّق «الولاية» بتحقيق البشارة، أما أنا فلا أعنيه في كثير أو قليل، وحتى منحة المسجد ومحنة السوق، لم يكونا إلا ليثبت جدارة الوليّ، وقدرته على سَوْق التابع المريد، أو لعله كان يلهو ويلعب، وكنت دميته الخاضعة، ولعله ما أنزلني ببيته إلا ليرضي زوجه العاقر، فجاء إليها بولد منتحل، وإنْ لم ينسبه إلى نفسه مثلما فعل مراد بن يوشع، ثُم جعلني فأرًا لتجاربه، مرة في المسجد وأخرى في السوق، ودومًا هو على صواب ودومًا أنا على خطأ، فتشبع نفسه فخرًا، وتتيه كِبرًا، ثُم يزعم أنه يعلمني الرضا، والتواضع، وكبح الهوى، بينما كنت أنا هواه لا غير».

تزاحمت أسوأ الظنون على قلبي، وحالُ الشيخ معي لا ترد ظنوني، فما عاد يحدثني إلا إنْ تحدثت أنا إليه أولًا، يوجز ولا يسهب كأنه ملَّ الكلام، لا يأمرني ولا ينهاني، لا يسألني عن طول صمتي، ولا عزلتي في الغرفة وحدي، غزت الوساوس روحي، كثيرًا ما حاولت أنْ أقاوم هذه الوساوس والظنون وأستغفر الله، وأقول إنَّ الشيطان يلقي بيني وبينه، فتغلبني وساوسي مرةً، وأغلبها مرةً، أعيتني الحرب الدائرة في روحي، واكتملت عزلتي، فما عدت أخرج معه إلى الدكان، حتى الصلاة لا أصلّيها، كدتُ غيرَ مرّة أنْ أحزم أمري، وأعود من حيث أتيت، فكنتُ آخذُ نفسي بما بقيَ فيها من صبر، وأقول لقلبي: لننتظر قليلًا ثُم نحسم الأمر. والتيجاني على حاله كما هو، لا يتكلّم، ولا يسألني عن شيء، يدخل الغرفة فيضع طعامًا ويرفع آخر، حتى سألته:

- متى ينتهي كل هذا؟

- عندما يأذن الله.

- قد فشلتُ، أليس كذلك؟

- أنتَ لم تُختَبر حتى تفشل، ولستُ أمتحنك.

- هل تعلم أني أحملُ عليك في قلبي؟

- أعلم.

- وهل تعلم أنَّ الوساوس تراودني أنك تعبث بي، وتدخرني عندك عن سوء نية، وفساد قصد، وأنَّ الشيطان ربما نال

حظه منك، أكثر مما ناله مني!

- ليست هذه وساوس، والله إني لشرٌ من كل ظنونك، ما نظرت في قلبي إلا ورأيت فيه مثل الذي تقول، لم تجاوز الحق يا بني.

- قد تعبتُ، وإني ما زلتُ أُجلّك، فلا يحزنك قولي.

- لا يحزنني قولك، إنما يحزنني فسادُ قلبي.

- لم أرَ قلبًا أطهر منك، إنما هو الشيطان ألقى في نفسي، كي أغضب عليك وأبتعدُ عنك.

- اغضب، لكن لا تبتعد، فقد ربط الله بيننا، أنت سبيلي إليه وأنا سبيلك. لا تفلت يدك من يدي، فأنا أحوجُ إليكَ من حاجتكَ إليَّ يا حسّون.

قال ذلك وأجهش بالبكاء، انخلع قلبي لما رأيت الدموع تبلّل لحية شيخي، وهو يشيح بوجهه نحو الحائط، كيلا أرى دموعه، كرهتُ نفسي وندمت على كلامي الذي آذاه. لم ينكر تهمةً رميته بها، ولا رفع نفسه ولا دافع عنها، وأنا الذي اتهمته بالكبر وسوء الطوية، وألصقتُ به ما ليس فيه. ألقيت بنفسي بين يديه وعانقته فاختلطت الدموع بالدموع، وأنا أقول له:

- اغفر لي.

فمسح بيديه على رأسي وقال:

- غفر الله لي ولك.

- كيف يغفرُ لي وقد هتكتُ السِتر، حتى شارفتُ على أبواب الضياع؟!

- لن تضيع، مَن صفا قلبه فلن يضلَّ السبيل.

- لماذا دفعتَ بي إلى السوق الذي أفسدَ قلبي، بعدما صفا بالمسجد؟!

- لترى بعينيك الغيمة التي تحجب عنكَ قلبك، وتدركَ محنته، فإنْ أدركتها استحال الغيم مطرًا، وحيثما صَبَّ الغيثُ نَفَع.

- كان الأمر أكبر من محنة وغيمة يا سيدي، أهلكتُ نفسي بالمعاصي، وقعتُ في الزنا قبل أنْ أصل إليك، وفي السوق كدتُ أنْ أقع فيه مرة أخرى.

- ليست المعصية هَلَكَة، بل حبُّها هو الهلاك. وأنتَ لم تحب ما وقعتَ فيه.

أزال الشيخ وساوس قلبي، ورضيت عنه نفسي بعد الغضب، لكنني بقيت على عزلتي. عافت نفسي الطعام فلم أَمسَسْه أيامًا حتى وهنت قوتي، ثُم مرضتُ وضربَت الحمّى جسدي، كلما أفيق أرى وجه الشيخ، يبلّل خِرقةً يمسح بها جبيني، فيطمئنُّ قلبي بوجوده، ثُم أعود لسكرة الحمّى، وأغيبُ عن الوعي مرة أخرى، تختطفني الأحلام والهلاوس، أرى صفيّة تربطني من عنقي بحبل، وتشدّني نحو البحر، فيخرجُ من الموج قاربان، أحدهما أحمر والآخر أبيض، وكلاهما بلا مجداف، وأمي تقول لي: اركب. فأسألُها: أيهما أركَب يا أمي؟ فتقول: اِتبع قلبك. وأرى من بعيد سوار وعثمانة، تقفان على الشاطئ، تبكيان مِلحًا وتقولان: لا تركَب يا حسّون، البحر سيأكلك. ثُم تأخذني الهلاوس والخيالات بعيدًا عن البحر، فأرى نارًا خرجَت من المشرق، لها يدٌ عظيمة بها ألف إصبع من لهب، تدفعُني بها نحو المغرب، وعندما نظرتُ إلى حيثُ وجَّهتني

النار، رأيتُ الشمس بازغة فوق الجبل، بيضاء تنزف دمًا، والدمُ يحجب ضوءها، ثُم سقطت الشمس على رأس الجبل، فغطى الظلام كل شيء، حتى لم أعد أرى، ثُم ظهر القمر يبتسم لي، ففرحتُ وطرتُ ناحيتَه، وقد نَبتَ لي جناحان، فجاء صقرٌ جبار له أجنحة تسدُّ السماء، يحمل سيفًا بمخلبه، ضربني به فبترَ جناحي، وظل ينظرُ في عيني وأنا أهوي من العلياء، حتى سقطتُ على الأرض، ثُم طارَ الصقرُ نحو القمر وضربه بسيفه، فشقّه نصفين، فأخذت أهرول خوفًا من الصقر الجبار، حتى ابتعدت عنه، ونظرت حولي فوجدت أرضًا بيضاء، ليس بها إلا شجيرات الشوك، تخرج من بين أوراقِها حيّاتٌ تتكلمُ بألسنة لا أعرفها، وأيادٍ تخرجُ من بين الشوك فتدفعني للهاوية، وأخرى تمتدُّ فتنتشلني كلما أوشكتُ على السقوط. لا أدري كم يومًا بقيتُ في سعير المرض، بين الصحوة والغفوة تنتهكني الهلاوس والرؤى، ثُم زالت الحمّى وانسحبَت، بعدما سحبَت معها جسدي، فنقص وزني حتى برَزت عظامي، يدخل التيجاني ومعه العسل والجبن في الصباح، وعند الغداء يأتيني بلحم وفاكهة، حتى اشتد ظهري واستعدت عافيتي، قلتُ له: «اشتقتُ للصلاة». فقال: «هي تنتظركَ عند طرف قلبك، فافتَح لها».

بعد أسبوع واحد من زوال الحمّى تحسنت حالي كثيرًا، وبرأ جسدي، عدتُ لما كنتُ عليه أول الأمر، أذهبُ مع التيجاني إلى دكانه، وأحضَرُ معه دروس الجمعة التي يلقيها على تلامذته، أصاحبه في المسجد والبيت والدكان، لكن لا شيء يدفع عني حزني. وشيخي يشفقُ عليَّ ويجتهد ما وسعه الجهد أنْ يُخفف عني هو وزوجته، حتى أصبحتُ أشعر أني عبء عليهما. سألته الرحيل لكنه أبَى.

تأهبت ذات صباح كعادتي لأخرج معه إلى الدكان، فأخبرني إننا لن نذهب إليه اليوم، وإننا سنذهب إلى المسجد، فخرجتُ معه وأنا أظن أننا ذاهبان إلى المسجد القريب من البيت، لكنه استأجر سيارة حملتنا إلى مسجدٍ آخر، كانت وجهته إلى مسجد (عقبة بن نافع) ولم أكُن قد زرته من قبل، رغم وجودي في القيروان طيلة سنوات، سألني الشيخ:

- تعرفُ عقبة؟

- أعرفه، وأحتارُ في أمره.

- وما الذي يحيرك في أمره؟

- كانت لي صاحبة اسمها وسيلة، هي أول مَن عرفت في هذا البلد، وكثيرًا ما كانت تذكره، وتصفه بالغازي السفّاح، الذي أذلَّ أهل بلادها قديمًا واستباحهم.

- غفر الله لصاحبتك، تحدّثت بما لا تعرف، وتحزّبت لأجدادها فضَلَّ حُكمها.

- أليس من الوفاء أنْ يفي المرء لآبائه وجذوره؟

- كل وفاءٍ لغير مُرادِ الله خيانة.. «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

- لكنه لم يدعهم إلى الله، بل قتلهم واستعمرَ أرضهم.

- دعاهم إليه، وقاتلَ من قاتلوه، هُم من أرادوا صده عن إبلاغ مراد الله.

- لو مكثَ في بلاده ما قاتله أحد، هو من غزاهم في عقر دارهم!

- حملَ النور إليهم وحملهم إليه، وإنَّ من الناس من يدخلون الجنة بالسلاسل.

- أَوَلَوْ كانوا لا يريدون نوره؟!

- أرأيت لو أنَّ بيت جارك شبّت النارُ فيه، حتى أوشكت أنْ تأكل أهله، فهل تستأذنهم في إخماد حريقهم واستنقاذ أرواحهم، أم تقتحم عليهم البيت لتمنحهم الحياة؟

- لا تكون الهداية اقتحامًا يا سيدي، كيف يكون الدين جبرًا؟

- لم يجبرهم على شيء، لا أحد يزرع الإيمان في قلبك إلا إنْ أراده قلبك، أَخرِج جارك من الحريق، ثُم دعه يختار أين يقيم بعدها، وهذا ما فعله عقبة وأصحابه.

- ربما كانت أصولك عربية، ولذلك تدفع عن عقبة وترمي «الأمازيغ».

- بل من نسل الأمازيغ انحدرتُ، وربما قُطِع رأس جدي بسيف عقبة، لكن ولائي لقلبي وليس للأجداد.

- لماذا جئت بي إلى مسجده؟

- لأنه كان مثلك، غريبًا. لكنه أحبَّ غربته فأهدى بلادنا الإسلام، ولولاه ما كان الله يُعبدُ في هذه الأرض أبدًا.

- لستُ مثله يا سيدي، كان يحمل السيف ليصنع مجده، أو ينصر دولته ودينه، وأنا لا قضية لي، كل ما أريده أنْ أعرف نفسي.

- ربما لم يعرف عقبة نفسه إلا وهو يحمِل في هذه الأرض سيفَه، بل وربما لم يعرِفها إلا حين اتّخذَ قرارَه بأنْ يموتَ وهو يواجهُ جيشًا بأكمله، وليس معه إلا بضعُ عشراتٍ من أصحابه. تجربتك هي السبيل، فاصبِر عليها، لتبلُغَ مرادك، فإذا انقطعت بك كل سبيل، حينها تعرف نفسك.

- أنت دومًا تحيرني يا سيدي، ولا تقول شيئًا إلا إشارةً، ولا تجيب سؤالًا إلا بألغازٍ وأحاجيَّ كثيرة.

- ما أردتُ حيرتك قط يا بُني، أريد أنْ أدلك على طريقٍ ثُم أمضي.

- وأين هو الطريق وأنا أجهلُ كل سبيل؟!

- كسرُ الجناحين، ثَمَّ الطريق.

عندما حزمت أمري بالسفر إلى القيروان، أخبرت سوار حينها إني سأمكث بضعة أيام ثُم أعود، ومرت سنوات قضيتُها بصحبة التيجاني ولم أَعُد. وعلى مر هذه السنوات يتناوشني اليأس والرجاء، يحدوني الأمل حينًا ويضربني السأم حينًا، ومهما تبدلت حالي واضطربت نفسي، أُذكّرها أنني هنا لغاية، وأني بَعدُ لم أبلغها، فأحمل نفسي على الصبر حملًا، ومع الأيام اعتادت نفسي حالها، ترضى حينًا وتسأم آخر، لكنها لا تميل إلى اتخاذ قرارٍ ولا حسم أمرٍ، لا أفكر في الرجوع إلى تونس، ولا أتخيَّل العودة إلى حياة الصخب مرة أخرى في العاصمة، أو ربما كان عزوفي عنها لأنها موطن الذكريات الأليمة، تأقلمت على الحياة التي صنعها لي شيخي، فلا أجرؤ على التفكير في سواها، نفسي كانت أوهن من هذه الفكرة، فكيف أسعى إلى المغايرة وخلق حياة جديدة وبأي طاقةٍ أفعل هذا؟! أصبحت راضيًا بما أنا عليه، أو ربما عاجزًا عن التفكير في شيء يخالف ما أصبحت عليه، تعلمتُ صنعَة التيجاني وإنْ لم أشتغِل بها، ونهلتُ من علمه وإنْ لم أعمل به، أقضي في صحبته اليوم كله، نخرجُ في الليل إلى بيوت عضّها الفقر وغفل الناسُ عنها، فنطرقُ الباب ونترك ما جاد به الله على المحتاج، أذهب معه وهو يُصلح بين زوجين، أو يحكم بين متخاصمين فيرضيَا بما حَكم، وبعد العشاء نجلس فأقرأ عليه، ويشرح لي ما استغلقَ عليَّ

فهمه، ذات ليلة قلت له:

- أما آن يا سيدي أنْ تجلي عني حيرتي، صحبتك سنوات وكل يوم أنتظر الوصول إلى ما أعياني فهمه، ولم أصل، نعم وجدت الخير في صحبتك، وسكنت نفسي معك، غير أني ما زلت حائرًا، أريد أنْ أفهم ماذا يُراد لي، ولماذا دون الناس تحيط بي العجائب، لماذا أصبحت على مشارف التسعين من عمري ووجهي لا يتغير وجسدي لا تصيبه السنوات بالبِلى، لماذا كل هذه الأعاجيب منذ حبلت بي أمي، لماذا أختلفُ عن الناس ولست أمتاز عنهم بشيء؟!

- أعرف ما يدور بخاطرك يا ولدي، ويؤلمني ما يؤلمك، لله فيك مراد، لكنني لست أعرفه، وكم أخبرتك إننا لا نفهم مراده إلا بعدما يُتِمَّ أمره، فاصبر حتى تجد الشفاء من وجيعتك وتظهر لك حكمته.

- لو كان في الأمر حكمة لجلَّاها، ما أرى كل ذلك إلا عبثًا.

- لا يا بني، ليس في أمره عبثٌ، لكنَّ حكمة الله لها ظاهرٌ وباطن، ولا تُدرَكُ إلا بهما معًا، فمن شغلته الظواهر عمي عن سر البواطن.

- لا أفهمُ لحكمته ظاهرًا ولا باطنًا.

- لأنك لا ترفع عينيك عن نفسك، ولو تدبرت بقلبك لأدركت الحكمة في كل أمر، فكم كان باطن الأمر على عكس ظاهره، ولا يُدرَك هذا إلا بعين القلب. أجِبني يا حسّون: خلَقَ الله آدمَ للآخرة أم الدنيا؟

- للآخرة خَلقَه.

- هذا ظاهر الأمر لا باطنه. كان فيها؛ إذ أسكَنَه فردوسه وجاوَرَه في سمائه، فأنزَلَه منها وأبعَدَه عنها، فالآخرة ليست الزمن، بل السكن.

- إذًا للدنيا خَلَقَهُ.

- وهذا أيضًا ظاهره. لو أنه خلقهُ لها لما أماتَه، ولما جعلها سرّ كَبَدِه وعنائه، وما عُمِّر فيها من مُعَمَّرٍ إلا وهو يعلم أنها ليست سكَنَهُ.

- إذا لم يكُن خلقَه لا لدنيا ولا آخرة، فلأي شيء خلقه يا سيدي؟!

- ما زلت تنظر بعينيك، وتسأل قبل أنْ تتدبر! خلَق الله آدم للجنةِ أم النار؟ أجبني يا حسّون.

- للجنة.

- لو كان لأجلها خلقه ما أخرجَه منها، وما ترَكَهُ ليغويه شيطان ولا شجرة.

- إذًا للنار خلَقه.

- لو كان مخلوقًا لها لما بسطَ له طريقَ التوبة، ولا سبقَت رحمتُه غضبَه.

- حيّرتَني يا شيخي!

- «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ». الحُبُّ هو السرُّ بين الرب وآدم، ولأجل الحب نفخ فيه روحَه، لا لعمارِ الأرض ولا خرابها نفخ، ليس لأجل الجنة سَوَّاه، ولا لأجل النار خلَقَه، الجنة رغبة جسد والنار رهبة جسد، والجسد من طين، وما كان الله لينفخ من روحه لأجل رغبة الطين ولا رهبته، الحب هو الغاية والقلب هو السبيل. ذاك الشفاء لوجيعتك والجواب لسؤالك القديم.

- لم أفهم يا سيدي، كان هذا لآدم فما شأن ذلك بغرابة حالي.

- لا تنتهي آيات الله أبدًا ولا تتبدل حكمته، خلق آدم بغير أبوين، وخلق حواء بغير أُم، وخلق عيسى من غير أَبٍ، فظن الناس أنَّ هؤلاء كانوا نهاية المعجزات، والحقُّ إنَّ كل مخلوق له فيه آية، ومَن تَدبر أدرك سِر الله في نفسه.

- وكيف أُدرِك سر نفسي؟

- تدعوه بما وقر له من الحب في قلبك، فيكشف لك السر الذي أودعه فيك.

- إني أدعوه ليلَ نهار، ولم يستجب.

- تلك آفتك، جعلتَه وسيلةً لا غاية، أردته لأجل ذاتك، والحب أنْ تريده لأجله هو لا لأجلك أنت، أحبّه بغير غرض؛ يكشف لك سرّه فيك ويُزيل غربتَك، كما أزال من قبل غربة أبيك آدم بعدما اكتمل في قلبه الحب.

- وكيف يكتملُ الحبّ؟

- أنْ تكسِرَ الجناحين.

- وكيف يكون كسرهما؟

- لا تطلبه لدنيا، ولا آخرة.

- وكيف يكون ذلك؟

- انظُر لحالك في المسجد والسوق تجِد الجواب. ضَرَبَ الكِبرُ قلبَك وأصابك العُجب لما رأيتَ حُسن صلاتك وخلوتك في المحراب، حتى إنك ما خرجتَ منه إلا وقد أنكرتَ قلبك وشعرتَ بالغربة، والمحب موصولٌ بالحبيب في الحضرة والغياب، لا يحكمه مكان، يستوي قلبه في الحانة والمحراب. ثُم ذهبتَ إلى السوق ووقعتَ في المعاصي، حتى رماك اليأسُ بسهمٍ لا يُردّ، والمُحب لا يقنَط من رحمة الحبيب. وصله لا يُنال بطول عبادة، ورحمته لا تحتجب باقتراف ذنب، بالقلب وحده يكون الوصل، لا تتعلق به لخوف عذابٍ في الآخرة ولا طمعًا في حسن عطاء في دنياه ولا آخرته، اكسِر جناحَيّ الدنيا والآخرة ثُم اطلُب حبيبكَ تصل، وإنْ وصلتَ إليه دلَّك على نفسك، وأبصرت بعينيه لا بعينيك سرّه فيك، فتزول غربتك وتُشفَى وجيعتك.

«كسرُ الجناحين»، حسبتُه كتابًا خطَّهُ الشيخُ على الورق، فإذا به كتابًا مسطورًا على صفحة القلب، لم أنتبه إليه وهو يكتبُ كل يوم سطوره، يكتبها على قلبي، لا على الورق، كنتُ أنا صفحاته البيضاء دون أنْ أدري، كل يوم يغرز قلمه في روحي وينقش، ادَّخَرَ حياته لأجلي بعدما رأى في الكعبة رؤياه، وبشّر تلامذته بكتابٍ لم يروه قط، ولا عرفوا ما فيه؛ إذ إنَّ مَن كُتِبَ الكتابُ لأجله، لم يكُن قد جاء بعد، كان يُعد لي ميراثه من العلم والصفاء ليرضعني كل ما لديه، رضاعًا بغير فطام، حتى يفطمني الموت أو يفطمه، فلما عرفني وعرفته، جعل نفسه كالرجل الصالح الذي دلّ موسى على الخفايا وعلّمه ما لم يكُن يعلم، يرشدني برفق والدٍ رحيم، ويرقبني بعين أُم تخاف أنْ يُدرِك الغرقُ ولدها، يتركني حتى أكاد أنْ أسقط، فإذا سقطتُ سبَقَت يدُه يدَ الأرضِ، فلا يُصيبني جرحٌ ولا ينكسر مني عظمٌ، ثُم يدفعني لتجربة جديدة لأقفَ بعدما كنتُ أحبو، وأمشي بعدما كنت أقف، ثُم لأهرول بعدما كنتُ أخطو، يتعهدني بالصبر، ويرشدني بالأناة، ويُعلمني بالرفق واللين، حتى أكسر الجناحيْن وأبلغُ الغايةَ بغير وسيلة، أدركت لماذا أنا هنا، فرضيت نفسي، وتَعلّقَت بالتيجاني روحي، كما لم تتعلق قط بأحدٍ سواه، لم أَعُد أصاحبه لأجل الثمرة التي أُمنّي بها نفسي في خاتمة الرحلة، كان هو الثمرة والشجرة، أتلقف كل كلمة منه بقلبي، وتسكن كل إشارة تصدر عنه بروحي، إذا توجَّع تصدع قلبي، وإنْ تبسَّم طابت

نفسي، أجلس بين تلامذته في المسجد كواحدٍ منهم، لا أُظهر للناس مكانتي منه، ولا أتعالى بصحبته لي، أمتن لله وله، وأحب الله وأحبه، بقلبٍ لا يرى نفسه، لكن الهناء لا يدوم طويلًا، الناس يكدرون الماء الصافي حيثما حَلُّوا.

لم يكُن ثمَّة درسٌ يُعقَد بالمسجد يوم الجمعة إلا لشيخي، ثُم أصبح يُزاحمُه الشيخ «عبد الحميد الأثريّ» الذي تعمّد أنْ يعقِد درسه في موعد درس الشيخ نفسه، لم يُعَقّب التيجاني على ذلك قط، وعندما قلتُ له: «الأثري يسفّه مِمَّا تقول، ويُحرِّض تلامذته علينا، ويلمزُكَ في مجلسه ويرميك بالضلال. أفلا نرد عليه؟!». رفض ما طلبت منه، وأمرني بالصبر. لم يكُن الأثريّ أمينًا في نقده لشيخي، يزعُم لتلامذته أنَّ التيجاني يُبطل أساس الديانة ويهدِم أعمدة العقيدة، ويحمِل كلام الشيخ على غير وجهه، وزعمَ أنَّ الشيخ يُنكر الجنة والنار. تحدثتُ يومًا مع أحد تلامذته فقلتُ له: «لم يقُل شيخي بهذا، بل يقول إنَّ الجنة حقٌّ والنار حقٌّ، لكنهما الجزاءُ لا الغاية، وإنَّ سير المؤمن يكون لأجل حُبّه لربه، فإنْ تَمَّ حبُّه بَلَغَ الجنة وزُحزِحَ عن النار ففاز». فاحتجَّ تلميذ الأثريّ بأنَّ تلك منزلةٌ لا يبلغها كل الناس، وقال: «ضيَّقَ شيخُك رحمة الله فقَصرها على أعلى الهِمم». فقلتُ له: «لا، بل نَدَب إلى الخيرِ مَن استطاع، وليس في ذلك تضييق على الناس، بل استنهاض لهمَّتهم بكسر جناحَيّ الدنيا والآخرة، ليصل القلبُ بالحبّ وليس بالغَرَض». كاد تلميذ الأثريّ أنْ يميل إلينا، لكنني وجدتُه بعد ذلك لا يردُّ سلامي إنْ سلّمت عليه، فعلمتُ أنَّ شيخَه قد نهاه عني، ثُم أصبحَ الأثري يرسل تلامذته إلى مجلس الشيخ فيقاطعونه كلما تكلّم، ويكثرون من السؤال، والشيخ يردُّ على مسائلهم، ويبشُّ في وجوههم، ويدعو لهم بالهداية بعد كل جواب. ولعل ما أثار حفيظة الأثري ومَن على شاكلته، أنَّ الشيخ كانت له آراء لم يسبقه إليها أحدٌ، ولا طالعتُها في أي كتابٍ من قبل، وربما كان هذا ما أغاظ قلب حسَّاده ومُبغضيه، وأربَكَ عقولهم إذ لم يفهموا كلامه، وظنوه فتنة، فنبذوه. في أحد مجالس الجمعة قال الشيخ لنا:

- إنَّ العِلمَ يجعلُكَ تُحسِن السير في الدنيا، فتعدِل في الميراث إنْ قسّمتَه، وتعرف أركان الحج فلا تُخطِئ، وإنْ ذبحت أحسنت الذبح، وإنْ اختلفَت عليك نوازل العصر ومُحدَثاته استعصمت بالفِقه بأركانه وقياسه وإجماعِه، فيسلَم دينُك في الدنيا، وحبُّ الجنة وخوفُ النار يصِلُك بالآخرة فيحجبُكَ عن اقتحام الشهوات ويندبك إلى حُسن العبادات، فيسلَم دينُك في الآخرة. لكنَّ حبَّ الله وحدَه، والزهد في الدنيا، وعدم الالتفات لجزاء الآخرة، ذاك ما يَصِلُك بالعرش، فيسلَم قلبُك، وبسلامة القلب يَسلَم الدين، ويمتد الحبلُ بينك وبين الله بغير واسطة، فتتنزل حكمة الله في قلبك وترى بغير عينيك، وذاك عينُ التصوف وغايةُ السالكين من قبل، فتصبح ربَّانيًّا تقول للشيء كُن فيكون. وقد كان ذاك المقام للأنبياء وحدهم، فأخفوه عن العامّة حتى لا يُحمّلوهم ما لا طاقة لهم به، وورِثَهُ الصالحون عن الرسل من بعد، فكانوا للناس نورًا في الظُلمة، لم يبلغوا منزِلَة النبوَّة، لكنهم أخذوا بحظِّهم من مِشْكَاتِها؛ إذ الصالحون ظِلُّ الأشجار على الطريق إلى الله، أما الأنبياءُ فهم الشجر، ولن يقطع الطريقَ أحدٌ إنْ لم يقف على شجرته، ومَن لم يدرك الشجرة عرفها بالظل، والصالحون هم الظليلُ في وهجَ المسير.

ثُم ضرب الشيخ لنا مثلًا، يُبيِّن مقصده، فقال:

- لو شاء سليمان أنْ يأتي بعرش بلقيس، لأتى به بغير حاجة إلى عفريت الجن، ولا صالح الإنس، لكن الرسُل رسالتُهم الشريعة، أظهروها للعامّة وأبانوا حدودَها ووقفوا عندها فلم يجاوِزوها، أما شريعة القلب فكانت بينهم وبين الله خفية. وأما الكرامة والعلم الذي هو من لدن الله، فكان على يدِ عبادٍ من عبادِه لا على يد نبيه سليمان، ليكونوا آيةً للناس وحضًّا لهم على الطريقة، فجاء إليه الوليُّ بالعرش قبل أنْ يرتدّ إليه طرفه. الطريقُ للنبيّ، والطريقَةُ للوليّ، ولو خالَفَتِ الطريقةُ حدَّ الطريق، فهي ضلالٌ بعيد. للعوام فمُ النبيّ الجليّ، وللصفوة قلبُه الخفيّ، ولو أظهر أنبياءُ الله سِر قلوبهم لقال الناس: «هؤلاء رسُله الذين اصطفاهم، وأين لنا بقلب مثل قلوبهم؟!». ولذا خصَّ اللهُ العبادَ من غير نبوَّة

بآيات الوصول، حتى لا يكون للناس حجة، ولا تخلد همتهم إلى الأرض، فيتأسّوا بولاية الأولياء، الذين يتكلمون بصوت الله ويرون بنوره ما لا يراه سواهم، ومَن صفا قلبُه بَلَغ مبلغهم، وأُنظر إذا شئتَ إلى صاحب سليمان الذي جاءه بالعرش قبل أنْ يرتد إليه طرفه، أو إنْ شئتَ فلك في «الخَضِر» آية من الله؛ إذ آتاه ما لم يؤتِ نبيّه موسى، فجلس النبيُّ من العبد مجلس التلميذ، وتأدب بأدبه ولَزِم أمرَه وقال: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا».

بلَغَت مقولة شيخي مسامِع الأثريّ، فكأنما وقع على غايته التي يتربَّصُ بها.

اقتحم الأثري علينا درس الجمعة التالية ووقف وسط حلقة الشيخ وصاح به: «تزعُم يا تيجاني أنَّ الله يُؤتي العباد ما لم يُؤتِه الأنبياء، فجعلتَ الخضر خيرًا من موسى الذي هو كليمُ الله؟!». كَثُرَ اللغط في الدرس بعد مقالة الأثريّ، وهمهَم التلامذة وتصايحوا، والشيخ مُطرقٌ يمسكُ أصابعَ رجلِه بيديه ويستغفر، فنهرَه الأثريُّ لما رأى صمته: «أجِبني يا تيجاني، أم أنَّ لسانَك ينطلقُ بالفتنة عند زرعِها، ثُم يعجز عن الجواب حين اختبارِها؟!». نظرَ الشيخ إليَّ وأمرني: «أجِبهُ يا بني». وما أن التفتُّ إلى الأثريّ لأتكلم، حتى صاح في المجلس وهو يرفع يديه مباعدًا بينهما ويلتفت يمينًا ويسارًا إلى الجلوس: «عجزَ التيجاني عن الجواب، ويريد أنْ يدفع بعنق تلميذه لنَصْلِ سؤالي، وأنا لا أريد إلا عنقكَ أنتَ يا تيجاني». فرفع الشيخ رأسه وتحدّث بصوتٍ لا يخلو من نبرة الغضب:

- استأجرَ رسولُ الله مشركًا ليدلَّه على طريق المدينة يوم الهجرة، فدَلّه، وانتفَعَ النبيّ بعلمه. فهل إذا قلت هذا، أكون قائلًا بأنَّ المشركَ خيرٌ من النبي؟! جاء للنبيّ يومَ بدر جنديّ من صغار أصحابه، وقال له: عسكَرتَ خلف البئر يا رسول الله وما هذا بمنزلٍ للحرب. فأخذ النبيّ برأيه وعسكر أمامه فربح الحرب، أهذا يعني أنَّ الصحابي خيرٌ من النبيّ وأحكمَ منه؟! أشار «عمرُ» بقتل أسرى بدر، وأشار «أبو بكر» بالعفو، فأخذ النبيّ بقول الصِدّيق وهو خيرٌ من عمر عند أهل الإسلام، فنزل حُكم الله بأنَّ الحقَّ مع عمر، فهل قال الله أو قال أحدٌ من عباده بأنَّ الفاروق خيرٌ من الصِدّيق ونبيّه؟! وكذا أرسَلَ الله الخضرَ إلى موسى، فدلَّه على حِكمة الله، فلم يقُل موسى كيف ترسل إليَّ من العباد مَن يُعلّمني وأنا نبيَّك؟ ولا قال الله هو خيرٌ منك يا موسى. فما كان الخضرُ إلا يد الله التي هزَّت قلبَ موسى، ليستعصِمَ بربّه، لا بعَزمه. فكان الوليُّ وسيلةَ الله، وقلبُ موسى غايته، ولا تكون الوسيلة خيرًا من الغاية أبدًا. وإنما حكَمتَ عليَّ يا أثريّ لأنك رأيتَ ظاهر القول بعقلك، ولم تنفذ لباطنه؛ إذ أغلقتَ قلبك.

أفحمهُ شيخي، فزاد رَدُّ الشيخ حنَقَ الأثريّ وكراهيته له، حتى فضَّ الشيخُ مجلسه ولزم البيت، فما عاد يخرج إلا للصلاة.

تمت عشر سنوات قضيتها بصحبة التيجاني، لم أغادره فيها قط، ولم أرَ سوار إلا مراتٍ قليلات حينما كانت تأتي لزيارتي، اشتاقت نفسي إليها، فقد غبتُ عنها طويلًا، وتركتها بلا رفيق وهي التي لم تهاجر لأجلي، وكانت على الدوام جداري الحصين، استأذنتُ الشيخ في العودة إلى العاصمة لأطمئن عليها، ولأنظر كيف تسير المكتبة، فأَذِنَ. أوصاني بنفسي وقال: «اِصبر على بلوائك فسيختبرُ الله قلبك، ثُم اِئْتِني بعد عام، ولا تُطِل غيبتك». قبّلتُ رأسه ويديه، ثُم تركته ورحلت.

استأجرتُ سيارة ورجعت إلى العاصمة، فكأني لأول مرة أراها، تغيّرت كثيرًا، المنازل والطرق كما هي، لكنني أُنكر كل شيء أراه، كأني لأول مرة أراه، ربما أنا مَن تغيرت لا المنازل والطرقات. عندما دخلتُ المنزل عانقَتني سوار بشوقٍ كبير، وددتُ أنْ أنفلتَ منها، أو أصدّها، لكنني لم أستطع جرح شوقها الغامر، فاكتفيتُ بإرخاء يدَيّ، وتركتُ العناقَ لها حتى انتهَت. كبُرَت سوار، وضرب الشيبُ شعرها، مازَحتُها: «شابت سوار الجميلة». فقالت: «ماذا تنتظر من خمسين سنة أنْ تصنع بالجميلة، هل تظن كل الناس مثلك لا يشيبون؟!». مكثت في البيت عدة أيام، لا أقوى على مخالطة الناس من

جديد، والعودة إلى حياتي القديمة قبل عزلتي في القيروان، لكنني استحيت من سوار التي تركت لها حملًا ثقيلًا لعشر سنوات، فعُدت إلى المكتبة لأرعاها، أقضي فيها اليوم كله، وطلبت من سوار أنْ تأخذ قسطًا من الراحة ولا تذهب إلى المكتبة، فلم تعترض، ثُم لَزمت البيت فما عادت تخرج منه إلا نادرًا، كأنها كانت تنتظرُ قدومي لتعطي جسَدَها حقَّه في التعب، فأخَذَه. خلدون ما زال كما تركتُه منذ عشر سنوات، يحبُّ العمل ولا يكِلُّ منه، أرى في وجهه رغبةً في استكشاف سر غيابي، لكن يمنعه الخجل، يتحدث في أمور لا عَلاقة لها بالعمل، وهو يأمل أنْ يحملني الحديث إلى ذِكر سر تغيبي، وأنا صامت لا أذكر له شيئًا عن هذا، حتى غلبه فضوله فجاء إليَّ مترددًا وسألني:

- أين كنت كل هذه السنوات؟

- ألم تخبرك سوار؟

- أخبرتني إنك بالقيروان، لكنها لم تقُل لي ماذا تفعل هناك.

- كنتُ أرتاح.

لم يلحَّ في السؤال أكثر، ربما ظن أنَّ مقتل عثمانة دفعني للرحيل، فلم يشَأ أنْ ينكأَ الجرح، وحسنًا فعل.

ذكّرَتني المكتبة بالأربعين يومًا التي ألقاني بها التيجاني في حومة السوق، تذكّرتُ ذاك الجناحَ العَصِيّ على الكسر، فعزمت أنْ أكسره، كنتُ أتجنب النساء ما استطعت، وإذا لزم الأمر أنْ أباشر البيع لهن، كنت أغضّ طرفي، وأقصُر القول. أقضي أغلب الوقت في قراءة القرآن، وعندما يتساءل خلدون مُتعجبًا من مداومتي على المصحف، أقول له: «أُحبُّ أنْ أعرف كلمة الله بكل لسان». دومًا كنتُ أنسى أنَّ الناس هنا يعرفون أني: يونان اليهودي، لا حسّون ابن الدينين. دخل علينا شهر رمضان بعد وصولي إلى العاصمة بشهرين، وكنا في هجير الصيف وحروره، تعلّمتُ من شيخي أنَّ أَرجَى العبادات، هي التي يَفرُّ منها جسدُك، فكنتُ أتعمد أنْ أقضي اليوم كله في المكتبة لأكابد الصوم، وأنصرفُ قبل المغرب بساعة واحدة، لأُفطر في البيت، الصلاةُ كانت المعضلة، فكنت أذهبُ إلى مسجدٍ في حيّ بعيد عن المكتبة، حيث لا يعرفني أحدٌ وأُصلّي، الإقامة في تونس أرهقتني، كنتُ أتأذَّى من كل شيء، وحيثما وجهت وجهي وجدت الغواية ترصدني، وددتُ لو أعود إلى القيروان، ولولا سوار لحزمت أمري، أكرهُ أنْ أتركها للوحدة من جديد، بعدما رأيتُ تعَبها وميلها للراحة، حدّثتُها بما في نفسي، فقالت:

- لا فرق بين تونس والقيروان، أنتَ فقط كنتَ تُغمض عينيك هناك، ماذا كنتَ تفعلُ في القيروان طيلة عشر سنوات غير ملازمة المسجد وبيت التيجاني؟!

- لا شيء سواهما.

- العالَم ليس المسجدَ وبيتَ شيخك يا حسّون، العالم لا يختفي لأنك أغمَضت، فوقتما تفتح عيونك ستراهُ يُحيط بك، كما يكون هو، لا كما تَرجُوه أنت.

- ربما كان قولك هو الحقيقة، ولكن هذه الحقيقة ليست سهلة يا سوار، ماذا أستطيع أنْ أفعل؟ أنتِ تطالبين رجلًا وسط المتاهة ألا يفتح الأبواب وألا يثق بها، والباب الوحيد الذي رأيت فيه المخرج، تقولين لي لا تثق به!

- متاهة تعرف أنها متاهة، خير من طريق تظن أنه الحقيقة وهو يخدعك.

- أتعبني التيه يا سوار، أريد الإيمان بشيء، حتى لو كنت أدرك في قرارة نفسي بأنني لست مؤمنًا به. كيف أستمع للصوت الذي يقول لي أنت تائه وستظل إلى الأبد، وأترك الصوت الذي يقول لي تعال سأدلك على الطريق؟ حتى لو كان

الصوت الآخر خديعة، فلن يكون اتِّباعه أفدح خسارة من اتِّباع الأول. أنا بحاجة لهذا الإيمان الذي تسكن له نفسي.

- منذ عرفتك وأنت تقول: أريد أنْ أعرف حقيقة نفسي وأراها. وبهذا لن تعرفها ولن تراها، أنتَ تشرب مخدرًا يمنحك الهلاوس، ثُم تزعم أنها حقيقتك التي كنت تبحث عنها، وما هي إلا خيالات تخدع بها نفسك وتضللك عن حقيقة وجهك!

- لا تبالغي في قسوتك يا سوار، أنت تحملين لي مرآة وتقولين: انظر. وأنا لا أريد النظر، لأني لن أرى إلا شبحًا لا وجه له، فدعيني أتخيَّل أنَّ لي وجهًا، حتى لو لم يكُن لهذا الوجه من وجودٍ قط.

ما زالت سوار ترفع عني الغطاء، وكلما أردتُ أنْ أختبئ من نفسي؛ حَملَت المَرَايا ووضعتها أمام وجهي، وقالت: انظُر.

كنت أظن أنَّ السنوات العشر التي قضيتُها مع التيجاني جعلتني قويًّا، لكنني أصبحتُ أكثر تهافتًا، أَسرفتُ في الحفر داخل نفسي، وبالغتُ في بناء الأسوار من حولي، وكلما أقول تحررَتُ؛ أجدُني داخل الدائرة الأولى. يرفع أحدهم الحبل عن عنقي ليضَعَه آخَر، تتغيّر الأيدي، لكنَّ الحبلَ واحدٌ. صارت روحي تملُّ كل ما حولها، يناديني العالَم لأتبَع سيره، أوشِكُ أنْ أُلقي بنفسي في لُجّة الحياة، فأتذكّر قول شيخي: «اصبر على بلوائك، فسيختبرُ الله قلبك». فأعضّ على جذعِ الصبر وأقبضُ على جمرتي.

كاد العام أنْ ينقضي، وكعادتها لا تمرُّ السُّنون إلا بعدما ترمي قلبي بسهمِها، سقطت سوار واشتد عليها المرض، أخبرني الأطباء إنَّ السرطان يرتع في دمها، أخذتها إلى أفضل مستشفى في العاصمة، لازمتها غرفتها، ولم أترُكها ساعة واحدة، كانت تذهب في غيبوبة طويلة، وحين تفيق تبتسم لي وتقول: «لا تحزن يا حسّون، أنا راضية جدًّا، كنت أظن أني سأموت وحيدة، لكن ها أنت بجانبي. الحياة كلها لا تساوي شيئًا، لو أنك لم تجِد قلبًا يحبُّك يجلس بجوارك عند موتك، وقد كانت الحياة كريمة معي، فها أنتَ بجواري، ألستَ تحبُّني يا حسّون الوديع؟». عقدت كلماتها لساني فلم أنطق، كنت فقط أمسحُ على شعرِها، وأضع رأسي على صدرها، وأبكي. في آخر أيامها قالت: «خذني إلى جربة، أريد أنْ أكون بجوار جدّي، أريد أنْ أموت بينكما، اشتقت لجمعنا القديم». عارض الأطباء رغبتها، وحاولتُ أنْ أثنيها عن طلبها، ووعدتها أنْ نسافر إلى جربة حين تتحسّن صحتها، لكنها كانت تعلم أنها لا تمتلكُ الكثير من الوقت، فأصرت على مطلبها، واستجبتُ لها. سافرنا إلى جربة وفتحنا البيت القديم، قمت بنفسي بتنظيف غرفة واحدة، اختارت سوار أنْ تكون غرفة جدّها، اشتريت وسادة وملاءة جديدة حتى يصلح السرير لنومها عليه، وافترشت الأرض بجوارها، مكثنا في البيت يومين، وفي صباح اليوم الثالث فتحت عينَي فوجدتها في كامل ملابسها وقد بدت العافية على وجهها، وقالت: «تجهّز لنذهب إلى قبر جدّي». ذهبنا إلى قبر مراد بن يوشع، فأشرقَ وجهُها كأنما غادرها المرض، مسَحَت يدُ الشوق مواجِعَها وغسَلَت الدموعُ آلامها، ثُم جثَت على القبر وقالت: «اشتقتُ إليك يا جدّي». فطارَ عصفورٌ من شجيرة فوق القبر، كأنه روح جدّها تقول: «وأنا اِشتقت». لم نعُد إلى البيت معًا مثلما غادرناه معًا، مدَّ الموتُ يدَه ليجمع بين الشتيتيْن، أصابتها رعشة، ثُم أخذ جسدها يرتعد ثُم يسكن، ثُم يرتعد من جديد، أرخيتُ جسدها على الأرض، ووضعتُ رأسها على فخذي، نظرت في وجهي وهي تجاهد كي تُخرِج بسمةً أخيرة، طفرت الدموع من عيونها وتراخت البسمة مستسلمة للمواجع، فلم تخرج. قالت وهي تجاهد آلامها:

- كم أحبك يا حسّون.

ثُم صمتت، وعادت الرعدة تضرب جسدها من جديد، قلت لها:

- سأطلب سيارة إسعاف تأخذنا لأقرب مشفى.

- لا، انتهى الأمر، إني أرى وجه جدّي خلف رأسك. أخبرني يا حسّون هل سأدخل النار؟

سؤال صفية عاد من جديد، كل يومٍ أُسلِم حبيبًا للموت، ويسألني أنا التائه: أين يكون المصير؟ فقلتُ لها كما قلتُ لصفية مِن قبل:

- لا أعرف يا سوار.

فحاولَت مرة أخرى أنْ تبتسم، ومرة أخرى فشِلَت، قالت:

- أحسُّ بالبرد في عظامي، يده تتسللُ في دمي.

فمسحت على رأسها وقلتُ:

- اِطمئني، تلك يدُ الله أتَت لتنزع الشوكة، فلا أَلَمَ بعدها.

- إني خائفة.

- لا تخافي، هو طيبٌ ولن يجمع أَلَم الحياة والموتِ على الودعاء الطيبين.

صدَّقَتْ وعدي، ونجحت أخيرًا محاولتها، ماتت وفوق شفتيها بسمة.

أخذتُ جثمان رفيقتي إلى المعبد، فغسلتها وكفنتها، ومضينا بها إلى القبر، صليت عليها صلاة «الكاديش» وتلوت آيات الموت بنفسي، ثُم مزقت ردائي فوق قبرها ووضعت الحجر عليه بيساري، ودفنتها في قبر جدّها، ولم أنتظر أيام الحداد السبع، عُدت إلى تونس وحدي.

اكتملَت غربتي، كل هذا الخراب لي، لي وحدي. لأول مرة يخلو البيت من سوارِه الجميل، سوار لم تَعُد فيه، أضربُ الجدارَ برأسي ليتوقف سيلُ الفِكر، ولتكفَّ الذكريات عن سحقي، فيتصدع رأسي ولا تتوقف. أحاولُ النوم، فهذا الليل طويلٌ جدًّا على روحٍ مُهشّمَة، والنوم صديقٌ خائن لا يأتيكَ أحوج ما تكون إليه، أدور في البيت مثل ثورٍ في ساقية مُعطّلة، لا هي تأتي بالماء، ولا هو يرتاحُ من السير، كانت هنا زهرتان، فرحلَتَا، وبقيَ الغرابُ وحيدًا، أنادي عثمانة، فلا تجيب. أصيح على سوار، فلا تسمع لي صوتًا. لا حبيبَ هنا، ولا صاحبة، كما لا أُمَّ لي ولا والد، حسّون المنبوذ سيبقى للأبد وحدَه، حسّون المُـلقَى حيث لا أحد، جذعٌ بلا جذورٍ ولا ثَمَر، مقطوعٌ رأسه، مبتورة أصوله، ينتصبُ فوق الأرض بلا غاية ولا نفع.

قررت الرحيل عن تونس كلها، لكن لا يمكن ألا أَفي لشيخي بما وعدتُ به، وقد انقضى العام. رجعتُ إلى القيروان، ما إنْ رآني التيجاني حتى قال:

- ما الذي أطفأَ نور عينيك يا صاحبي؟

- ماتت سوار.

- لله الأمر، وربُّك الرحمن.

- أمثلُ سوار تدخل النار يا سيدي، ومن هو كالأثريّ موعودٌ بالجنة؟!

- لا نحكُمُ لأحد بجنة ولا بنار، ذاك شأنُ المَـلك، لا العبيد.

- لكنَّ الله توَعّدَها بالنار ككل يهوديّ.

- «الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

- تَعِبتُ.

- كُلُّنا تَعِب، فاصبِر، حتى تكتملَ كأسُكَ وتنتهي رحلتُكَ يا مسكين.

- أتعَبَني طول الصبر يا سيدي، حَملٌ عجيب، أبوان وديان، عمرٌ طويل، ووجهٌ لا يتغيَّر، ما كل هذا العبث؟! ماذا يريد؟ أساطير ولا معنى، مطرٌ غزيرٌ وأرض جدباء، شجرٌ ولا ثمر، ماذا يريد؟ تسعون سنة وهو يقذف بي من قاعٍ إلى قاع، كتابٌ كبيرٌ ولا سطر فيه، ماذا يريد؟ ألستَ صوفيًّا يكشِفُ الله لك، ألم تأتِني رسالتُكَ وأنتَ لم تكتُبها! فبحقِّ كرامتِكَ عليه أخبِرني، ماذا يريد؟!

- لا تَنقِم على ربِّك يا حسّون، لا أعلمُ حكمته في أمرك يا بنيّ، أدعو الله لك في كل سجود، وأسأله أنْ يُنير بصيرتي لعلّي أُريح قلبَك. اصبر يا بني فمحنتُكَ حكمة لا عبثَ فيها، وحقٌّ لا ضَلال معه، لسنا دومًا نفهم ما يريده الله لنا، ولا يسعُنا إلا الثقة به وتجرع الصبر المرير، حتى تُزيل يده ستائر العتمة ونرى سر الحكمة. ما لا أرتابُ فيه أنَّ قلبك هو المطلوب، وأنَّ رحلتك ما زالت طويلة، والرهان على ذاك القلب، أيظلُّ على صفائه أم تُكدّره النوازل؟

- حسنًا، ليكن ما يكون، سأرحل عن تونس كلها، فقط جئت لأودعك.

- لا ترحل، فذاك هو الفخ، منذ مولدك وأنت تُساقُ بعصا القدر، فانتَظِر حتى ترى ما يصنعُ الراعي، الربُّ جَوَّادٌ يا بنيّ، ثِق به ولا تخرج إلا إذا أخرجَتكَ يدُه، تلك آخرُ وصيّة أوصيكَ بها.

- روحي يائسة يا سيدي، متى يأتي الأمل؟

- حين يزولُ يا بُنيّ.

قبَّلته بين عينيه وقلتُ:

- ليكُن ما أرادَ. سأعودُ إلى العاصمة، إني أرى غبار الموت على وجهك، وقد سئمتُ من رؤية أحبَّتي يموتون بين يديّ، كلما أودَعتُ حبيبًا القبر، ناداني آخَر لأُسلِّمَه.

- ها أنتَ قد أصبحتَ ترى بعين قلبك، وقد صدَقَكَ والله، إني أحسُّ أنفاس الملائكة تناديني. كُن سالمًا ولا تقنط من رحمته، اذكُرني يا حسّون عند سجودِك، فإنه يحبُّكَ يا بنيّ.

لم تمرَّ أيامٌ على عودتي إلى تونس حتى أتاني الخبر، مات التيجاني، واكتمَلَت الدائرة. غير أني غلبَتُ الموتَ هذه المرة؛ إذ أغمَضتُ عيني بالرحيل، فلَم أُبصِر موته.

عملت بوصية شيخي ومكثت في تونس سنوات طوال، استسلمتُ فيهن لعزلتي، أضاء التيجاني عتمة قلبي، لكن منحني النور سوادًا، والبصيرة مؤلمة، فقد رأيت القبائح بدقة مُؤذية، الزيف يحيط بي في كل خُطوة، وأنا أريدُ شيئًا حقيقيًّا، أو حتى يشبه الحقيقة، بحثتُ عن «وسيلة»، صديقتي القديمة، وأول مَن مدَّ إليَّ يدًا في هذا البلد، سافرتُ إلى المُكنين وتوجّهتُ إلى حومة القلالات، حيث مَسكَني القديم، وجدتُ الغرباء يسكنون البيت، وعرفتُ أنَّ أخاها بلحسن قد باع المنزل، ثُم سافر مع زوجته إلى فرنسا بعد موت أُمهما، بحثتُ عن وسيلة في كل مكان فلم أجدها، حتى عرفت أنها تعيش وحيدة بغرفة مستأجَرة في ولاية (المهدية)، وصلتُ إليها أخيرًا. تغيّرَت وسيلة، حتى إني لم أعرِفها حين رأيتها، لكن هي عرفتني؛ إذ إنَّ ابن المائة عام لم يتغيّر في وجهه شيءٌ، تجاوزت وسيلة الخمسين ولم تتزوج، الفقرُ يملأ غرفتها، لكن روحها ما زالت عزيزة، طلبتُ منها أنْ تنتقل معي إلى تونس، فأبَت في بادئ الأمر، ثُم رضِيَت أمام إلحاحي وقَسوة وحدتها.

أخذتُها لبيتي، ثُم اشتريتُ لها منزلًا لتكون فيه حُرة، أزورها من حين لآخر في منزلها الجديد، لأطمئن عليها وأُسلي وحدتها، ووضعتُ لها مبلغًا كبيرًا بأحد البنوك، لتعيش من فائدته، لم أنسَ جريمتي القديمة بحقِّها، أردتُ بما قدمته لها أنْ أمنَحَها بسمة، حتى لو كانت بسمة قصيرة الأمد، فهي ولا شك ستتبع قافلة الراحلين، لكن الفراق لم يَعُد بقسوته القديمة نفسها، أصبحت أنظر للأمر على أنه لا أحدَ يموت، هو فقط لم يَعُد هنا.

كانت وسيلة أول من دلَّني على القيام بعملٍ له قيمة، وكانت مرة أخرى هي سبيلي إلى إيجاد معنًى للحياة، أدركت على يديها أنني إنْ عجزت عن صُنع بسمة على شفتي، فلن أعجَزَ عن وضعِها على شفَتَي غيري، وحينها قد يُصيبني شيءٌ من سعادتهم. بعدما ماتت وسيلة أصبحتُ أبحثُ عن الحَزَانى في كل زاوية، أبحثُ عن الفقراء كما يبحثُ الغريق عن يدِ المُنقذ، فما تركتُ موضِعًا إلا وغرستُ فيه بسمة.

ثروة طائلة صارت في حوزتي، بعدما آلت كل ممتلكات سوار إليَّ، غير الذي كنت أمتلكه من قبل. أموالٌ لا تعني لي أي شيء، أجود بها على كل من كانت له حاجة، أُعطي المال بالمجان، لعلني أجد السَّكينة بالثمن، أصبح بيتي قِبلة الفقراء، يُسمِّيني البعض: «اليهودي الكريم»، وآخرون يقولون: «يهوديٌّ يغرّر بالفقراء ليدعوهم إلى يهوديته»، وفريق ثالث يقول: «بل هو يهوديّ في العلن، لكنه أسلَمَ سرًّا»، وأنا صامتٌ عن الجميع لا ألتفتُ لقول أحد، أقضي النهار في المكتبة، وفي الليل أسعى لقضاء حوائج الناس، ثُم قررت الابتعاد عن بيتي وعن العاصمة كلها لأتقي شرَّ المخالطة، وخوفًا من افتضاح أمري، الفقراء في كل مكان والمال وفير عندي، عطاء هنا كعطاء هناك، فأصبحت أتنقل بين ولايات تونس لا أستقر بمكانٍ.

مرَّ قرنٌ من الزمان تغيّر فيه كل ما حولي، يقوم نظامٌ ويسقط، ويأتي بعده آخر، كلهم يتشابهون، فقط أسماؤهم هي ما تتغيّر، هؤلاء يمين وأولئك يسار، علمانيون وإسلاميون، راياتٌ تختلف وطريق واحدٌ غايَته السِّيادة، وكذلك انقلبَ عالمي القديم؛ إذ زال خوفي من يد إسرائيل التي تبحث عن «مسيحها المـُخَلِّص»، ربما كان الحاخام باروخ على حق، حين أخبرني إنَّ السلام هو ما سيقضي على دولة اليهود، تذكرت قوله حين كان يجادلني: «السلام! هذا تحديدًا هو الذي سيقضي على دولتنا، هل ترى شيئًا يجمع بين شعبنا؟ أي شيء غير اليهودية؟! أجناسٌ تختلف، سودٌ وبيض، عربٌ وعجم، لا شيء يجمعنا إلا الأسد الذي يتربص بنا، الخوف وحده هو الذي يحفظ هذه الدولة، فإنْ زالَ خوفها زالت». صدق باروخ، فما أنْ حَلَّ السلام وانتهى الخوف وصارت إسرائيل حبّة في العِقْدِ العربي، حتى ذابت كما تذوب قطعة الملح في الماء، انتهت الحرب وصار الفلسطيني إسرائيليًّا، واليهودي فلسطينيًّا، ثُم انكسر الطوق، وفُتِحت الحدود مع دول العداء القديم، زال الخوف وانتهت أسطورة الأسد المتربص، ومعها انتهت إسرائيل، وتحققت نبوءة باروخ القبيح. قنبلة «الذُّرِّية» سحقت دولة الهيكل، أرحام العرب لا تنضب وذُرّيتهم كشجرة اللبلاب لا يتوقف نماؤها، بينما أرحام اليهود معطوبة، مُهودهم خاوية وقبورهم عامرة، أُمَّة تأكُلُها الشيخوخة، لا يخلو بيتٌ فيها من أنين العجائز والعويل على الراحل، وبوسطهم ومن حولهم عربٌ يتكاثرون كشعاب البحر، لا يخلو بيتٌ من بيوتهم من بكاء الأطفال، والضحك للوليد القادم. ذابت إسرائيل في بحر العرب، سقطت دولتهم وأمسكَ العربيُّ عصا الراعي، وصار اليهود رأسًا في القطيع، لا غير.

لم تَمَّحِ إسرائيلُ وحدها؛ إذ حَلَّ زمنُ الزوال الكبير، فلم تَعُد تونس دولة تحدّها الحدود، اتحدت مع (المغرب) و(الجزائر) وصاروا جميعًا دولة (المغرب الكبير)، قالوا إنها وِحدة الخير والنماء، والناس يقولون بل تمَّ إجبارنا عليها، وأيًّا كانت الحقيقة فقد صارت الدول الثلاث دولةً واحدة، أو قُل عادوا دولةً واحدة، ولم تمرَّ سنوات حتى دخلت (ليبيا) في حزامهم الكبير، قالوا إنَّ العرب صاروا أُمَّة يُعتد بها، وبلغَت الشعوب راحتها، لكن قوافل الفقراء الواقفة أمام بابي تقول إنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، لتكُن لهم دولتُهم، ليتَّحدوا أو يتفرقوا كيف شاؤوا، كل ما رجوته أنْ يتركوني، لا أبغي خيرَهم،

أردت فقط ألا يمسَّني شرُّهم، لكنهم فعلوا.

فَضَحَتِ المكتبةُ سرّي. قضيت عشرات السنين غريبًا لا يعرفني أحدٌ، أنتقل من ولاية إلى ولاية، حتى لا ينتبه أحدٌ إلى سرّي، فكنت أبتعد طيلة هذه السنوات عن تونس العاصمة، وأوكل أمر المكتبة إلى عُمَّال من غير أهل تونس، حتى إذا طال مكثهم أجزلت لهم العطاء وصرفتهم إلى بلادهم، ثُم أستقدمُ آخرين يقومون بشأن المكتبة، فإذا تطاول بهم العمر عندي، صرفتهم إلى بلادهم مكرمين، مثلما صرفت مَن كان قبلهم، قرنٌ من الزمان وأنا شريدٌ في البلاد، أستأجر المنازل في المدن التي لا تعرفني، أقيم فيها حينًا ثُم أنتقل إلى غيرها، حتى كانت سقطتي الكبرى حين غلبني الحنين إلى بيتي الذي جمعني بسوار وعثمانة، أخلدت إلى السكينة ومعاقرة الذكرى، وعُدت إلى العاصمة، أعيش في بيتي ولا أتغيب عن المكتبة، ظننت أنَّ أحدًا لن يعرفني، فقد مات كل مَن عرفني هنا قبل مائة عام، لكن حكايات الناس عن البيت وصاحبه اليهودي لم تمت، رغم مرور قرن من الزمن، تناقلت الأجيال حكاية يونان اليهودي الذي قُتلت زوجته المسلمة، ومرت القصة من الأجداد إلى الأحفاد. عزمتُ على ترك العاصمة من جديد بعدما كَثُرَت الأقاويل من حولي، بعضهم يقول: هو يهوديٌّ ساحر، يُسخِّر الجن ليدومَ شبابه. وبعضهم يقول: بل هو شيطان يتخفى في وجه بشر. ومَن يقول: إني وقعت على عُشبة الحياة، تلك التي لا يشيخ مَن يأكلها. تسربت أساطير العامّة للصحافة قبل أنْ أتمكن من الهرب، فكانت محنتي التي طالت قرونًا.

«رجلٌ جاوز عمره مائة سنة ولا يشيب». هكذا كتب صحافيّ في جريدة «ديهيا»، الجريدة الرسمية للمغرب الكبير، ووضع تحت العنوان صورة للمكتبة، وفي الصورة ظهر تاريخ تأسيسها بوضوح فوق اللافتة: «مكتبة الجبل - تأسَّست سنة ٢٠١»، وقد أصبَحنا في عام (٢١٣٣). حتى طفلٌ صغير كان سيفهم السر من صورة اللافتة، حين يقارنها بصورة وجهي في ذيل المقال. وجهي يقول إني رجل في الأربعين على أكثر تقدير، بينما قد مر أكثر من قرن على تأسيس المكتبة، ومؤسِّسُها لا يزال في الأربعين أو هكذا يبدو! انقلَب عالمي رأسًا على عقب.

اقتادوني لمحبسٍ، وقالوا إنه مركز أبحاث لا معتقل، تقاذَفَتني يدُ العرب والعجم، كلهم يسأل: لِمَ أعيشُ ويموتون، ولماذا لستُ أكبر؟ وأنا صامتٌ لا أعطي السائل جوابًا، تركتهم في تيههم يتخبّطون. كنت أحسبُ أنَّ هلاكي سيكون على يدِ اليهود، الذين طاردوني طويلًا، فلما انتهت دولتهم، وعادوا لشتاتهم القديم، قلت زال الخطر، فجاءني الخطر من حيث لم أحتسب، قرنان من الزمن يطاردني فيهما الدين، فلم يمسك بي، وفعلها «العِلمُ» في يومٍ واحد، بمقالة كتبها صحافيٌّ مُنتَهِك، فخ العلماء أحاط بي، ولا نجاة!

علّمني شيخي أنَّ كل مَن نظر إلى الشمس، لم يرَ، وأنَّ الحقيقة تُدرَك بأثرها وليس بالنظر فيها، وهم لم يعرفوا شيخي فلم يهتدوا بنوره، يصرُّون على التحديق فيَّ، فلم يروني. بعد طول صمتٍ قررتُ أنْ أفضح عجزهم، فتكلمت، اجتمع حولي عشرات من علماء المغرب الكبير، تذهب طائفة وتأتي أخرى، سألوني عن سنة مولدي، قلت لهم:

- تريدون سنة مولدي بأي تأريخ؟ أبي المسلم، أم أمي اليهودية، أم بتقويم ميلاد المسيح تريدون؟ إذا أردتم تأريخ أمي العبرانية فقد ولدت سنة (٥٦٩٨)، أما لأبي العربي فقد كان مولدي سنة (١٢٥٧)، أما بتاريخ المسيح فقد وُلدت في قرن الشمس سنة (١٩٣٨).

ارتابوا فيما قلتُ لهم عن مولدي، ولم يصدقوا أنَّ عمري قد بلغ مائةً وخمسًا وتسعين سنةً. أخبرتُهم عن موضع صندوقي المُخبَّأ في بيتي، فجاؤوا به، ورأوا شهادة ميلادي اليمنيَّة تتحدّاهم وتثبتُ تاريخ مولدي.

أتى وفدٌ من علماء الآثار ففحصوا الخنجر، ونسختيَّ من التوراة والقرآن، وشهادة ميلادي، وجواز سفري الإسرائيلي، فأكدوا أنَّ عمرهم جميعًا متقارب، ولا يقلُّ عن قرنين من الزمان. عقولهم ترفض ما تقرُّ به أعينهم، فوقفوا عاجزين أمام

الحقيقة التي لا يُرَدُ برهانها، قالوا:

- لكن شهادة الميلاد لشخص اسمه حسّون، وأنت يونان!

- انظروا في جواز السفر الإسرائيلي القديم، ستجدون أنَّ اسمي مكتوب فيه: حسّون. وانظروا في الصورة على الجواز، وسترون الوجه الذي أمامكم.

- فمَن يونان الذي يثبت كل شيء هنا أنه أنت، وأنه تونسيّ لا يمني ولا إسرائيلي؟!

أخبرتُهم قصتي مع مراد بن يوشع.

أوراقٌ مُوثقة تقول إني تونسيّ، وأخرى تؤكِّد أني إسرائيلي، وثالثة تقطع بأنَّ أَصلي من عرب اليمن، لم يكُن كلامي لأنقذهم من تخبطهم، بل أردتُ أنْ أقذف بهم في الحيرة وأنا أُقدِّم لهم البراهين المتناقضة، أردتُ للعالم أنْ يذوق سعيري كما اصطليتُ بجحيمه، كنت أعلم أنَّ لا شيءَ يزرع الشك أكثر من قول الحقيقة الصادقة، وأنَّ الكذب يمنح الراحة للطامعين، فصَدَقتُهم في كل كلمة. أرادوا قطع الشكوك، لكنهم عجزوا عن ذلك، فطلبوا العون من الغرباء، جاء علماء ألمان، وآخرون فرنسيون، وشاركَتهم أمريكا في الملهاة. كلهم يريدون حَلَّ الأُحجية، فحصوا أوراقي، وحلَّلوا دمي وعظامي وكل خليّة بجسدي، فأخبَرَتهم آلاتُهم بصدقي، كل شيء يثبت أنني أنا حسّون، حسّون الذي لا يهرم ولا يشيخ.. حسّون الذي أخرجوه من أرض أبيه.. حسّون المُطارد في فلسطين.. المختبئ في جبل سيناء.. الهاربُ في تونس.. حسّون المسكين أصبح كل العالم يعرفه، وكل العالم يطلبه.

ثلاث سنوات وأنا تحت أيديهم، نفدت تجاربهم ونضبت بحوثهم، ولم يصلوا إلى شيء. يَئِسوا، وخبت همتهم، فخفَّ الصخب من حولي، لم يَعُد العابثون بجسدي يفحصونني كل يوم، مثلما كانوا يفعلون في أول الأمر، أحيانًا يمرُّ الشهر والشهران، ولا يطلبني أحدٌ، فأنا هنا بالجوار، ولن أهرب، أين المفر؟ اعتادوا الأمر، فلا جديد، هذا الرجل سيبقى كما هو، ولن يموت في المختبر، فهو لا يموت.

رفضَت سلطة المغرب الكبير تسليمي إلى علماء الغرب، بعدما طلبوا أنْ يأخذوني إلى بلادهم للبحث والتدقيق، قال من بيدهم أمري: «هو عربي، ونحن أَوَلى به وبدراسته». لكن الأساطير التي نسجتها العامّة حولي أربكتهم، زادت الأقاويل وتضاعفت، وأضاف عليها الناس ألف حكاية من مخاوفهم وأمنياتهم، فقائل يقول: ذاك المسخ هو «المسيحُ الدجَّال» مُخلِّص اليهود وزعيمهم الذي حذّرَ منه النبي. ويطلبون من السلطة قتل عدو الله والمسلمين. وآخرون يجزمون بأني «المهدي المُنتظَر» بعدما عرفوا أنَّ أبي مسلم، والولد لأبيه، وطالبوا السلطة بإطلاق سراحي لأقود الأُمة لمجدها الموعود. وفريقٌ يقول بل هو «دابةُ الأرض» التي تُكلِّم الناسَ في آخر الزمان، لكنها أتت في هيئة إنسان. صار وجودي عبئًا على حاكم المغرب الكبير، بل وخَطرًا يتهدّدُه، فقبِلَ بإرسالي إلى «مجلس الغرب» الذي يُطالِب بي منذ زمن، ليستريح من كل هذا العناء، ولا يُطالبَه أحدٌ بشيء.

مثلما أخذوني قهرًا من اليمن إلى إسرائيل، حملوني قسرًا من تونس إلى بلاد الجليد، لم تمتد يداي بأذًى لشجرٍ ولا بشر، سلِمَ العالَمُ مني، ولم أسلم منه. أكان قول شيخي وصيةً أم بشارة حين أوصاني: «لا تخرج حتى تُخرجك يده». حسنًا يا شيخي، ها هي يده تطوِّحُ بي من جديد. الله، والعالمُ، ضدِّي، تلكَ هي الحقيقةُ الوحيدة.

اليوم الخامس

في الأرض الباردة نزلت. استقبلتني امرأة ورجلان، قدَّمت لي المرأة معطفًا ثقيلًا ليقيني شدة البرد، لم أمدّ يدي ليديها المُمتدتيْن بالمعطف، سألتهُم: «أين أنا؟». فأجاب أحد الرجلين: «أهلًا بكَ في برلين».

أخذوني في سيارة إلى مكان أجهله، ولم أسألهم إلى أين تمضون بي، استغرق الطريق ساعة أو يزيد، جلست المرأة بجواري في المقعد الخلفي، أخبرتني إنَّ اسمها «جانسن»، ثُم سألتني عن أشياء لا معنى لها، كان واضحًا أنَّ غايتها كسر الجمود، فلما رأت أني أرد باقتضاب، أدركت رغبتي في الصمت، فتركتني له. أسندتُ رأسي المُتعب إلى الزجاج، وألقيت بناظريّ للخارج، المنازل حول ضفتي الطريق تنظر إليَّ وأنظر إليها، كأنها تسألني: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ فأهز رأسي نافيًا: هم مَن جاؤوا بي. أتابع تجمعات الناس من خلف الزجاج، عجائز في كل مكان، يسيرون فرادى وجماعات، أو يجلسون في المتنزهات المطلّة على الطريق، حيثما وجَّهتُ بصري رأيتُ وجوهًا متجعّدة وظهورًا مَحنية، لا أرى بين جموع العجائز إلا نذرًا قليلًا من الأطفال والشباب، أدركت فيما بعد أنهم ما أتوا بي إلى بلادهم إلا لأجل هذا، يريدون حياتي. حسّون شبابٌ لا ينتهي وإنسانٌ لا يشيخ، إكسير الحياة بين أياديهم، وربما يصنع علماؤهم من جسدي حَبَّةَ الخلود، من يبتلعها يصبحُ حسّون.

عرفتُ وجهتهم بعدما وصلنا إليها، مركزًا كبيرًا لأبحاثهم التي طالت لقرون، تركوني بضعَ ساعات لأرتاح من السفر الطويل، ثُم أجروا عليَّ بعض الفحوصات الطبية، وقالوا بعد الفحص الدقيق: «أنت بخير». ولم أكُن قد سألتهم: هل ثمَّة خطرٌ يتهدّدني!

نزلتُ في غرفة مريحة، سريرٌ وثير، وثلاجة ملأى بالطعام والخمور، وحمَّام كبير. قالوا: «إذا أردتَ أي شيء، فقط اضغط على هذا الزر، وسيأتيكَ من يُلبِّي مطلبَك». قلتُ لهم: «فقط أحضِروا لي تمرًا وحليبًا». تركوني أيامًا وأنا لا أعرف ما ينتظرني، أنام لساعات طويلة، وحين أستيقِظ أجلسُ عاريًا في مسبح الحمّام، أستسلمُ للماء حتى يغمرني كُلّي، ثُم أرفعُ رأسي عندما ينفد الهواء من صدري، وأظلُّ أكرر لعبتي هذه لساعتين أو ثلاث، بقيتُ على هذه الحال المُضجرة أسبوعين، بعد ذلك أصبحت جانسن تتردد عليَّ كثيرًا، كانت تلحُّ على أنْ أتناول شيئًا من الطعام مع التمر والحليب، فقلتُ لها بألمانية واضحة: «لا تنزعجي، لستُ أنوي الموت جوعًا». عادت بعدها وطلبَت مني الخروج قائلة: «اخرج من غرفتك ولو على سبيل التغيير، ليس إلا». استجبت لها، كانت الحديقة الكبيرة التي تحيط بالمركز جميلة ومبهجة، أصبحتُ أجلسُ فيها صباح كل يوم لساعة واحدة، ثُم أعود إلى غرفتي. سألتُ جانسن: «هل يمكنني الخروج من المركز، أم أنَّ حديقته هي أقصى الحدود التي تسمحون لي بها؟». فقالت: «نحن لا نعتقلكَ يا حسّون، أنت إنسان حرّ وبإمكانك فِعل أي شيء، وقتما تريد وكيفما تشاء. أنتَ هنا لإجراء بعض الأبحاث، وإذا اعترضتَ على أي خُطوة في بحثنا فأعدكَ أنها لن تتم، بل وإذا أردتَ مغادرة ألمانيا فلن يمنعكَ أحدٌ». كنت أعرف أنَّ هذا غير صحيح، فهم لم يأتوا بي إلى أرضهم ليعطوني فكرة عنها، ولم أكُن أريد العودة إلى بلاد أخرجتني، فشكرت لها كرم الضيافة الإجبارية!

أَلِفتُ الغربة سريعًا إذ لا جديد في الأمر، غربةٌ هناك تبدلت بغربةٍ هنا، لا فرق إلا في أسماء البلاد، البردُ كان هو الشيء الوحيد الذي يُزعجني، وحتى هذا اعتدتُهُ في النهاية. دومًا تصطحبُ جانسن معها كلبها الصغير عندما نجلس في الحديقة، يتقافزُ حولي ويضع رأسَه على رجلي، فأمسحُ على ظهره، لكن لا أحمله على حجري. قالت: «لأول مرة يتفاهم كلبي مع الغرباء». سألتُها: «ما اسمه؟» قالت: «ماركوس». ذكّرني كلبُها برفيق الجبل «غلام»، منذ غادرتُ الجبل لم أَقْتَنِ كلبًا، وبتُّ

أكرهُ صُحبَتهم، لأنهم يموتون سريعًا. قالت: «إذَا شئتَ سأتركُ ماركوس معك يسلّيك». رفضتُ عرضها.

بعد مرور شهر بدأَت أبحاثُهم أخيرًا، كان همهم مُنصبًّا على جسدي في البداية. فحصوني مثل كائن وحيد الخلية، يريدون أنْ يفهموا من خلاله كيف بدأ الخلق، ومن أين ضرب العطبُ جسد الإنسان؟! يتساءلون: هل أنا طفرة شاذة لا جذور لها، أم أنني الأصل الذي أفسدته الطبيعة؟ وإذا كنت الطفرة فكيف يجعلونها صفة سائدة تعم جنسهم، وإذا كنت الأصل فلماذا تغيرت القاعدة عليهم، وكيف يعودون إليها؟ كنتُ سؤالًا لا يجدون له الجواب، أعرفُ أنهم لن يصلوا إلى شيءٍ، لكنني تمنيتُ في نفسي لو أنهم يَصِلون إلى فَكّ الأُحجية، أتعبني طولُ البقاء، وأودُّ أنْ أعرف سره، لكن لا أحد يمتلك المفتاح ليعرف ماذا وراء بابي المُغلق.

سنتان، ولا جديد في الأمر. «مجلس الغرب» كان هو صاحب القرار في نزولي بألمانيا، وعندما فشلوا في الوصول إلى أي شيء قرروا نقلي إلى (هولندا)؛ إذ القرار ليس بيد الألمان، كل ما يخصُّ البحث العلمي كان بيد المجلس وحده، ولا تستطيع أي دولة التدخل فيه. سنتان في ألمانيا، وأربعٌ في هولندا، وثلاثٌ في فرنسا، كلما خاب مسعاهم في قُطرٍ من أقطار المجلس؛ نقلوني لآخر. أرهقني مجلسهم الكبير، ذاك المُتحكم بأوروبا كلها، وأمريكا، وروسيا. كل المراكز تقول الشيء نفسه: «هو إنسانٌ عاديٌّ، لكنه لا يهرم».

كانوا مذعورين يفتشون عن أمل، كل دُوَلِهم تشيخ، وما أصاب إسرائيل يفزعُهم؛ إذ إنهم على الطريق ذاته، أرحامٌ فارغة، وعجائز يتكدسون بكل طريق، نصف شعوبهم تجاوزت أعمارهم الخامسة والخمسين، أُمَّة تحتضر وأملُها الوحيد في استنساخ شبابي الذي لا يزول. لم يكُن خوفهم من ارتفاع أعداد المسنين لنقص في الإنتاج، إنما كان الخوف من تآكل الأُمَّة الغربية وتنامي عدوها، واحتمال عدم القدرة على مواجهته مستقبلًا، وإذا أدرَكوا سرّي ربما استطاعوا مجابهة الجبَّار القادم من الشرق، الذي يتهدّدُ بلادهم. (الصين)، تلك الأُمَّة الصفراء تتمدد ولا يصدُّها جدار، «كونفوشيوس» يسحبُ البساط من تحت أقدام «المسيح» ويجتاحُ أرضَه، حربٌ خفية تدور بين رجُلي السلام الأكثر وداعةً في سائر الأديان! وكان للخوف أسبابه، قد اجتاحَت الوجوه الصفراء خُمسَ أرض الروس، دون طلقة واحدة، أرضٌ خاليةٌ من بيض الوجوه على حدود أرض تمورُ بسكانها الصُّفر، فقالوا: «كانت تلك أرضنا منذ الأزل واقتَطَعها الروس بغيرِ حقٍّ، ورُدَّت إلينا». لم تكُن روسيا، ولا الغرب كله، يقدر على مواجهة التنين والنار في فمه، فأقاموا مجلسهم ليكون صخرة النجاة في وجه الطوفان، وكنتُ الأمل الأخير لاستعادة الحياة والقدرة على المجابهة، ولن يفرّط المجلس في كنزه الثمين، رغم كل الفشل في فتح صندوقه المُغلق.

استسلمتُ لهم كما استسلمتُ للجميع من قبلهم، وكشاةٍ تُساق إلى الذبح، لم أفتح فمي. ريشةٌ ينفخُ فيها الجميع لتستقر حيثما أرادوا، لكن الهواء يخذل مُرادَهم، ويدفعُني إلى حيث لم يَحتسبوا، دومًا كنتُ «شيئًا»، تَقاتَل اليهود والمسلمون على حِيازته، فاستقر به المقام في يدِ النصارى. أراد قومُ أمي أنْ أكون للتوراةِ آية، وأراد قومُ أبي أنْ أكون للقرآنِ بشارة، فخاب مسعاهم، واستقر «الشيء» الذي لا إرادة له بيدٍ لا تنتمي لأبي ولا لأُمي. ربما لو شربتُ الخمر من كأس المسيح، كنتُ أفلَتُّ منهم، كما أفلَتُّ من كأسِ موسى ومحمد.

لم يختلف مُقامي في فرنسا عنه في هولندا أو ألمانيا، أبحاثٌ وتخرُّصاتٌ، وجميعها تنتهي إلى الفشل، أترك لهم جسدي في النهار، يحرثونه بالعلم، ويتركون لي قلبي في الليل، أسقيه بالصلاة وأصب فيه من القرآن والتوراة، أستعيد ذكرى سنوات القيروان، وأستحضر روح التيجاني لترشدني في هذا الظلام، أبتعدُ عن الله حين يجتاحني القنوط، حتى أكاد أنكر وجوده، ثُم أعودُ إليه حَبْوًا وأصرخُ عليه: مُدَّ يدك فقد أرهقتني يدُ الغرباء. قُبيلَ انتهاء السنة الثالثة من وجودي في فرنسا، قرر المجلس نقلي إلى دولة أخرى، كان ذلك بعدما حاولَت مجموعة من اليهود اختطافي من داخل المركز، سقط سبعة من

حراس المركز قتلى وهم يصدُّون المقتحِمين الذين باءت محاولتهم بالفشل، يهودُ الشتات ما زالوا يريدون مُخلِّصهم، ظننتُ أنَّ الخطر قد زال بزوال دولة إسرائيل، لكن زوال دولتِهم لم يقضِ على الحلم بالوصول إليَّ، فما زال المسيحُ المخلِّص غايةً يسعون إليها.

بعدما أدرك المجلسُ الخطر الذي يترصدني، قرر نقلي إلى عاصمته في (روما). كم تمنيتُ قديمًا أنْ أزور هذه المدينة، عندما نزلت في مطارها تذكرتُ حديثًا مرَّ عليه أكثر من مائة عام؛ إذ حدَّثتُ يومًا سوار عن رغبتي في زيارة روما، شجعتني حين أخبرتها بذلك، حتى إننا خططنا أنْ نزورها معًا، ثُم شغلتنا الشواغل فلم نفعل، وها أنا اليوم في روما، لكن ليس وفقًا لخططي القديمة، لم أحبّ روما حين رأيتها واقعًا، يبدو أنَّ أمنيتي كانت فاسدة، أو ربما أفسدها ما آلت إليه مدينتهم، مدينة الله صارت مدينة الإنسان الأعلى، خضعَت روما لأحلام «نيتشه». أجراسُ الكنائسِ ما زالت تُقرَع، لكن ما عاد أحدٌ يسمع صوتَها، كان القديسُ القديم على خطأ حين قال: (حُبّان بَنَيَا مدينتيْن: حُبُّ الذات حتى احتقار الله، بنى المدينة الأرضية، وحُبُّ الله حتى احتقار الذات، بنى مدينة الله. إحداهما تفاخر بذاتها، والثانية بالله تفاخر). لم تَعُد هناك مدينتان، بل واحدة تفاخر بذاتها، سقطت مدينة الله، وخضعت لمدينة الأرض، مدينة العلماء. أصبح الجميع يقول إنه لا شيء في الأعلى، والسماءُ لا تعني أكثر من سديمٍ، وثقوبٍ سوداء، حجَبَ غبارُ العلم وجهَ الله، وهزمَ المـُختبرُ كل القديسين.

لم يكُن لعاصمة المركز المُـعلنة في روما من أثرٍ تراه العين، لا شيء سوى بناية جبارة يحرسها الجنود، تقعُ في مقابلة كنيسة «القديس بطرس»، مبنى شاغرٌ، لا يجلس في مكاتبه التسعمائة سوى بضعة موظفين، ولا يعرفون لماذا هم هناك. هكذا أخبرَني مُرافقي الجديد «جولياني». جانسن كانت هي مَن عرفتني إليه ونحن نركب الطائرة المتجهة إلى إيطاليا، بعد محاولة اختطافي، ورغم أنني لم أكِنَّ لها أي شعور، لا حُبًّا ولا كراهية، فإنها كانت الوحيدة التي أشعرُ بالراحة معها، ولا أدري لماذا شعرت بالحزن حين قالت لي: «هذه آخر مرة تراني فيها يا حسّون، وسيكون جولياني رفيقكَ لفترة ربما لن تكون قصيرة». ربما أحزنني فراق جانسن لأنها لم تكُن تعاملني كموضوع للبحث، مثلما يفعل الجميع، ولم تناقشني قط في أي مرة أخبرتها فيها بعدم رغبتي في الخضوع لأبحاثهم، بل كانت تستجيب لمطلبي وتحققه ببساطة. ربما كان هذا ما دربوها عليه لتستميلني إليها، وتضمن استجابتي لكل ما تطلبه مني، وبالفعل كنت أستجيب لها، أعتقد أنهم دربوها بشكلٍ جيد. حيَّاني جولياني بألمانية ناعمة لا تُناسب حروفها الخشنة، ثُم أتبعَ تحيته الألمانية بتحية أخرى نطقَها بعربية سليمة: «السلام عليكم حسّون». منذ قدومي إلى بلادهم تعودت أنْ أتحدث بلسانهم، ولم يكُن تغيُّر ألسنة البلاد عقبة أمام إتقاني لكل لغاتهم، عندما رأى جولياني دهشتي لسماع تحيته العربية، أخبَرني إنه يتقِنُ اللغة العربية مثلما يُجيد الألمانية، وخيَّرني:

- أي اللغتين تحبُّ أنْ تجمعَنا؟

- أخبرني أنت، ما هي لغتك الأم؟

- الإيطالية.

- إذن لن تجدَ صعوبة في التحدث معي، أَتقِنُ الإيطالية، كما أتقنُ الألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية.

- إذا كان ذلك كذلك، فعلينا أنْ نتعلم منك، لا أنْ نجعلك موضوعًا لبحثنا.

قال ذلك وهو يضحك، اتفقنا على العربية في النهاية.

لم يطُل مَكثنا في روما، أخذوني إلى أطراف مدينة (تورانو) القديمة، في أقصى حدود إيطاليا، هناك كانت تقبع عاصمة المجلس الحقيقية خفيةً عن العيون، يُدار كل شيء من داخل حيّ مُغلق لا ينتبهُ إليه أحد، يسمونه (حيُّ العصافير)، الحي الذي كان هو الحزام الأخضر للعقول التي تحكم الغربَ بأَسره، جولياني لا يطلق عليه حيّ العصافير، كان يحبُّ أنْ يسمِّيه

(جبل الأوليمب) ويقول لي: «هنا تُخَطُّ الأقدار بأقلام الآلهة التي تحكمُ العالم، دون أنْ يرى البشرُ وجوهَهم». حيُّ العصافير -وفقًا للمجلس- أو جبل الأوليمب -وفقًا لرفيقي جولياني- لم تكُن فيه بناية مرتفعة واحدة. كل ما هنالك مجموعة من المباني الصغيرة، جميعها تقوم على طابق واحد، مبنى وحيد في منتصف الحيّ كان يرتفع لثلاثة طوابق. لم يكُن هناك حُراس داخل أسوار الحيّ، لكن هناك المئات منهم خارجها، لا يتصل الحيّ بغيره من الأحياء؛ إذ يقع قريبًا من الجبل، تفصِله عن الأحياء الأخرى مساحات كبيرة من الأراضي الخالية، ولا يُسمح لأي أحد بالاقتراب من تلك المساحات الخالية، فضلًا عن الاقتراب من حيّ العصافير ذاته. لم أرَ لافتة على واجهات البنايات تُحدد تخصُّصَها أو طبيعة عملها، لكن جولياني عرفني وظيفة كل مبنى. الألوان هي ما تُميز كل منها، وتُحدد لأي غرض أُنشئ. المبنى الأخضر هو المخطِّط لكل ما يخصُّ الاقتصاد في الغرب كله، أما الأسود فيختصُّ بشؤون البيئة وكنوز الأرض، الأحمرُ عرفتُه دون أنْ يدلُّني عليه جولياني، فقد زُرتُه مرات كثيرة، ورأيتُ مَعاملَه السرية التي تمتد تحت الأرض، على مساحة تصل لأكثر من نصف رقعة الحيّ بأَسرِه، وهناك خضعتُ مرات لا تُحصى لبحوثهم التي لا تتوقف. أشار جولياني إلى المبنى الأزرق، وكان الوحيد المكوَّن من ثلاثة طوابق، وقال هذا «مركز السكان»، الأملُ الوحيد والأخير، كي يستعيد الغرب الحياة.

تعجبتُ أنْ يكون المكان الذي يغيّر وجه الأرض، ويحكم العالم الجديد، هو بحدِّ ذاته أبعد ما يكون عن كل جِدَّة وحداثة، كأنه قرية من القرون الوسطى بمبانيه القصيرة وألوانه التقليدية، مثل قرية وسط الغابة، حتى إني كنت أرى أحيانًا بعض الأيائل البرية ترعى في المساحات الخضراء المنتشرة داخل الحي، دون أنْ يزعجها شيءٌ! سألتُ جولياني:

- أليس غريبًا أنْ تكون تلك هي عاصمة العلماء؟

تبسم وقد فهِمَ مقصدي، وقال:

- قادة المجلس يدركون جيدًا أنَّ الحياة البدائية هي ما تُحيي الروح، وتمنحُ العقلَ الحياة، فتمسّكوا بها، وجعلوا المراكز أبعدَ ما تكون عن الحداثة، ليصنعوا العالمَ الجديد، عالمٌ صلبٌ يسير بنظام لا يضربُه الخطأ.

- عالمٌ أعمى، لا حياة فيه.

- لا يهم أنْ يكون حيًّا، ولا يهم أنْ يكون بصيرًا، المهم أنْ يكون موجودًا، ولا يصيبه العطَبْ، هذا ما سيجعله جزءًا حقيقيًّا من الكون الكبير. الحياة تصل بك إلى الموت، أما «النظام» فيصل بكَ إلى أكمل نقطة في الوجود، حتى لو كان منزوع الروح.

- فلماذا أبحتم لأنفسكم الخروج عن هذه القاعدة ولم تتقيدوا بها؟ وهذا الحيّ بذاته هو الدليل على أنكم تخالفون قواعدكم، أرى هنا الكثير من الفوضى وغياب النظام.

- نعم هي مخالفة، لكنها ضرورية. هل تعرف ما هي أهم قاعدة في الرياضيات يا حسّون؟ منذ «أرسطو» ومرورًا «بكانط» ثُم «برتراند راسل» وإلى اليوم، اتفق علماء الرياضيات على أمر واحد: إنَّ أي نظرية رياضية لا بدّ أنْ تقوم على «مُسَلَّمَة». والمُسَلَّمَة بحد ذاتها لا يقوم عليها الدليل الرياضي، لكنها الطريق الوحيد لإثبات النظرية، ودونها يتهاوى النسق الرياضي بأسره. وهذه المُسَلَّمَة لا تؤتي أثرها إلا بالتسليم بها، لا بدّ أنْ تؤمن بها بغير دليل، كالإله عند المؤمنين، لا دليلَ عليه ولا تحكمه القوانين، وفي الوقت ذاته يدور حوله كل شيء ووحده مَن يضع القوانين! نحن هذه المُسَلَّمَة وتلك المصادرة، لا قوانين تحكمنا وفي الوقت ذاته نضع القوانين لكل شيء حولنا. نُمارس الحريةَ وشيئًا من الفوضى، نعيش حياةً بسيطة بدائية داخل أسوار الحي، لنصنع النظام للعالم خارج الأسوار.

- أليس هذا استبدادًا؟

- أين الاستبداد؟! هذا الحي يحاكي أقدم ديمقراطية في التاريخ، لا يتميز رأس المجلس عن أصغر عضو فيه، كل قرار يُطرَح على الجميع، إنه «أثينا» الجديدة، لكن هذه الرفاهية تنتهي عند حدود أسواره، تلك هي الديمقراطية الضرورة لمصلحة الجميع.

- هذا مبرر الطغاة منذ اكتشف الإنسان النار، فئة تَسُود، وفئة تُقاد، وتحت المبرر ذاته: تلك هي الديمقراطية الضرورة! ديمقراطية تسوق الناس على غير إرادتهم، ولا حقَّ لأحد في مناقشتها، لأنها مُسَلَّمَة رياضية كما تقول أنت اليوم، أو حقٌّ مقدس كما قال أسلافنا من قبل، تلك خدعتكم منذ الأزل.

- الديمقراطية للعقول، فقط العقول، ومن لا يمتلكها فلا حقَّ له فيها. دومًا هناك فئة وفئة، هذا ليس اختراعًا بل هذه طبيعة الأشياء، والطبيعة منصفة جدًّا، الناس لا يكرهون شيئًا مثلما يكرهون عقولهم، لأنها ترهقهم باختيارات كثيرة، وحقّ الاختيار مُرٌّ منذ الأزل. نحن من نتكبد هذا العناء لنوفر لهم ما يريدون، القطيع لا يريد غير الكَلأ، ولا يعنيه ما يدور برأس الراعي، فلم يكُن أمامنا سبيلٌ للحفاظ على حياة الناس إلا أنْ نكون الرعاة الذين يوفرون لهم الكَلأ.

- بل أنتم الذئب، لا الراعي.

- لا فرقَ بينهما لو فكرتَ جيدًا يا حسّون.

في بادئ الأمر كنتُ لا أرتاحُ كثيرًا لجولياني، كان بالنسبة لي مجرد آلة من آلاتِهم، التي تسعى لاستنطاقي واستخراج أسراري، لكنني أَلِفتُه بعد ذلك، وأصبَحنا صديقين، ربما لأنني وجدتُ فيه شيئًا من رائحة الأرض العربية، ليس فقط لأنه يتكلم العربية بطلاقة، كان حقًّا يشبه العرب كثيرًا، قامته وسطًا بين الطول والقصر كأهل جزيرة العرب، وبشرته تميلُ قليلًا إلى السُمرة، تشبه بشرة المصريين، عيونُه بُنية وشعره أسود لامع كأهل الشام، وقد زاد شاربه الضخم من عروبة ملامحِه أكثر. في أول يوم جمعنا سألتُه عن تخصُّصِه العلمي، لأعرف في أي موضع من جسدي سيعبث، فقال: «لا تقلق، لا عَلاقة لي بجسدك، أنا باحث (أنثربولوجي) هذا تخصُّصي الدقيق، كما أني باحثٌ في التاريخ العربي خاصةً، والإسلامي عامّةً». كانت روحه مرحة وطيبة، فسَّرَ لي مرة لماذا يبدو وجهه عربيًّا، أكثر منه إيطاليًّا، وقدم تبريره هذا بغير حرج: «ربما وقعَت جدّتي الكبرى في عشق أحد الجنود العرب الذين استعمروا (صقلية) فجمعَهُما سريرٌ واحد، ولذلك أصبحت عائلتي كلها تحمل الملامح العربية». ضحكتُ وقلت له: «كم جمعَت الأسِرةُ بين الغرباء، فأثمرت المُهَجَّنين. لا تدري، ربما كنت مثلك». ذات يوم أخبرتُه برغبتي في الرحيل عن بلادهم، بعدما أسقمني وأسأمني دور الفأر الذي لا تنتهي أبحاثهم فيه، وظننت أنه سيأخذ صفي، لكنه كان في النهاية واحدًا منهم، بصفهم لا بصفي، اعتذر لي حينها وقال:

- هم لا يريدون إيذاءك يا حسّون، وحتى لو أرادوا فلن يفعلوا، أنت تُمثِّل لهم الأمل الذي يبحثون عنه منذ زمنٍ بعيد.

- ما شأني بآمالكم؟ لا شيء يميزني، مثلي مثلكم، غير أني عشتُ أكثر.

- لست مثلنا قطعًا، والفارق ليس في طول عمرك، بل في طبيعة جسدك، نريد أنْ نفهمه، وبعدها ينتهي كل شيء. أنت الدليل على وجود ما نبحث عنه، علماؤنا يحاولون منذ قرن أو يزيد أنْ يتغلبوا على الجسد، فتشوا في أسرار الخلية، حاولوا قراءة «الدنا» كي نعرف ما نحن؟ قديمًا كانت أجهزتُنا تحتاج لمائةٍ وعشر سنوات لقراءة «الدنا» لإنسان واحد، ثلاثة مليارات من الصفات الجِينية، كلٌّ منها يحملُ سره الخاص، وكلها عصية على القراءة! طوَّرْنا أجهزتَنا وأصبحنا قادرين على قراءتها، لكن هذا لم يُحدِث فارقًا ولم نصل إلى غايتنا.

- أنْ تصبحوا مثلي، تلك غايتكم. أليس كذلك؟

- لا، قلتُ لك لا نريد أنْ تصبح أعمارنا طويلة جدًّا كعمرك، ولم نسعَ لهذا، بل ولا نريده حتى، ما نريده تحديدًا ألا

نشيخ، ألا تتآكل أجسادُنا وتُصابَ قلوبُنا بالعطب وعقولنا بالنسيان.

- لكنكم عجزتم، وما زلتم تعجزون عن هذا، فاتركوني.

- ربما عجزنا حقًّا، أو بمعنى أدق لم ننجح إلى الآن، لكن هذا العجز له ما يبرره، ما زلنا في أول الطريق.

- أول الطريق كآخره. أتدري ما آفة العلماء يا جولياني؟ الغرور. تسعون لفهم العالم منذ الأزل، وفهمتم كثيرًا عنه، ثُم لم يَعُد فهمه يشبعكم، فأردتم تغييره.

- هذا هو بالضبط، تغييره. وما وصلنا إليه يجعلنا نطمح إلى هذا التغيير، ليس هذا غرورًا، بل حصادًا مُستحقًّا لما زرعه العلماء منذ آلاف السنين.

- فلماذا تذرو الريح حصادكم، إنْ كان ثمَّة حصادٌ!

- هذا ما لا نعرفه، جدَّدْنا الخلايا وزَرَعْنا القلوبَ الاصطناعية، واخترَعنا حبوبَ محاربة النسيان، وكل ذلك بلا طائل حقيقي، نعم أصبَحَ الأمر أفضلَ قليلًا، لكنه قليلٌ جدًّا. وضعُ قلبٍ جديد في جسدٍ مُستهلك مثل وَضعِ مُحرك طائرة في سيارة قديمة، تخيَّل كم حادثة ستقع وكم مرة ستنقلبُ السيارة؟! كل ما نفعله هو ترقيعٌ لثوبٍ مهترئ.

- فلماذا لا تتركون الأمر على ما هو عليه، هذا هو الكون منذ بدأ، قوةٌ ثُم ضعف، حياةٌ ثُم موت.

- نحن لم نخالف قواعد اللعبة، الطبيعة هي مَن خالفت قواعدها، ولم تَعُد مُنصفة معنا. القاعدة كانت على الدوام أنَّ الثُلثين مِن تعداد الشعوب يمتلكون قوة الحياة، والثُلث الباقي بعضه أطفال ضعفاء والبعض مُسنِّين عجزة، لكن هذا لم يَعُد واقعًا، فثُلثيّ عالمنا يعاني الشيخوخة، والثلثُ الباقي هو مَن يقوم بكل شيء! القوة العاملة غاضبة، ضرائبُهم تذهب لإعالة العجائز، وجهدُهم يأكلُه الشيوخ، ماذا نفعل في العَجَزة؟ هل نتخلص منهم ببساطة؟! لا يمكن أنْ نتنازل عن تفوقنا الحضاري الذي يجسّدُه احترام المُسنين، لكن أيضًا لا يمكن أنْ نحافظ على تفوقنا الاقتصادي في مثل هذا الوضع.

- وأين علمكم القادر على التعامل مع كل أزمة وحل كل معضلة، وأين آلاتكم القادرة على تغيير الكون!

- لا تسخر، قد فعل العلم كل ما يستطيع إلى الآن، لكن الآلات لا تصلحُ لعمل كل شيء، فوجدنا أنفسنا مضطرين لفتح أبوابنا من جديد للوافدين من الشرق، رغم علمنا بخطورة الأمر؛ إذ أصبحَت القوة الفاعلة لا تنتمي لحضارتنا. نعم ما زلنا مُتقدمين بسنوات ضوئية على عملاق الشرق الذي يُهددُنا، لكن حتى متى سنصمد؟ سيأخذُ الغرباءُ أرضنا كما فعل العربُ باليهود في أرض إسرائيل.

- لم تكُن أرضهم يا جولياني، أنا يهوديّ وأقولها لك لم تكُن أرضهم.

تحدث جولياني طويلًا، أرادَ أنْ يُثبت لي أنهم مضطرون لاستبقائي بأرضهم، وأنهم ليسوا أشرارًا، أو على الأقل ليسوا أشرارًا بشكل كبير. ما حدث لإسرائيل كان جرسًا مفزعًا لهم، كانت إسرائيل أكثر من العرب تقدُّمًا وقوة، لكنها سقطت في النهاية بعدما أجدبت شجرتهم ونضبت رحمهم. وهذا بحد ذاته ما يهدد جولياني ومجلسه اليوم، ولا يجدون له حلًّا، والمعضلة هي ذات المعضلة: ثقافتهم. لا يستطيعون تغيير طريقة حياتهم، لا يمكنهم إقناع النساء بالعودة إلى غرف النوم وتربية الصغار، دَورُ التفريخ لم يَعُد مُقنِعًا لنساءِ الغرب، بعدما اقتنَعْن أنهنّ تمامًا كالرجال، ثُم تمردَّن على طبيعة الأنثى نفسها، واحتقرن غريزة الأمومة التي أخضعتهن للرجال على مدار التاريخ، فأصبحن يمارسنها اليوم على استحياء، ولم يَعُد ثمَّة طريق للعودة، وحتى إنْ استطاعوا فلن يفعلوها، لأنَّ هذا سيقلبُ حضارتهم بأَسرِها، ويقضي عليها، ولربما يعود «البابا» ليحكم الغرب من جديد إنْ فعلوا هذا، فكان الحلُّ الأسهل هو مدّ أَمَد الشباب لأكبر فترة ممكنة، لذا لن يُفرِّطَ مجلسُ

الغرب أبدًا في حسّون، حتى يصبح كل شبابهم مثله. رجلٌ يكبرُ ولا يصيبه العطب، هكذا، وهكذا تحديدًا ما يريدون أنْ يكونوا عليه. أدركتُ أنه لا أمل، أبدًا لن يتركوني، ولن أنجو منهم.

كنتُ أحسَب أنَّ الأمر سينتهي حتمًا بالموت في النهاية، وأنَّ إسدال الستار قد أوشك، فقد جاوزتُ القرنين وأنا بين أيديهم، نعم لم يكُن في الأرض إنسانٌ بلغ مثل ما بلغت من العمر، لكن لم يمر بخاطري أنَّ المأساة ستستمرّ أكثر من ذلك، وأنها أوشكت على الانتهاء ولا بدّ، كنتُ أقول إنه خللٌ في الطبيعة، وضربٌ للقاعدة، وكنتُ أنا المثَل المنفرد الذي ضرَبَه الله للناس، تلك طريقَته على الدوام، فهو يضعُ القاعدة، وهو أيضًا من يكسِرها، جعلَ كل ذي جناحٍ يبيض، فكنتُ أنا الخفاش الذي يلِد، الناس يشيخون كلما امتد بهم العمر، فضرَبَ القاعدة وخلَقَ للناسِ «حسّون» يكبر ولا يتهرّأ أو يشيخ، وصلَت رسالة الله، وحتمًا سيتمُ رفعُ الخطأ الكتابي من صفحة الوجود، وأنتَهِي. هكذا كنتُ أظن، أو هكذا كنتُ أتمنى.

استسلمتُ لواقعي، وأنا أُمنِّي نفسي بالموت قريبًا، أو وصول المجلس إلى غايته ونجاح تجاربه، كثيرًا ما كنتُ أتكلم مع جولياني وأخبره عن رغبتي في الموت، ورغم حبّه الذي كنت أحسّه أحيانًا، والذي ربما صنعته طول الرفقة بيننا، فإنَّ هذا الحب لم يكُن يتجلى في أكثر من يدٍ يضعها على كتفي، وبسمة جامدة، كان حديث الموت ضيفًا دائمًا على كلامنا، وردُّ جولياني في كل مرة لا يتغير: «ربما لو امتدَّ عمرك خمسين سنة أخرى، يمكن أنْ نفهم سر اللعبة، فلا تمُت قبل هذا أرجوك يا حسّون». لم يكُن جولياني وحده مَن يخشى موتي، المجلسُ أيضًا كان يفكّر فيما فكّر فيه جولياني، وأخافهم أنْ يجدوني ميتًا قبل أنْ يصلوا إلى شيء، فقرروا حِفظ نطافي احتياطًا للأمر إنْ أنا مُتّ. لم يتوقف الأمر عند الاحتفاظ بمخزون احتياطي من وجودي، أخذوا عينة أخرى من النطف ولقحوا بها بعض الإناث، فإذا لم يكُن استخلاص طبيعتي مُمكنًا، فإنَّ من المُمكن أنْ يحتلبوا مني نسلًا يحمل صفاتي، أصبحَ لي أبناءٌ رغمًا عني. عارضتُ قرارَهم في بادئ الأمر، ثُم قلتُ: «ولِمَ لا؟ فلنجرّب اللعبة للنهاية، وليكُن لحسّون نسلٌ، حتى لو تمَّ تصنيعُه في معملٍ غربيّ». جاؤوا ببويضاتٍ وخصَّبوها بنطفي، ثُم زرعوا البويضات المُخصَّبَة في خمس أرحام، لنساء لا أعرفهُنَّ ولم أرَ حتى وجوهَهُنَّ. أرادوا أنْ يعرفوا هل سيكون لنسلي شبابٌ لا ينضب؟ فيكون ثمَّة أملٌ، أم أنَّ مزحة الطبيعة تخصني وحدي؟!

لا أمتلك أكثر من الوقت، يمكن لكل التجارب أنْ تتم، الفأر هنا ولن يهرب، وإنْ أصابني بعض الضجر فإنَّ جولياني يراقب تقلبات نفسي وحالة مزاجي بدقة، وله من المهارة ما يمكّنه من التدخل في الوقت المناسب، أخبَرَني إنه سيصطحبني في جولة بسيارته دفعًا للرتابة، وقبل خروجنا من المركز أحضرَ إليَّ مسحوقًا، وقال:

- ضَع القليل من هذا على وجهك ورقبتك ويديك.

- وماذا سيفعل هذا المسحوق؟

- سيفعل بوجهك ما يفعله البحر بغريقٍ بقيَ ثلاثة أيام تحت الماء، سيتغضن جلدك.

- هل يعني هذا أنَّ الناسَ لن يعرفوا وجهي؟

- ولا أنت ستعرفه، ستكون مثلَ رجُلٍ مُسِن يشيرُ له الموت بحماس نحو القبر.

كنتُ أشتهي تجربَةَ «الرجل العجوز» ولو بطريقة زائفة، أسعدني تغيُّر وجهي، أكثر من سعادتي بخروجي بعيدًا عن جدران معامِل المجلس.

كان جولياني يسألني عند كل تقاطع وهو يقود السيارة: «أي الاتجاهات تحب أنْ نسلك؟». ربما أراد أنْ يمنحني حق الاختيار، ولو في أمر تافه مثل تحديد اتجاه السيارة في طريقيْن يستويان عندي، ورغم ذلك أعجبتني تلك المحاولة الرخيصة، أنْ أفكر، ثُم أقرر، كان ذلك بحد ذاته يبهجني، حتى إنني كنت أقول له: «اتجه إلى اليمين». وعندما يبدأ في

التحرك، أتراجع عن قراري وأقول له: «لا، لنتجه إلى اليسار». كأنني أجرب هذا الحق، لأتأكد من حقيقته، وإلى أي مدى يُسمَح لي باستخدامه. في الزمن البعيد عندما كنت أركب السيارات في إسرائيل وتونس، كنتُ أحبُّ مراقبَةَ الطريق، أحسُّ أنَّ الأشياء ترقد خلفي، بينما أسيرُ إلى الأمام، أتحرك ويسكن العالم، كان ذلك يشعرني بكثير من التعويض، حين تتبدل الأدوار، العالم يرقد خلفي مُكبلًا، بينما أنطلق أنا بغير قيد. في سيارة جولياني كان الأمرُ مختلفًا، كنت أنسحقُ، بينما العالم من حولي يهرول بسرعته القصوى، أسكنُ ويتحرك، أقبعُ وينطلق. الطريق، البنايات، الأرصفة، والناس، كل شيء يهرول ليسبق الزمن. السرعةُ كانت هوسَهُم الأكبر، والزمن عدُّوهم المُتربص، يريدون أنْ يفعلوا كل شيء، دون انتقاص وقتهم المُحدد، ولعل هذا تحديدًا، هو ما أراد أنْ يخبرني به جولياني في جولتنا، كأنه يقول لي في كل مكان نزوره وكل خُطوة نخطوها: «اِحترم وقتنا». يقول هذا بغير كلام، وهو يُريني كيف تُدار الأمور بسرعتها القصوى في كل شيء، وكأنني أحتفظُ بالسرّ الذي يعطّل حياتهم اللاهثة وأُخفيه عنهم! دخَلنا أحدَ المتاجر في جولتنا، كان متجرًا بحجم بلدة، تتكدس فيه صنوف من السلع التي لا أعرف تسعة أعشارها، حتى وقعت عيناي على طعام أعرفه وأحبه، لم أكُن قد ذُقتُ التمر منذ سنوات، فلما رأيتُه طلبتُ من جولياني شراء علبة تمر، فقال: «حسنًا لكن لا أنصحُكَ بهذا النوع». حسبتُه خبيرًا بالتمور، ثُم فهمتُ منه أنَّ كل صنفٍ من الطعام له نوعان، أحدهما للغرباء، والآخر لأهلِ البلاد. الأول وهو المتاح في كل مكان، أطعمة مُعدَّلة، تتوافر بكثرة للعاملين في دول المجلس، أما النوع الثاني، وهو الطبيعي، فذاك لا يباع إلا للغربيين وحدَهم. الصنفُ الأول ربما لا يخلو من آثار تُصيب الجسد بالعطب، وكان هذا آخر ما يريدونه، فلديهم الكثير من الأجساد المعطوبة، ولا يحتاجون لمزيد من الشيخوخة، بينما الغذاء الطبيعي أصبحَ شديدَ الندرة، ولا يمكن توفيره إلا لسكان البلاد أنفسهم. سألتُه: «كيف يتمُّ منع الغرباء عن شراء الطعام الطبيعي، إذا كان الجميعُ يمتلكُ دفع الثمن؟»، فأجابني بأنَّ لديهم نوعيْن من البطاقات، واحدة لمن لا يحمل جنسيتهم، والأخرى لهم، وكل سلعة مخصَّصة لإحدى البطاقتين، ولا يمكن شراءُ صنف إلا ببطاقته التي تخصّه. الناس، كانوا هم الشيء الحقيقي الذي أثار دهشتي في تلك الجولة، رغم غرابة حياتهم، وسرعتها، ورغم تقدمهم المذهل، وإخضاعهم لكل شيء تحت سلطة مجلسهم، فإنهم ما زالوا بشرًا، بشرًا عاديين. أرى السأمَ على الوجوه، وتلصُّص عيون الرجال على مؤخرات النساء، وشغفَ الإناث بالتجمُّل والثرثرة والصياح على الأطفال، الأمرُ عادي، وكل شيء يبدو بخير، أو لا بأسَ به على الأقل، ها هُنّ النساء ما زلن قادرات على الحمل والرضاع، وها هُنّ يصحن على الصغار كما كانت الأمهات يفعلن على الدوام، الأطفال لم ينقرضوا، والعالم لم يندثر، فعلامَ كل هذا الذعر الذي أراه في عيون علماء المجلس؟ هل لأنَّ الناس يكبرون ويشيخون؟ ومَن في العالَم لا يشيخ سواي؟ هل لأجل تلك الحقيقة التي صدَّعوني بها عن شبابهم الذين لا يتزاوجون إلا نادرًا؟! فلماذا لا يستنسخون أطفالًا إذا كان ما لديهم لا يكفي لسوق العمل، ويتركوني لحالي؟ سألتُ جولياني عما يدور في نفسي: «لماذا لا تقومون بصنع أبناء في معاملكم وتنتهي القصة؟». فكرر الهُراء الذي لا يمل ترديده، عن تجريب العلماء لكل شيء، وأنَّ النتائج كلها كانت مخيِّبة، وأخذ يحدثني عن الواقع الذي يسخر من علمهم، كأنه يريدني أنْ أشفق على موقفهم وهو يسرد لي تفاصيل محنتهم الأليمة، يقسم لي إنهم حاولوا، لكنْ المستنسَخون يصبحون هياكلَ لها شكل البشر، لكنَّ قدراتهم لا تتطور أبدًا، أشبه بآلات، لكنها آلات غبية بلا نفع، حتى أصبحوا عبئًا عليهم، استطاعوا صنع إنسان، لكن الصنعة المُتقنة لم تجعل منه إنسانًا بالفعل، كانوا عالقين بين العلم والواقع، يمتلكُون الحقائق على الورق، لكن نَقْلَها للأرض هو المعضلة، المستقبل يفزعهم، والتجارب لا تصل بهم إلى غاية حاسمة ومريحة، قال جولياني بحسرة ونظرة عاجزة: «استنسخنا البشر ولا نتائج جديدة، قُلنا لعل التطور يكون أفضل كلما ابتعدنا عن الأصل، فاستنسَخْنا عن المستنسَخين، وكانت النتيجة أنَّ كل نسخة جديدة أشدُّ رداءة من التي قبلها، كلها باهتة وبليدة، أقل خصوبة، وأقل قوة، وأكثر عرضة للمرض. كأنك تنسخ ورقةً عن ورقةٍ عن ورقةٍ، كلما زادت عملية النَّسخ تاهت الحروف واختفَت، حتى تصبح الورقةُ بيضاء بلا ملامح. العلم في مأزق يا حسّون، وحضارتنا مأزقُها

أشد، المستقبل مرعب، ما لم تتحقق أفكارنا واقعًا على الأرض». كنتُ في نفسي أشعر بالتشفي وبكثير من الشماتة أمام عجزهم، أشعر بهما أمام النظرة الذليلة في عين رفيقي جولياني الذي يستعطف تفهُّمي لموقفهم، خسارتهم كانت انتصارًا لي في معركة ينقصها الشرف، مثل سعادة الضعيف حين يرى مذلة القوي، حتى لو لم يكُن تعرض له بِشَرٍ، أو مثل رؤية الفقير المُعدم لغنيّ أصبح يتكفف الناس، فهان عليه فقره، هكذا كانت رؤية عجزهم تخفف من شعوري بالعجز، ويمنحني فشلهم شيئًا من الرضا عن القدر، فقد امتلكوا كل أسباب القوة، ومع ذلك لم يحققوا ما أرادوا، فلماذا أحزن لخيبتي، وأنا لم أمتلك القوة في أي يوم؟!

عدنا لحيّ العصافير أخيرًا، استغرقت جولتنا يومًا بطوله، أتعبتني الرحلة التي كنتُ أظن أني سأجدُ فيها الراحة وكسر السأم؛ فإذ بها تملأ نفسي باليأس والقنوط، فقد أدركتُ أنَّ مكثي سيطول عندهم، حتى تنتقِلَ أفكارهُم من رؤوسِ علمائهم، إلى أرحامِ نسائهم! بعدما دخلت غرفتي، جاء إليَّ جولياني وأعطاني علبةً من مسحوقٍ جديد، وأخبرني إنه سيزيلُ أثَرَ الأول، سألتُه:

- هل يمكن أنْ أحتفظ بمسحوقكَ هذا؟ فقد أعجبتني تجربة الشيخوخة.

- نعم، وسأحضر إليك المزيد منه.

- كم يمتدُّ أثَرُه؟

- شهران، ما لم تقُم بإزالته عن طريق المسحوق الآخَر.

- وكم تدوم صلاحيته؟

- للأبد، صلاحيَّتُه لا تنفد.

ضحكتُ وقلتُ له:

- لعَنَ الله الأبدية التي أصابتكم بالجنون. لكن لا بأس، فمَن يدري، ربما يأتي يومٌ أحتاج فيه إلى مسحوقكم الـمُزَوِّر.

أصبحتُ أستخدمُ المسحوق في غرفتي لأشاهد وجهي عجوزًا، وأفرحُ بشيخوخةٍ مزيفة لم أبلُغها قط. بعد يومين جاءني جولياني بالكثير من مسحوقه كما وعد، فخبأته في صندوق أمي، مثل كنزٍ أخاف ضياعه.

اكتملَ حَملُ النساء المُخصَّبات بنِطَافيَّ، فوضَعنَ خمسَ إناث ليس بينهُنَّ ولد، يستوي الأمر، أنا قيد التجربة، ونسلي الـمُخلَّق رغمًا عنّي، كذلك. قاموا بأخذ النُّطَف مرةً أخرى، لكن مع مزيد من التدخل، لم يتركوا الأمرَ للصُدفة، ولا لقرار الحيوانات المنوية في أيهم يفوز بالبويضة، قاموا هم بتحديد الحيوان المنوي الفائز، شرط أنْ يأتي بالذكر، لا مزيد من الإناث، مؤقتًا. كانت غايتُهم أنْ يختَرِعوا الحسّون الأول، وبعدها كل شيء يسير.

بعد مرور أربع سنوات، أخذوني لغرفة بها ستة أطفال، خمس بناتٍ وولد، بالكاد تحملهم أقدامهم، جلستُ أمامهم كأني أشاهد مجموعة من الدُمَى، لم تمسَّ يداي أيًّا منهم، ولا ابتسمت لأحدهم، ولا شعرت بحنينٍ لضمّ ولدٍ، قالوا إنه ولدي، لهم تجربتهم، وما أنتجَت، لا شيء لي هنا. وجوههم تشبهني حقًّا، خاصة الإناث، الولدُ يشبه أُمَّه، وإنْ كنت لا أعرف مَن هي أو كيفَ تبدو، لكنه قطعًا يشبهُها هي؛ إذ إنه لا يشبهُني أنا. أعطَوا لهم أسماء غربية، ثُم قدموا لي عرضًا سخيًّا وسخيفًا حين قالوا: «إذا شئت سنجعل أسماءهم عربية». ضحكتُ لحماقة العرض، هؤلاء ليسوا منّي، هؤلاء أبناءُ المعمل، فليسمهم المعمل إذن.

كنت أشاهد تقدم تجاربهم، وأنا أرى هذه المسوخ تكبر عامًا بعد عامٍ، أسوار المركز كانت حدود عالمهم، مثلما كانت حدود عالم الرجل الذي احتلبوهم منه. كان جولياني يأخذني لمشاهدتهم على فترات تفصلها سنوات، بَدَت صحتهم جيدة في كل مرة رأيتهم، كنت أسخر من جولياني وأقول له:

- كم سيكون الأمر مرهقًا لي، إنْ كنتم تفكرون في صنع أجيالكم الجديدة كلها من نُطَفي!

- اطمئن على مواردك الذاتية، نحن لا نطمع في أكثر من رؤية إنسان واحد يكون مثلك، وساعتها ستصبحُ أنتَ القانون لا الطفرة.

انتظَروا، وانتظرتُ معهم، تحوَّلَت أبحاثُهم عني، وأحكمَت حصارَها حول نسلي المُخلَّق، كنت أحس بالشفقة على هذه الكائنات المسكينة، إنْ كانت تشبهني في شيء، فهي تشبهني فقط في كونها مهجَّنة وخاضعة، رؤية هؤلاء الصغار جعلتني أدرك كم أنَّ حياتي مثيرة للشفقة وبائخة، كائنات مسلوقة جيء بها من مصادر متنافرة وجذور غير متشابهة، ثُم أُلقيَ بها في مكان لا تعرفه، ولا يكترث لها، إنما هي فيه فقط إلى حين تحقيق غاية حددها الآخرون، وعليهم هم، الصغار، الضعفاء، المُهجنين، أنْ ينفذوها بدقة متناهية! قَدَرُهم أنْ يحققوا أحلام مَن يملكون أمرهم، دون أنْ تكون لهم أحلامهم الخاصة، وإنْ وُجِدَت فعليها أنْ تظل أحلامًا، دون أنْ تطأ أرض الواقع، أو تفكر حتى في ذلك، كنت على خطأ عندما ظننت في بادئ الأمر أنهم ليسوا مثلي، كم كانوا يشبهونني حقًّا، بل كانوا مثلي، تمامًا.

بعد خمسٍ وأربعين سنة ضحكتُ من المجلس، تحطَّمَت لعبتُهم، ماتَ المسوخ جميعهم، ولم يبلُغ أيٌّ منهم حتى خمسين سنة. أربع من الإناث قضينَ قبل الثلاثين، والولد بلغ الواحدة والأربعين وسقط، وآخرُ الدُمَى بلغت الخامسة والأربعين ولحقت بهم. ماتوا جميعًا بعدما أصابهم ما يصيب الناس بمرور السنوات، وجوههم تتغير، وأجسادهم تضعف، وشبابهم يبلى، حتى قبل انقضاء عهد الشباب، وفي الخاتمة، ماتوا بيُسرٍ وسهولة، كما يموت الجميع. فشلت التجربة، وخَسِرَ المجلسُ الرهان، ما زلتُ الطفرة. وددتُ أنْ أزور قبر جولياني وأضحكَ فوقه ملء فمي وأنا أخبرَه بضياع حلمه، ليته عاش ليرى فشل العِلم، الذي لم يكُن يثق يومًا بشيءٍ سواه.

كل العلماء الذين بدأوا التجربة ماتوا، وتتابعت خطواتُ المجلس، يَرِثُها عالِمٌ عن عالِمٍ، وأنا رهنُ قرارهم لا أملكُ شيئًا من أمري. جربوا كل شيء، قدَّموا لي نساءً ليكون الحمل من معاشرة طبيعية، لعل الأمرَ يأتي بغير الخيبة، وافقت بعد قليلٍ من التردد، نسيتُ التيجاني وما علَّمني إياه، مثلما نسيتُ التوراة والقرآن وما يأمران به، وما زالت الشهواتُ لها صوتٌ يسمعُه جسدي، فلم يطُل تردُّدي أمام نسائهم، وقلتُ: لا بأس بمزيد من السقوط لنعلَم ما يخبئ القاع لنا. ولا جديد، تحبلُ النساء، يكبرُ الأطفال، تطولُ أعمارهم لخمسين أو ستين سنة، ثُم يضربُهم الشيب، تتساقط أسنانهم، تنحني ظهورهم، ثُم يموتون. قرروا أنْ يجربوا الاستنساخ بدلًا عن أخذ النُّطَاف والتخصيب الطبيعي، أخذوا المادة الوراثية من نواة خليتي، وفرغوا البويضات الحاوية من نواياها، وزرعوا هذه في تلك، استنسَخوا ألفَ حسّون، فلم تكُن أي نسخة منهم حسّون. أصبحت أستطيع رؤية وجهي في تلك الدُمَى المستنسَخة، رأيتُني وأنا طفلٌ وغلامٌ وشاب، وعندما جاوزوا الأربعين تغيَّرت ملامحهم، فلم أرَ وجهي بوجوههم المتجعّدة، هو الفشلُ مرة بعد مرة، آلاف التجارب والمحاولات وهؤلاء السفلة لا ييأسون أبدًا، ولا تتوقف محاولاتُهم. ثلاثة قرون مرَّت وأنا تحت أيديهم، لا يردعُهم طول السنوات وتتابع الخيبات، وكلما زاد عمري سال لعابهم لبلوغ أمري، رجل عمره خمسمائة سنة ولا يصيبه الهِرَم، أو يطالُه الموت.

في بداية القرن السادس من حياتي بدأَت المعركة. «كاثي»، تلك الأُمَّة المسالمة لم يَعُد يقنعها السلام، منذ قرون وهي

تسابق دول المجلس، ودومًا هنا يسبقونها بخُطوة، لم تزل دول الغرب موحَّدَة تحت قيادة المجلس في شؤون العلم والبحث، غير أنَّ لكل دولة سيادتها وقراراتها، وحدودها الخاصة، دون تدخل من المجلس. أثارت فرقتهم شهوة التنين، فقرر أنْ يتقدَّم عليهم خُطوة، فإنْ سبقوه في العلم، يمكنه أنْ يسبقهم في الحرب.

لم يَعُد (السور العظيم) سياجًا يحمي أُمّتَهم، بل عائقًا أمام أحلامهم، هدموه، وأكلوا الشرق بقضمة واحدة، غزَت جيوشهم كل ما حولها، كانوا رحماء مع كل الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم، اكتفوا بضم بلادهم ولم يُهلكوهم، لكنهم قاموا بخُطوة صغيرة تضمن ولاءَ الشعوب الخاضعة لسلطانهم، تعديل وراثي بسيط يخص «جين الخضوع»، لم يكُن ذلك اختراعًا لهم، كانت اللعبة قديمة، بدأت هنا في دول المجلس ثُم توقفوا عنها ولم تكتمل، فتلقفتها يد التنين، لكنهم أداروا اللعبة بالعكس، «اليوجينا» التي حلم بها علماء المجلس لانتخاب أفضل السلالات قوةً، قام بها علماء الصين، لكن لانتخاب أفضل السلالات خضوعًا، كل من يمتلك جينات التميز والتفرد والتطلع، يحرم من التزاوج والإنجاب أو يقتل، كل مَن يتمتع بجينات المسالمة والخضوع يتم تزويجه بمن هو مثله، ويقال له: امنحنا أطفالًا ودعاء لا يثيرون الضجة. فلم تأتِ الأمم الـمُنتَهكَة إلا بأجيال من المأسورين، خاضعون وهم أجنة في الأرحام، أجيال مُنحطّة جينيًّا، زرائبٌ من العبيد، لن يُقاوموا، وإلى الأبد. «اليابان» وحدها خرجَت عن تلك المنحة، لم يتمَّ تعديلهم بل محوهم، لم تنسَ الصين ثأرَها القديم، فكانت إبادة أمَّة اليابان بأكملها، فعَل بهم العلم ما لم تفعله مجازر الأديان مُجتمعة.

سعت دول المجلس طويلًا للوصول إلى التوحُّد الكامل، ففشلت، ثُم جاء الجبار الأصفر فأقنَعَها بسهولة ويُسر، كان الرعب أفضلَ مفاوِض على التوقيع، فوقّعَت الشعوب الغربية المرتعبة بالموافقة لإيجاد الحكومة العالمية، تحقّقَت وحدة أوروبا وأمريكا وروسيا أخيرًا، تحت سلطة الـمُختَبَر. لم يَعُد سلطان المجلس على ما يخصُّ العِلم وحدَه، صار بيده كل شيء، ورؤساء الدول مجرد مندوبين عن إرادته العليا. كنت أنتظر اشتعال الجحيم حين تصطدم قوة بلا ضمير مع قوة بلا شرف، تمنيتُ انهيار الأُمتين باندلاع الحرب، فساعتها قد يأتي خلاصي، لكن هم هنا لم يعلنوا الحرب على التنين، الحربُ موت، وهم لا يريدون منه المزيد.

ووسط هذه المخاوف المُرتقبة، كنت أفكّر في بلاد أبي العربية، ماذا سيحدث لو غزاها التنين؟ هل ستحتاج هي الأخرى إلى «اليوجينا» وتعديل وراثي لتخضع؟! أم أنها ستُقدِّم الخضوع بالمجان؟ دومًا كان لبلادي رأسٌ واحدٌ، كبيرٌ وصلبٌ، يقبضُ على كل شيء وليس من السهل كسره، وإذا تمَّ حَزُّ الرأس تصبح الشعوب جسدًا رخوًا، يمكن دفعُه بسهولة للهاوية، ودون بذل الكثير من الجهد، أما ها هنا في الغرب فإنَّ لديه ألفَ رأس، فإذا تمكّنوا من رأس المجلس، فسيجدون في كل موضعِ قدَمٍ رأسًا صغيرًا مُتأهِّبًا للقتل، وكلها قادرةٌ على التدبير والمقاومة، ولذلك ربما، لن يسقط الغرب بِيُسر أو دون دفع ثمن أليم، وربما لهذا ما زال التنين مُترددًا هو الآخر عن إشعال الحرب مع المجلس.

رئاسة المجلس لا يحددها اقتراع شعوب الغرب، بل ولا شأن للناس باختياره، مجموعات العلماء وحدها هي التي تُقرر مَن يكون رئيسًا للمجلس، وللغرب بأَسرِه، «البابا» الجديد، بابا العلماء. ذات يوم وبعد سنوات من توحد الغرب تحت سلطة المجلس، جاءتني السيدة المُكلَّفة بمتابعة شؤوني، وقالت: «رئيس المجلس، سيقابلك بنفسه يا سيدي». تغيرت أشياء كثيرة على مدار القرون الثلاثة التي قضيتها تحت يد المجلس، لكن وضعي لم يتغير في شيء، إلا أمريْن: التقدير، وشيء من الرهبة في نظرة كل مَن يتعامل معي. لا أدري لماذا أصبح أغلب من هنا ينادونني: «سيدي». صوتهم يحملُ الإجلال إنْ حدَّثوني، وأرى هيبةً في عيونهم إنْ نظروا إليَّ، لم يشغلني الأمر كثيرًا، وقلتُ لعلهم يُقدّرون رجلًا يكبُرهم قليلًا في العمر، ويزيدُ على أكبرِهم سنًّا بأربعة قرون على الأقل.

تجهزتُ لمقابلة رئيس المجلس، هذا إنْ كانت كلمة «تجهزت» تعني شيئًا، فغاية الأمر أني لبستُ حذاءً غير الذي ألبسه

في المنزل عادةً، ثُم جاءت سيارة وأقلّتني إلى مركز المجلس في روما، كان هذا هو لقائي الأول مع «بلاتون» الرئيس الجديد للمجلس، رجلٌ في الخامسة والستين من عمره، عالم في الكيمياء، ورئيسٌ للمجلس في الوقت ذاته. حاول أنْ يكون ودودًا معي، لكنه بدا متصنعًا بشكل مفضوح لا يليق بسياسي يجلس فوق عرش العالم، الحقُّ أنه كان عالمًا أكثر منه سياسيًّا، وربما لذلك لم يطُل في عبارات الترحيب والتودد، ولم أكُن أنتظرها منه، كان السكوت يخيم علينا كفواصل بين العبارات المقتضبة، وهو لا يفصح عن السبب الذي استدعاني لأجله، بعد لحظات من الصمت سألتُه:

- هل استدعيتني لترحب بي فقط؟

- لا، استدعيتك لأخبرك إنه سيتم نقلك من المركز الذي تقيم فيه.

- أنتم تفعلون هذا كل مرة دون إخباري حتى، فهل كان الأمر يستحق أنْ يخبرني رئيس المجلس بنفسه؟!

- هذه المرة مختلفة، ستقيم في مركز المجلس ذاته، لا مراكز الأبحاث، ولذلك استدعيتك لأخبرك بنفسي.

- لماذا تُرهقون أنفُسكم بنقلي على الدوام؟

- لأننا نعتمد على عوامل كثيرة ربما تُحدِث فارقًا في أبحاثنا، منها تغيير المكان.

- لن تصلوا إلى شيء، أنتم تحاولون منذ ثلاثة قرون ولا تريدون أنْ تفهموا الحقيقة الوحيدة التي تتضحُ بجلاء، أنا هكذا، لأنها إرادة الله. لا أسباب، لا علل، ولا نتائج ستبلغونها.

- دعكَ من الله وإرادته، سنصل إلى حقيقَتك بأنفسِنا ووفقًا لإرادتنا نحن، حتى وإنْ طال الأمر لأكثر من ثلاثة قرون، احتاجَ العالَم لألفَي سنة كي يقتنع فقط بأنَّ الأرض هي من تدور حول الشمس، لا العكس! وبهذا المقياس، فما زالت أمامنا فرصةٌ كبيرة لنصل إلى ما نريد.

دومًا كنت أرى الدهشة، وشيئًا من التعاطف، في عيون مَن حولي، كل رؤساء المجلس الذين التقيتُ بهم، على مدار العقود الطويلة كانوا لطفاء معي، إلا بلاتون، لم أرَ في عينيه إلا التحدي، وشيئًا من البُغضِ، لم تستطع أنْ تُخفيه بسمتُه الباردة، كان صلبًا معتدًّا بنفسه، مُلحدًا لا يؤمن بشيء، عندما قرر استبقائي في مبنى رئاسة المجلس، لم أُبدِ اعتراضًا، كنتُ أعرف أنه سيُخضعُني لأمرِه إنْ رفضته، أردتُ أنْ يكون الأمر بيدي، ولا أمنَحَه ذاك الشعور بالتسيُّد. أخبَرني بنفسه إنه ظن أني سأرفضُ البقاء في بناية الرئاسة، فقلت له: «على العكس، أريدُ الإقامة في مقر المجلس، لأُبصر عن قرب لماذا تفشلون على الدوام!». والحقُّ أني كنتُ كارهًا لهذا المكان وكل ما فيه، بنايةٌ تقع في وسط روما، شاهقةٌ، جبارة، منعزلة، مثل دولة قائمة بذاتها، خانقة كمعتقل قديم، لا توجد بها نافذة واحدة تطل على الخارج، مكاتب وغرف متلاصقة وممرات طويلة جدًّا، وخاوية على الدوام، كأنها بنايةٌ مهجورة وليست مركزًا يحكُم الغرب بأَسرِه. علمتُ بعد ذلك أنَّ بلاتون لا يغادر البناية مُطلقًا، تسعُ سنوات ولم يخطُ خُطوةً واحدةً خارجها، منذ ترأَّسَ المجلس، لا زوجةَ له، ولا أُسرة، مخلوقٌ من الشمع يبتسمُ حين يغضب، تمامًا كما يبتسمُ حين يفرح، ولا يمكنك أنْ تعرف على أي الحالتين هو!

التزمتُ الغرفة التي جعلوها محلًّا لإقامتي، فلم أغادرها، ولم أقبل عرضَهم بترك الغرفة بين حين وآخر للتريض في الطابق رقم (٩٠)، ذاك الطابق المخصص للترفيه عن المُقيمين بالمركز، يمتدُّ على مساحة ثلاثة آلاف متر، زرتُه مرة واحدة، فيه بساتين وأشجار مثمرة، طيورٌ وماءٌ يجري، يشبه الحديقة، لكنه ليس حديقة، يحدُّه سقفٌ، لا سماء، هواء تضخه الآلات، حرارة تتدفق من آلات، جداول ماؤها يجري بقوة الآلات، كل ما ها هنا كاذبٌ، مزيفٌ، ومصطنع، ليس داخل المركز فقط، بل وخارجه، على مدار هذه القرون الثلاثة خضعت الأرض لهم، كما خضعت السماء، طعامُهم يزرعونه بكبسولات جبارة تسبح في الفضاء، الواحدةُ منها تمتدُّ على مساحة أميال، كبسولةٌ واحدة يكفي إنتاجها لإطعام مدينة كاملة، ولمدة عام،

أطلقوا منها الآلاف تدورُ في الأفق البعيد، يُحددون كل ما يحتاجون إليه بدقّة لا تخيب، مقدار الضوء، طبيعة الهواء، قوة الجاذبية، موعد الليل، موعد النهار، ويُحددون الفصول داخل الكبسولات كيف شاؤوا، فيقررون متى يكون ثمر الصيف، ومتى يجب أنْ يخرج طعام الشتاء.

سنوات لم أغادر فيها جدران مبنى المركز منذ أول لقاء برئيسه، لم أطلب منهم أنْ يعيدوني إلى المراكز المفتوحة كما كانت الحال قديمًا، لم أطلب أي شيء حقيقةً، اكتفيت بغرفتي منعزلًا فيها، أخرج عندما يطلبونني، وأعود إليها عندما ينتهون مني. «توما»، أو توما الشكّاك كما كنت أدعوه، أصبح المسؤول عني داخل مركز المجلس، شابٌ في الثلاثين، وديعٌ خجولٌ ومُتقد الذكاء، كان مُقربًا من بلاتون ويعرف عنه أكثر من الجميع، منذ وفاة جولياني وأنا أتعامل مع الجميع على أنهم منتهكون لجسدي، ليس إلا، أخذ توما مكانة جولياني بطريقة ما، وأصبح صديقي، ربما حدث هذا بفضل ذكائه، الذي مكّنه من التعامل معي بطريقة ودود ومريحة لي، يأتي إلى غرفتي كل يوم تقريبًا، نجلس لساعات نتحدث معًا، وعندما أطرق إلى الأرض يدرك رغبتي في إنهاء الحديث، فيغادر الغرفة بلا تأخير. رغم ميلي للعزلة بعيدًا عن الجميع، فإني أصبحت أحب رفقته، ومع الوقت عرفَ طبيعة مزاجي وأوقات تغيره، في أيام استدعائي للمعامل أكره الاختلاط، ولا أتكلم مع أحد، فكان توما يتحاشاني ولا يأتي لزيارتي، يأتيني في الأيام التي لا أخضع فيها لأبحاث المعامل، فأستقبله مُبتهجًا بوجوده، ونقضي اليوم معًا. توما كان ينفي أنَّ بلاتون يكرهُني، ويؤكد أنَّ قرارَ وضعي داخل بناية المجلس كان لأسباب حقيقية، فهمتُ منه بعد ذلك أنَّ الدين كان هو العدوَّ الأكبر لبلاتون، حتى إنه لا يكترث للمارد الصينيّ، مثلما يكترث لاستئصال الدين من قلب الغرب، ولهذا قرر نقلي إلى جواره، ليضمن أنَّ العَدوَى لن تضرب المراكز العلمية، بعدما بلغَته التقارير حول سلوك أعضاء المراكز معي، وأزعجَته القداسة التي غزَت نفوسَهم نحوي، حتى إنهم أصبحوا لا ينادونني «السيد» حسّون، بل «سيدي» حسّون، صنعت هذه «الياء» الزائدة ذعرًا لدى رئاسة المجلس، عندما استنكرتُ تبرير توما لموقف المجلس وحبسهم لي في هذه البناية المقيتة، قال:

- المجلس معذور في قراره، فمَن يدري، ربما تطور الأمر وأصبح العاملون بالمراكز يرونك قديسًا حقًّا، أو ابنًا جديدًا للرب. أنتَ معجزة بأي مقياس يا حسّون، وقد أبقاكَ بلاتون هنا ليحمي العقل العلمي، لا ليستبدَّ بك، وجودك يغذي نزعة الإيمان في العاملين بالمراكز، الإيمان خطر على بقاء المجلس بل والغرب ذاته، بلاتون يقول دومًا: لن يكون في الغرب إلهان، إما الرب وإما العلم. وهو أبدًا لن يؤمن بالرب.

- وهل تؤمن به أنتَ يا توما؟

- تجاوزتُ هذا الأمر منذ فترة بعيدة، ولم أَعُد أفكر فيه، هذا سؤالٌ لا جواب عليه، قناعتي الخاصة أنَّ العلم أجابنا عن كل التساؤلات إلا هذا. أعضاء المجلس السبعة عشر جميعهم مُلحدون لا يؤمنون بإله، وإذا سألتَ أيًّا منهم فلن تَطرف عينُه وهو يخبرُك بثقة إنَّ «الله قد مات»، ليس منذ قال «نيتشه» بهذا، بل منذ عرف «ديموقراط» وهو يخلط الخمرَ بالماء أنَّ كل شيء ما هو إلا ذراتٌ تسبح، ربما ستجدني هنا الوحيدَ الذي لا يستطيع أنْ يجزم بالجواب.

- ولماذا لم تركن إلى الإلحاد مثلهم وأنت واحد منهم في النهاية، بل وأقربهم لرئيس المجلس، على الأقل لتتخلص من حيرتك؟!

- ليس الأمر سهلًا لينتهي باتخاذ قرار، هذا العالَم الكبير مربِكٌ ومُحيّر، رغم كل ما لدينا ما زلنا غير قادرين على الفهم. نعم نرى بدقة، لكن لا نفهم. الواقع العلمي ذاته ما زال يعاني معضلة الإله، ولا يستطيع نفيَه بثبات، إلا إذا تخلّى عن حياده العلمي. هذا الكون وراءه سرّ، علماء المجلس يسمونه العبثية، والكنيسة تسميه الله، والعالِمُ المحايد ما زال ثابتًا على «لا أدري»، وأزعمُ أنني ما زلت على الحياد.

- حسنًا يا توما، أنْ تُقِر بأنك لا تدري، خيرٌ من نَفيِكَ القاطع لما هو غيرُ مقطوع بنفيه.

أصبح بلاتون يستدعيني لمكتبه أكثر من استدعاء خبراء المعامل لي، ربما أخبره توما بحواراتنا، فأراد التعرف إلى عقلي، بعدما كان جسدي هو شاغلهم الوحيد، أو لعله كان يحاول فقط تزجية وقته في الحديث معي، مَن يدري ربما رغم كل شواغله، فإنه مثلي يحس بالسأم داخل مبنى المركز الكئيب، كانت لقاءاتنا تدور في شكلٍ واحد: يتكلم، وأسمع. نادرًا ما كنت أبادله الحديث، وأحيانًا كنت أستجيب له وأتكلم، حتى يشبع غروره وينتهي اللقاء، لم يكُن في المركز شيءٌ أثقل على نفسي، من جلوسي معه بمكان واحد. أحيانًا كنت أتعمد تكديره بكلام يغضبه، لكنه رجل لا يغضب، أو بمعنى أدق لا يظهر عليه الغضب، ومع ذلك كنت أعرف أني أصبت غايتي، ونجحت في ضرب غروره، عندما أهاجم فكرةً لديه، فيسهب في الكلام، ويسترسل إلى ما لا نهاية وهو يدافع عن فكرته بضراوة، ذات مرة قلت له:

- أنتم مثيرون للشفقة، الدواء في أيديكم وتبحثون عنه في كل مكان، لماذا لا تمنحون الدين فرصته في بلادكم، وساعتها تنضبط حياتكم، ويعود الناس للزواج وتمتلئ المهود بالصغار، وحينها لن تفتقروا إلى سِرّ شبابي، سيكون لديكم بالمجان؟!

- لا شيء بالمجان، إنْ فعلنا ما تقول ستخضع الحضارة للجهالة، ويسود القساوسة لا رجال العلم.

- اللعبة إذن هي السيادة، ومع ذلك فلا فرق بينكم، ما أنت إلا قسيسٌ يقف في المعمل، بدلًا عن الكنيسة، تحتكر الصواب في ذاتك، وتختزل الحقيقة وفقًا لمقياسك!

عندما قلت هذا، تبَسّم بلاتون بسمته الثلجية، وقام عن كرسيه، وحدَّق في سطح مكتبه، لم يكُن فوق المكتب إلا ثلاثة أشياء: قلم، ومقياس زئبقي قديم، وصليب. نظر إليَّ ثُم أمسك بيمينه الصليب وبشماله المقياس، وقال:

- نعم، أنت على صواب، لا توجد حقيقة في هذا العالم، إلا ما يُحدده مقياسُك الخاص، المقياس هو أساس كل شيء، فإذا أردتَ أنْ تطالبني باحترام الأخلاق، يجب أنْ نجيب أولًا عن سؤال: ما هي الأخلاق؟ وقبل أنْ نَصِفَ حركة أي شيء بالسرعة أو البطء، يجب أنْ نمتلك أولًا مقياسًا نُحدد به ما هو السريع والبطيء، وبالنسبة إلى ماذا؟ هذا الصليبُ مقياس، وهذا الأنبوبُ الزئبقيّ مقياس أيضًا. الأول لن يُحدد ما هي الأخلاق قبل مطالبتك بالتزامها، إنما يُعطيك الأمر مباشرةً بالتزامها، الثاني مُحترم وعادل، يتفق معك أولًا على القاعدة، ثُم يطالبك بالتزامها. نعم الدين سيوقف نزيف الحياة المُستمر منذ قرون، سيتوقف الزنا، ويُجرم اللواط، ويعود الناس لحياض الزواج، وينجبون الأطفال، لكن ساعتها سيموت شيءٌ مُهم، بل وأهم من الحياة ذاتها، ستموت إرادتُنا، إرادة العلم، ولن تكون هناك سوى إرادة الرب، وحينئذ ستحل الكارثة القديمة من جديد، الكنيسة لن تقبل أنْ ينازعها العلم عرشها، انظر في تاريخها الطويل، ستجد أنها لم تحرق من الكفار والساحرات، مثلما أحرقَت من العلماء.

- ولماذا لا يتعايشان معًا؟

- العلمُ والدينُ لا يجتمعان، العلمُ ينظر من أسفل إلى أعلى، والدين ينظر من أعلى إلى أسفل، لذلك لن نرى الشيء نفسَه أبدًا. العلماء ورجال الدين ليسا حزبين داخل القُطر نفسه، بل نحن أمتان وحضارتان تنفصل كل منهما عن الأخرى بانفصال الأرض عن السماء، هم يؤمنون بالثبات ونحن نؤمن بالتطور، وأنت تحديدًا تمثل لنا الدليل والآية والطريقة؛ الدليل على أنَّ التطور ممكن.. والآية التي تصدق رسالة العلم.. والطريقة التي ستجعل عالمنا أفضل.

- هذا يعني زوالكم، سيتفسخ مجتمعكم قبل أنْ تصلوا إلى مرادكم ويتساقط لحمه كل يوم، وقريبًا لن توجد أُسرة واحدة في بلادكم، إنما أفراد يعيشون منفردين، لا تجمعهم إلا الرغائب، يقضونها ثُم يعود كل منهم إلى عزلته، حتى الحيوانات لا تعيش هكذا!

- ربما كان قولك صوابًا، ولهذا أنت هنا، وستظل. وحتى نصل إلى المعادلة الصحيحة، وحتى نحقق ما نُريد، فلن ندعَمَ عودة الأُسرة التي تقوم على الإيمان، مهما كان الثمن، لن نرتَدّ إلى سيادة الرهبان، وتمزُّق الغرب من جديد، الأُسرة تحزُّب صغير، هي النواةُ الصَّلبة للانغلاق، سيتكرر ما كان يحدث منذ أقدم العصور، يبدأ الأمر بأسرة تضمن ولاءَك لمجموعتك الصغيرة، ثُم تنتمي المجموعة إلى عائلة، والعائلة إلى عشيرة، والعشيرة إلى قبيلة، وهذه الأخيرة تحتاج إلى قواعد أخلاقية تضمن ولاءَ أفرادها، وليس هناك خيرٌ من الدين لتحديد تلك القواعد، فتنتمي القبيلةُ إلى الدين، وتمنح ولاءها للكنيسة، ويعود السلطان إلى البابا! وهذا هو تحديدًا ما لن نسمح به.

- أنتم هنا في المجلس، تضعون قواعدَكم الخاصة بالفعل، ومنها قواعدكم الأخلاقية. فكيف يرفض عقلك العِلمي وجود القانون الأخلاقي، القانون هو صُلب العِلم وأساسُه، فلماذا تستنكر على الدين أنْ يكون له قوانينه الأخلاقية التي تحكم الناس؟

- مَن تحدّث عن القانون؟! حدّثتُك عن المقياس، لا عن القوانين. القانون هو نتيجة لمقياسك الذي تستخدمُه، الأغبياء فقط ورجال الدين، هم مَن يدافعون عن القانون، نحن نحارب دفاعًا عن المقياس وليأتِ بأي قانون بعدها، عبقريةُ حضارَتِنا العلمية تتجلّى في قدرتها على تغيير القوانين لا ثَباتها، بينما الدين لا يقبل بلعبة الكراسي أبدًا، ويُريد تثبيت قوانينه للأبد.

- منذ قيام «الثورة الفرنسة» وأنتم في حرب مع كنيستكم، ولم تنتصروا رغم مرور هذه القرون الطويلة، لماذا لا تستسلمون لهذه الحقيقة البسيطة: لا يمكن إنهاء الدين مهما حاولتم، الناس إذا لم يجدوا إلهًا، فسيصنعونَه.

- نحن لا نريد إنهاء الدين، بل ونحرص على وجوده، فهو مُهم لنا، مُهم لنُثبِتَ به أنَّ العِلم هو الصواب، نحن لا نريد الانتصار عليه عن طريق إفنائه، بل بجعلِه مدعاةً للسخرية، حتى مِن نفسه.

- أنتَ تتحدّث كرجل دين لا كعالِم، لا تقبل إلا نفسك ولا تريد أنْ ترى إلا فكرتك أنت، ماذا لو كنتَ على خطأ؟! أُمّتك كلها تدفع ثمن تمسُّك مجلسِك بفكرته، تتسولون الحياة وتخضعونني منذ قرون لتجاربكم، لتمدُّوا أعمارَ الشباب قليلًا، الدواء تحت أرجلكم وفي متناول أيديكم، أفسِحوا لدينكم مقدار إصبعين فقط، وستتدفق الحياة من جديد في الغرب بأَسرِه.

- جميع ما قلته هُراء يا حسّون، لا أتفق معك إلا في أمر واحد: أنَّ العلماء حقًّا يشبهون رجال الدين. نحن نفهَم الدين ونَعرف خطرَه، تمامًا كما يفهم رجل الدين حقيقة العلم ويُدرِك خطره عليه، رجال الدين لم يحارِبوا إلا النظريات التي هددت عقائدهم؛ إذ كانوا يفهمونها بدقة متناهية، سأعطيك مثلًا: اكتشف «ديموقراط» حقيقة الذرة قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون، عندما لاحظ أن عجينة الخمر تتحلل في الماء حتى تصبغه باللون الأرجواني، فعرف ديموقراط أنها تتكون من ذرات تتفكك وتتباعد، ثم تختلط بذرات الماء، ولهذا الاكتشاف تحديدًا رفضت الكنيسة نظريته، حتى تثبت قدسية القربان الإلهي بأن لحم المسيح في الخبز ودمه في الخمر هو كتلة واحدة، لا تتفكك ولا تتكون من ذرات، لم ترفض نظريته فقط بل وهددت بالحرق كل من يقول بها، وبالفعل أحرقوا «جيوردانو برينو» هنا في روما؛ لأنه قال بنظرية الذرات المفككة. كانوا يفهمون النظرية بدقة كاملة ويعرفون أنها تنسف معتقدهم فرفضوها بلا تردد، لذلك يمكنني أنْ أقول لك إنَّ كل رجل دين هو عالم في الأصل، لكن بلا شرف. وإذا منحناه حقَّ التنفس، ستنتهي الحضارة.

- الحضارة.. الحضارة! لماذا تَقصِر الحضارة على العلم؟ حقق الدين سيادته وصنع حضارته، وأثبت أنه هو الصواب الوحيد على مدى القرون، مثلما تزعم أنت اليوم أنَّ العلم هو الصواب الوحيد.

- لا، إنَّ بيننا فارقًا كبيرًا لا تفهمه. لم يَسُد الدين لأنه كان الصواب الوحيد، بل لأنه كان الوحيد الذي يُحدد ما هو الصواب. ضَعْ المُزيَّف فوق الطاولة وأَخفِ الحقيقيّ أسفلها، وسيصبحُ المُزيَّف هو الحقيقة الوحيدة ساعتها، ما فعلناه أننا أخرَجنا المخبوءَ أسفل الطاولة، فظهَر الفارقُ جليًّا بينهما، ولذلك لم نفعل ما فعلوه، فما زلنا نتركهم يعرِضون بضاعتهم ليراها الناس، ويعرفون الحقيقي من المُزيَّف، هم تحدثوا عن الحقيقة الثابتة، فأظَهرنا للناس كيف أنَّ كل الحقائق تتغير، والواقع يشهد لنا، جعلوا الأخلاق مفروضة من أعلى، ونحن قُلنا بل من أسفل، وسنرى إلى أي الرأيين يميلُ الناس، تحدّثوا عن تضحيات القديسين، فعلَّمْنا أطفالَنا تضحيات العلماء وكيف أحرقتهم الكنائس، أظهرنا نضال «جيوردانو برينو» وكيف أحرقوه، وبسالة «غاليلي» ولماذا سجنوه، فأصبح العلماء هم القديسين الحقيقيين، الناس يبحثون دومًا عن القداسة، وقد أعطيناها لهم، لكن بقواعدنا نحن، قواعدنا الصحيحة.

مناظرَةُ العلماء صعبة ومرهِقة، كنتُ أعلمُ يقينًا أنني على صواب، لكن كيف أثبتُ هذا الصواب، ما لم أمتلك الدليل العقليّ عليه، في عالَم أَلقى بالقلبِ في أعمق بئر ولم يَعُد يعطي سلطانًا إلا لعقلِه فقط، والعقل هو الكذابُ الحاذق، أفضل مُزوِّر للحقائق، أفكارهُ متماسكة ومدهشة، لكنها كليةً خاطئة ومُلتبِسة أمام يقين القلب. أين التيجاني؟ ربما لو كان شيخي معي لاستطاع أنْ يُفحم بلاتون، وأنْ يمحقَ براهينَه العقلية بنورِه القلبيّ، لكنَّ شيخي ميت منذ قرون وترَك للعالَـم تلميذًا يشعُر بالحق ويعرفه، لكن لا يستطيع أنْ يشير إليه بيدٍ واثقة. ولماذا أكترث لهم؟! ليمُت الغرب أو يحيا، لا شأن لي، لا أفهم لماذا يكلّفون أنفسَهم عناء تحديد مصير أُمتهم، بعد قرون ربما لن تأتي حتى؟ يُتعِسون حاضرَهم من أجل سعادة مستقبل لن يكونوا فيه، هل الحياة في هذا العالم تستحق كل هذا العناء؟! أنا أفضل مَن يجيب عن هذا السؤال، والجواب كان على الدوام: لا. ماذا سيحمل المستقبل لهم؟ إذا كان هذا هو حاضرهم فعليهم أنْ يسعوا لنهاية الحياة لا تجديدها، كل شيء هنا لا لونَ له ولا مذاق، كل شيء يتشابه ويتداخل، وكل شيء لديهم مُلتبِس، اللّعبُ جدٌّ، والجدُّ هزلٌ مُنظم، اقتصادٌ يقوم على قواعد مُفترَضة، أخلاق يُحددها كل فرد كيف شاء، سياسةٌ بيد المجلس صاحب العقل البارد، حدودٌ تمَّ محوها، وأممٌ فقدت هويتها وصارت كتلةً واحدة، قوية لكن لا روح فيها، قضوا على الحرب، ليس لأجل السلام، لكن لأنَّ الحرب مَدعاةٌ للانتماء، والانتماءُ يصنَعُ الحدود، ويعيدُ الإنسان إلى السماء، ويرفعُ قيمةَ الاستشهاد، فيعيدُ الآخرةَ للأذهان، وكل هذا مرفوضٌ، فكان السلامُ هو الضمانة لاستمرار الوحدة الملساء، الوحدة الرخوة، لا صلابةَ لأي شيء، كل الأشياء مائعة، سائلة، وتتشكل في أي إناء.

استمر عالمـهم رغم كل شيء، فإذا عطبَت الأطراف يمكن زرعُ غيرها، إذا ضعُفَ البصر فما أسهل استبدال العين بأخرى أحَدُّ بصرًا وأجمل شكلًا، قلبك له بديل، رئتك لها نسخة تنتظر دورتها، نعم، ستموت في النهاية، لكن لن تموت سريعًا، نعم، ستشيخُ وتهتزُّ ذاكرتك لأنه لا بديل للعقل، لكن ستصمد لسنوات طوال، وها هنا حسّون قيد التجارب، والغربُ ينتظر نجاح مجلسه المُقدَّس، مجلس المختبَر، مجلس العِلم والعلماء، فالعلمُ هو الدينُ هنا، وله محرابه ورهبانه، رهبانٌ ملاحدة لا يؤمنون بإله، غايَتُهم إطالة أمد الحياة لأطول فترة ممكنة.

قرنٌ وراء قرن، وأنا هنا أشاهد تلك المأساة العبثية، وبلادي التي لم تعرفني يومًا، تقبع خلف البحر هناك، تتمزَّق وتلتئم، اتَّحدَ المغرب الكبير، ثُم انفصمَت عُراه، ثُم عاد واتَّحد، والمجدُ العربي، عادَ فارسيًّا، أكَلَ أحفادُ كسرى العراق وأطرافَ الشام، وعادت المجوسيَّة دينًا شرقيًّا، تُضيءُ نارها في الفرات وما وراء النهرين، والعرب حنَّوا لرعي القطيع، يقومون ويسقطون، لكن ما زالت الكعبة توحِّدُهم كلما تشرذموا، قامت دولةُ العرب في الجزيرة، دولة متوحدة لتجابه أُمَّة الفُرس المُتربصة بأطراف صحرائها، ومصر حكمَت ما بقيَ من الشام، وضربَت بحَربَتِها للأسفل فضمَّت السودان والأحباش. دولٌ

ثلاث: الدولة العربية في الجزيرة، والمصرية تمتدُّ من دمشق إلى مقديشو، ودولة المغرب الكبير تجثم على خاصرة البحر، وبينهم ضاعَ اليمن، موطنُ أبي ومهدُ أمي وشاهدُ قصتي، لم يَعُد في الأرض وطنٌ يُدعى اليمن، قبائل تتفرق بين سهوله وجباله، لا يربطها شيءٌ ولا تسعى لشيء، فلا شمالَ ولا جنوب. والتنينُ الأصفر بلغ أقصى ما يستطيع، أخضعَ كل الأمم الشرقية التي تَحُدُّ حُدودَه، والغربُ ما زال يملكُ أمرَهُ، لا تتوقف علُومه عند حدود أرضٍ ولا سماء، يملكون أمرَ الغمام في ساحِ السماء، فيستمطرونه إذا أرادوا أو يطلقون سراحَه ليسبح في القبة الزرقاء إنْ قرروا، يخترعون الزروع والثمار في كبسولاتهم الطائرة، ويعبثون بالأرض، يُحيلون الصحراء أرضًا سوداء ويقيمون مدنًا وسط البحار، حتى بلغت علومهم ما بشَّرَ به «كارداشيف» منذ ألف سنة، تحققت نبوءته ووصلت الحضارة إلى محطتها الثالثة، محطتها الكارثة، سخَّروا طاقة «المجرة» لخدمة أغراضهم، وضربهم الغرور حتى أصابهم الجنون، فقرروا نقل الأرض بعيدًا عن مدارها قليلًا، بعدما أصبحت طاقة الكون خاضعة لأمرهم، نقلوها لا لشيء إلا ليثبتوا لأنفسهم وللتنين الصيني، أنهم قادرون على كل شيء، فنقلوها. أخَذَت الأرضُ زُخرفها تحت أيادي معامِلِهم، وتزيَّن لهم كل شيء، وأنا أنتظرُ الجوابَ وصِدق الوعيد، بأنْ يأتيهم أمرُ الله، لكنه بعدُ لم يأتِ.

بلغتُ من العمر ألفَ سنةٍ، وأيقنتُ أني أبدًا لن أموت، توقفتُ عن انتظار النهاية. ولم أكُن أعلم أنَّ حسّون الأعمى، الدمية والملهاة، المتروك على الدوام، سيصبح في الخاتمة كاتبَ الحكاية، وآخر الجنود العائدين بعد هلاك الجيش كله.

ثمانية قرون وأنا تحت أيديهم أنتظرُ الصِّدام الأكبر مع كل إشراقة شمس، أستجدي اشتعالَ الحرب التي لن تُبقي من البشرية شيئًا، حين يصطدم الشرقُ بالغرب فتنير السماء بسلاح الإنسان، الذي أَعدَّه ليوم الهلاك الكبير، وربما ساعتها أجدُ الخلاص من بين أيديهم، أو أموت وتنتهي القصة كلها. لكن البشر ترددوا في الحرب ولم يُقدِموا على إشعالها، فأشعَلها اللهُ بيده.

رغم كل ما بلغوه، لم يبلغوا الكثير، ما زالت الشمسُ تُحدد موعدَ الإشراق والأُفول، وما زالت النجومُ بعيدةً جدًّا، وما زالت في السماء حجارةُ الله تسير عمياء، فيقذِفُها على مَن يشاء. أعلنَت المراكز كلها أنَّ المُذنَّب الجبار يقترب، «هالي»، صخرةُ الرب التي تترصَّد الأرض منذ آلاف السنين، أصبحت خطرًا محدقًا بعدما نُقلت الأرض عن مدارها، أجروا حساباتهم بدقة متناهية، لكنهم غفلوا عن الزائر الذي يطوف بالأرض على رأس كل سبعين سنة، فلم يحتسبوا أنَّ نقل الأرض لن يجعله يطوف حولها، بل يضرب قلبها. قال الناس: «اقترب يومُ الدينونة». ودقت نواقيس الكنائس لتعلن كلمتها: «الرب قرر أنْ ينتقم من ملاحدة العلم الذين أشاعوا موتَه». وقال علماءُ المجلس: «هو حجرٌ يدور منذ آلاف السنين، يقترب كل بضعٍ وسبعين سنةً من أرضنا ثُم يبتعد، وإنْ هدَّدَ عالمنا فلدينا من العلم ما يُمكّننا من التصدّي لضربَتِه». وجميعهم كانوا على خطأ، فإن الحجَر الراجم لم يكُن لأجل الأرض، وليتَه كان. فقد أتى لأجل الطيّب الأبيض، حكيم السماء.

ضربَ الحجرُ قلبَ (القمر) فتناثَرَت أشلاؤه في الأفق الأسود. انشَقَّ، وتصدَّعَ، وكبيتٍ مُتهدِّم تفسَّخَت جدرانُه، وتساقَطَت أركانُه، مزقته الصخرة الضاربة، وقذفت يدُ الله بأشلائه بعيدًا عن عيون الأرض، فلم يَعُد لِلَيلِها من نور.

اضطرَبَ كلُّ شيء حين غابَ القمر، المُحيط يعلو الأرضَ فيُغرقُها، ثُم ينسحب ليلدَ صحراء كانت على الدوام بحرًا، وتعجَّلَت الأرضُ في دورتها، كالممسوسة تجري حول نفسها وتهرول، فلم يَعُد الليلُ هو الليل، ولا النهار هو النهار، الشهرُ كأسبوع، والأسبوعُ مثل يوم، واليوم كأنه ساعة! كانوا يريدون السرعة في كل شيء، فأتَت السرعة على كل شيء، لكن ليس بقرارِهم، ولا بصُنع أيديهم. تدورُ الأرضُ مجنونة، كأنما تبحَث عن قمرِها الفقيد، فلما لم تَجِده وَلوَلت، وكان نواحُها نارًا.

ضَجَّ قلبُ الأرض بحُزنِها، فتفجَّرَت كثير من البراكين الـمُحتَقِنة، مُفصِحةً عن غضبها. والمجلسُ ما زال يَرصُد كل شيء، لكنه عاجزٌ عن كُل فعل، اشتدَّ الهلاكُ على شرق أوروبا فمَحَتها البراكينُ من فوق الأرض محوًا، ونصفُ أمريكا غادَرَ الخريطة والتَحق بالمحيط، وجزيرةُ العرب صارت صحراؤها بساتين خضراء، تفجَّرت الينابيعُ بعد البراكين، فجَرَت أنهارًا، وروسيا أَكَلها الطوفان فلا شيء غير الماء هناك، اندثر القياصرة وإلى الأبد، وأستراليا لحقَت بها على عَجَل، ابتلعها المحيط كأنها لم تكُن، لكنَّ المجلس ما زال هنا، يتحكَّم فيما بقي من أرضه، ويتحكَّم كذلك في حسّون، أنا الحبيسُ الذي شَهِدَ ليكتب، حتى لو لم يَسمع شهادَته إنسان.

بعدَ عقودٍ توقفَ نبعُ النار، ولزمت البحار السكينة، وهدأَت ثورةُ الأرض، فلم تَعُد تلهث في دورتها، التقَطَ الناس أنفاسَهم، لكنَّ المحنة لم تمر دون ثمن، أهلَكَت نصفَ سكان الغرب، بل نصفَ سكان الأرض، تاهت كبسولاتهم في الفضاء، فلا طعام، وطُمِسَت معاملهم، ودُفِنَت في جوفِ الأرض قوَّتُهم، ومعها كبرياؤهم الزائفة، وفي الخاتمة سقَطَ المجلسُ. لو أنَّ الحرب قامت بين المجلس وجيوش الصين، لما كان مصير علمائه بمثل هذه القسوة التي رأيتها، رغم كراهيتي للمجلس وكل مَن فيه، فإنني ما كنت أتمنى أنْ أرى مثل هذه النهاية.

بعدما تقطعت كل الوشائج التي تربط المجلس بعالمه، لم يجد العلماء ملاذًا إلا ما بقيَ من معاملهم، حبسوا أنفسهم فيها، يبحثون عن مخرج لأمتهم، أو ما بقيَ منها، يفتشون عن طريقة لإيجاد طعام مُصنَّع، يحفظ الناس من الموت جوعًا، يُخلِّقون الأمصال لمواجهة الجائحات التي باتت تهلك الآلاف كل ساعة، بعدما انقلبت حال الأرض والسماء، كنت أشاهدهم وأنا أتحرك في مركز المجلس بين أدوار البناية وأروقة المعامل؛ إذ لم يَعُد أحد يكترث لشأني، أتجول في كل مكان حرًا بغير رقيب، تغير العالم ألف مرة، وبناية مركز المجلس منذ دخلتها، لم يتغير فيها شيء، كم كانت تشبهني هذه البناية! مات بلاتون وعشرات من الرؤساء بعده، ومرت قرون منذ دخولي هذا البناية الجبارة، ولم تتغير قواعدها، لا شيء يعنيهم إلا مستقبلًا يريدونه خيرًا من حاضرهم، شرط أنْ تكون السيادة للعلم وحده ولمقاييسه، مثلما أخبرني بلاتون منذ زمن بعيد، لكن الوقت لم يمنحهم الفرصة لا لمستقبلهم ولا حاضرهم. دفعت الكنيسة خراف الله الطيّعة، لتنطح الصنم، صنم العلم، أحرقوا جميع مراكز الأبحاث في كل مكان، وما من عالِم إلا وقطعوا يديه ورجليه، ثُم سحلوه في الطرقات حتى يتفتت اللحم وتتشظى العظام، ثُم حاصروا بنايتنا شهورًا، فما استطاعوا أنْ يقتحموها، البناية الجبارة يمكن أنْ تصمد لقرون لا شهور فقط، لديهم هنا كل شيء، ويستطيعون تخليق أي شيء، الطعام، والماء، والهواء، ليس في الخارج شيء يفتقدونه، ومَن في الخارج لا يستطيعون اقتحام البناية مهما حاولوا. ظننت أنَّ الأمر سيستمر هكذا إلى الأبد، لكن قادة المجلس قد اجتمعوا واتخذوا قرارهم، انتظرت من اجتماعهم كل شيء، إلا الشيء الذي أجمعوا عليه، قرروا أنْ يفتحوا البوابات السرّية للبناية، وأنْ يخرجوا لملاقاة المصير. جاءت شابة ربما لم تجاوز العشرين من عمرها إلى غرفتي، وبغير مقدمات طلبت مني أنْ أتبعها لمقابلة رئيس المجلس، فتبعتها. أخذتني لطابق أعرفه جيدًا، ذهبت إليه مرات كثيرة من قبل، إنه الطابق الذي كانت فيه لقاءاتي العديدة مع بلاتون، واليوم رئيس جديد لآخر أيام المجلس هو مَن ينتظرني فيه، لم أكُن قد قابلته من قبل، ولا حتى أعرف ما اسمه، فقد اعتدت كل شيء هنا، فلم يَعُد يعنيني شيء، رؤساء يأتون، يحكمون العالم، ويكررون معي كل ما فعله السابقون، ثُم يموتون ليأتي غيرهم، ولا جديد. لكنني وجدتُ في الرئيس الأخير شيئًا يختلف عن كل مَن سبقوه، أدركت هذا منذ أول لحظة وقعت عيناي عليه، كان أصغر رئيس عرفه المجلس، شابٌ في الثالثة والثلاثين من عمره، لم يكُن له صلف بلاتون، ولا غرور من جاؤوا بعده، ملامحه هادئة، يبعث الطمأنينة في نفس مَن يجلس أمامه، لكنك تدرك من أول نظرة إلى وجهه، أنَّ داخله غير مُطمئن. عندما دخلت إلى غرفته قام عن كرسيه

واستقبلني ببسمةٍ صادقة، ثُم عانقني، فأجفلت وتراجعت أمام عناقه، فابتعد قليلًا وقال:

- أهلًا يا حسّون، أعتذر إنْ كنت عانقتك في أول مرة تراني فيها، لكنني أعتبرك صديقًا منذ ترأستُ المجلس، حتى إني كنتُ أهتم لرؤيتك كل يوم.

- لا تعتذر، لم تزعجني المُعانقة، إنما ذهلت لأنَّ أحدًا لم يعانقني منذ قرون، نسيتُ هذه الأشياء. وإنْ كنتَ تراقبني أنت كل يوم عبر شاشاتك، فإنكم لا تضعون مثل هذه الشاشات في غرفتي لأعرفكم، فأرجو أنْ تعذرني أنت.

- أسأنا إليك كثيرًا يا حسّون، يجب عليَّ أنْ أعتذر إليك مرة أخرى، ليس عن العناق، وإنما عما فعله المجلس معك على امتداد ثمانية قرون. لكن لا بأس، قد انتهى كل شيء الآن، وستصبح حرًا.

- تعدني بالحرية، وأنتم لا تملكونها لأنفسكم! لو أخرج أحدكم إصبعه خارج هذه البناية، فلن تعود إليه.

- غدًا سنخرج جميعنا، وليس إصبعنا فقط. ولهذا استدعيتك.

- سيحرقونكم أحياء إنْ خرجتم، لم يَعُد لكم سلطان خارج هذه الجدران.

- نعرف جيدًا ما ينتظرنا في الخارج، هذا قرار المجلس بالإجماع، وقد وافق عليه كل فرد داخل هذه البناية. نحن مثلك، وقد سئمنا البقاء هنا، ربما ترى أنَّ احتجازك كان طويلًا جدًّا، لكن هذا وفقًا لمقياس عمرك أنت، ولو أنك نظرت للأمر بمقياس أعمارنا نحن، فستجد أنَّ حبسنا كان أطول. كل من دخل هذه البناية لم يخرج منها، بعضنا دخلها وعمره عشرون سنة، فقضى هنا خمسين سنة، ثُم مات ودُفن داخل البناية، قد نختلف في المدة التي نقضيها هنا، البعض يطول بقاؤه أو يقصر، لكننا نتساوى في أنه لا أحد يدخل ثُم يخرج، وبهذا المقياس فقد كان سجننا أطول منك أمدًا.

- ما زلتم تتحدثون عن المقاييس، وما زلتم كما أنتم، لم يتغير شيء. في زمنٍ بعيد حدثني بمثل هذه الكلمات رئيس سابق للمجلس، ومثلكَ كان يدافع عن المقياس، كأنما يدافع عن حقه في الحياة.

- بلاتون.. رأيت لقاءاتك معه، وسمعت حواراتكما لمراتٍ لا أستطيع أنْ أحصيها، كل لقاء دار بينكما تم تسجيله وشاهده رؤساء المجلس أجيالًا بعد أجيال، وقرنًا وراء قرن، كلهم كان يحاول فك أحجيتك، عن طريق فهم منطقك، بعدما عجزنا عن فك «شفرة» جسدك، ربما كنت الوحيد الذي يعيد سماع كلامك مع بلاتون لأتعرف إليك، ولذلك قلت لك إني أعتبرك صديقي.

- إذن هي النهاية، وسنخرج للموت لتنتهي تلك الملهاة المقيتة أخيرًا!

- لا، لن تخرج معنا، نحن فقط مَن سيدفع الثمن.

- ولماذا تدفعونه ولا أحد يطالبكم به، أو على الأقل لا أحد يضطركم إليه، أنتم آمنون هنا.

- أخبرتك أنك لست الحبيس وحدك، قضينا أعمارنا هنا لغاية محددة، ولم يَعُد لها الآن من وجود، فلم يعد لوجودنا هنا من معنى. تخيَّل صيادًا يطارد ظبيةً كل يوم من أول النهار لآخره، وظل هكذا سنوات وسنوات دون أنْ يظفر بها، ثُم اكتشف أنَّ الظبية لا وجود لها، وأنها لم تكُن سوى ظلال خادعة. برأيك ماذا سيفعل بعد اكتشافه الأليم؟

- إما أنْ يعترف بالحقيقة ويلقي بحربته ويقر أنه صياد أحمق، وإما يراوغ نفسه حتى لا تسحقه الحقيقة ويرفض ما تم إثباته، ويواصل الهرولة خلف الظبية التي لا وجود لها.

- نعم، تلك هي الإجابة المثالية. وقد اتخذنا قرارنا، سنُلقي بالحربة.

- لكن هذا لا يبرر انتحاركم.

- لو لم نخرج، فإنَّ هذا يجعلنا في الصنف الثاني، سنخدع أنفسنا ونواصل المطاردة، وساعتها سيضيع شرفنا العلمي، عندما يخسر الأبطال المعركة، فإنهم يحرصون على الموت بطريقة مدهشة، ويجدون العزاء في ذلك ولو في خيالهم فقط، على الأقل لن نكون كرجال الدين، الذين يطاردون الظلال ويضعون العصابة على أعينهم إنْ بدت لهم الحقيقة جلية، إذا أصبحنا مثلهم فهذا يعني انتصارهم علينا، وسحق تاريخنا وكل تضحيات العلماء من قبل، الظبية غير موجودة، فلا معنى لمزيد من الهرولة، سنخرج ونضع رقابنا تحت نصلهم، هكذا وهكذا فقط، سنحفظ شرف العلماء، ونخسر المعركة كما يخسرها الأبطال.

- يبدو أنَّ المجلس قد تغير كثيرًا بعد بلاتون، أنت لا تتحدث كرئيس للمجلس، ولا حتى كأحد أفراده، تتكلم كأنك شاعر يوناني قديم، يلقي خُطبة في الجموع ليقودهم لمعركة خاسرة.

- سأعتبرُ هذا إطراءً، فهذا وقتٌ مناسب حقًّا «للتراجيديا»، ألم أقُل لك عندما تخسر المعركة في الحقيقة، فعليك أنْ تكسبها بالخيال، كل البطولات ضربٌ من خيال المهزومين، فليأخذ العلم حصته من الهزيمة، والخيال.

- إذن ستخرجون غدًا كأبطال أسطوريين، يسيرون بثقة إلى المحرقة!

- أعدك أننا سنخرج كأبطال، أما الثقة فلا أَعِد بها، للخوف رأيه الخاص دومًا، عندما تغادر دائرتك الخاصة ستجد في الخارج كل شيء، إلا الرحمة. أرجو فقط ألا يروا حقيقة جزعنا.

- وأنا، ماذا سأفعل؟

- لا أدري ما الذي ينتظرك، لكن المسحوق الذي أخذته من جولياني قديمًا، سيفيدك، ولدينا منه المزيد، خذ منه بمقدار ما تستطيع، وتنكَّر في ملامح شيخٍ مُسن، كل العالم يعرف وجهك، وسيمنحك المسحوق فرصة أكيدة للتخفي عن الجميع. سأكلف من يأخذك لمخرج سرّي، بعدما تجتازه ستكون بعيدًا جدًّا عن البناية، ولن يتهددك الخطر.

- ليس فيما تريد فعله بطولةً، انجُ بحياتك، واخرج معي. ما دام هناك مخرج، فلماذا لا تهربون منه جميعًا؟

- لو أردنا النجاة، فهي هنا، ولن يستطيع أحدٌ أنْ يدخل علينا. مشاعرك الطيبة تجعلك سريع النسيان، قد ألقينا الحربة، كنا هنا لأجل الظبية، وقد أدركنا أنه لا وجود لها، فلماذا سنبقى؟!

- لا بأس، هي حياتكم وقراركم، افعلوا ما شئتم. لكن هل يمكن أنْ تردوا إليَّ صندوقي؟

- بالطبع سنرده إليك، وبالمناسبة قد رمّم علماؤنا كتابيك وسيمتد عمرهما طويلًا، وقد تركت لك أوراقًا وأقلامًا في الصندوق، لن يصيبها الزمن بضرر أبدًا، اكتب حكايتنا يا حسّون، فأنت الشاهد الوحيد على ما حدث في العالم على امتداد القرون، ربما يعود العالم يومًا، ويصبح أكثر رحمة، فأخبرهم عن خطايانا لعلهم لا يصبحون مثلنا، ولا يطاردون الظباء التي لا وجود لها.

تبسَّمت لمطلبه الغريب، وما حسبت أني سأنفذ وصيته الوحيدة، وها أنا اليوم أكتب وأفعل ما أوصاني به. صافحته قبل أنْ أغادر وعانقني مرة أخرى، فعانقته ولم أجفل، كدتُ أنْ أبكي حزنًا على المصير الذي ينتظره، ولم أستطع أنْ أنظر في وجهه طويلًا، فأعطيته ظهري، وتوجهت نحو الباب، وقبل أنْ أبلغه، ناداني مرة أخرى، وقال وهو يرفع يديه مُستسلمًا:

- هل تعرف يا حسّون، من بين كل لقاءاتك مع بلاتون، هناك جملة واحدة قُلتهَا أنت، وظلت تتردد في عقلي: «أنا هكذا، لأنها إرادة الله. لا أسباب، لا علل، ولا نتائج ستبلغونها». وبعد ثمانية قرون من وجودك تحت أيادينا، لم ندرك

الأسباب ولا العلل ولم نصل إلى أي نتيجة، قد ثبت أنك على صواب، لا وجود للظبية. هل تدري.. إنني أفكر الآن.. أنه.. ربما حقًّا كان هناك إله!

- نعم، كان هناك على الدوام.

- لكن هناك جملة أخرى قالها لك بلاتون، ولا يمكن إنكار حقيقتها هي الأخرى: «الدين والعلم لا يجتمعان». فإذا اتفقتُ معك في وجود إله، فهل ستتفق معي في رد بلاتون عليك؟

لم أعطه الجواب، وأكملتُ مسيري نحو الباب، لكنني قبل أنْ أخرج استدرتُ وقلتُ له:

- رغم أنه لقائي الأول معك، وأظن أنه الأخير، فإنك ومن بين كل مَن رأيتُ، أنبل إنسان قابلته منذ وطأت قدماي بلادكم، وأكثرهم صدقًا. فهل يمكن أنْ أعرف اسمك قبل أنْ أرحل عن هنا؟

- سَمِّني سُقراط.

- سواء أكان هذا هو اسمك حقًّا، أو لا، فإنك لا يمكن أنْ تكون إلا سقراط. وستشرب كأسه كاملةً، مثلما شربها سقراط على يدِ جموعٍ لا تختلف كثيرًا عن الذين ينتظرونكم في الخارج.

قضيت ليلةً ثقيلة في غرفتي، أحاول ألا أفكر في سقراط والمصير الذي ينتظره غدًا، المصير الذي أعرفه كما يعرفه. حاولتُ النوم ففشلت كل محاولاتي، أتقلب على فراشي وأبحث عن شيء يلهيني عن أفكاري المفزعة، غدًا أخرج من البناية إلى المجهول، أبعدما صرت جزءًا منها، كإحدى حجارتها، يقذفون بي إلى الخارج؟ قد نسيت شكل السماء، ونسيت كيف يمكن أنْ يتحرك إنسان تحتها كيف شاء، حتى إني أستنكر مثل هذه الحرية المُرعبة، ركنت إلى هذه الجدران الصماء عبر السنوات الطوال، وتماهيت مع الأروقة الباردة، والطوابق المتشابهة، حتى صرت بعضًا منها، وصارت هي كل عالمي، لماذا الآن ينزعون الدودة من طينها وهي لا تعرف سواه؟ مواجهة العالم في الخارج تضرب روحي وتزلزلها، أريد البقاء هنا أو الموت، لم أعد أريد هذه الحرية من جديد. ذهبت بخيالي بعيدًا، إلى غرفة القليس، استحضرت وجه صفية، أو ربما حضر من تلقاء نفسه، ليعزيني في ليلتي العصيبة، كان وجهها جليًّا، عيونها المفعمة بالكبرياء وجبينها الواسع، وشعرها الأسود الفاحم، ونظرتها الحاسمة، تلك النظرة التي كنتُ كلما رأيتها أدركت أني آمِن، وأنَّ أحدًا لن يستطيع إيذائي، فأمي هنا وهي قادرة على حمايتي من كل شيء وكل أحد. صنع وجهها سياجًا رحيمًا حول عقلي؛ فتوقف سيلُ الفِكَر الرهيب، وضرب طوقًا حول قلبي فانحسرت عنه المخاوف، أتى وجهها فجاء النوم رحيمًا. لم يوقظني في الصباح إلا يد الفتاة التي اصطحبتني بالأمس لأقابل سقراط، هزتني بلطف، وعندما فتحت عيوني أخبرتني عن سبب وجودها بكلمة واحدة، قالت: «تَجهّز». جاءتني بصندوق أمي، فتحته وتأكدت من وجود المصحف والتوراة، ووجدتهم قد وضعوا ثلاثة من علب المسحوق، كدت أنْ أخرج معها على هذه الحال، لولا أنها نبهتني أني لم أضع المسحوق على وجهي، فأخذت القليل منه ودلَّكت به وجهي وعنقي ويديّ، وانتظرنا دقائق ليعمل المسحوق عمله، ثُم راجعت ملامحي أمام المرآة، فعلمت أني سأكون بخير. ثُم أخذت الملابس التي جلبتها الفتاة إليَّ وهي تقول: «هذه الملابس ستناسبك في الخارج أكثر». سروال وقميص قديمان، لكنهما بحالة لا بأس بها، ارتديتهما سريعًا وانتظرت أمرها، هزَّت رأسها رضًا عن الرجل الهَرِم الذي أصبحتُ عليه، ثُم خرجَت من الغرفة وتبعتها إلى المصعد. في كل مرة دخلت هذا المصعد كان يحملني للأدوار العليا، هذه المرة أخذني للأسفل، عندما نزلنا إلى الطابق رقم صفر، ظننت أنه سيتوقف، لكنه استمر في الهبوط لثلاثين طابقًا تحت الأرض، خرجنا من المصعد إلى ردهة متسعة، كانت مفترقًا لعدة ممرات، سلكنا ممرًا طويلًا كأنه بلا نهاية، حتى شعرت بالتعب، عند نهايته فتحت الفتاة بابًا يفضي إلى عدد من الدرجات، نزلنا إلى ما يشبه القبو، كان المكان فارغًا إلا من بعض

الصناديق المغلقة وأرفف خاوية، أخرجت الفتاة شيئًا صغيرًا من جيبها وضغطت عليه، ثُم تراجعت عن مكانها، وطلبت مني أنْ أتراجع بمقدار عشر خُطوات، ففعلت ما أمرتني به. وقفت بجوارها وانتظرنا لثلاث دقائق، وقبل أنْ تنقضي الدقيقة الثالثة فُتحت بوابة في أرضية القبو، وعندئذ قالت الفتاة: «هيا». سألتها: «هل ستأتين معي؟» فهزت رأسها نفيًا وقالت:

- ستأخذك هذه البوابة إلى نفق طويل، سِر فيه سريعًا وستبلغ نهايته بعد عشرين دقيقة، ستجد حائطًا في نهايته، وعن يمين الحائط ستجد زرًا أصفر، اضغط عليه؛ فأعرفُ أنك قد وصلت، انتظر بعدها لدقيقتين، وسينفتح في الحائط بابٌ صغيرٌ، اخرج منه.

- هل هذا كل شيء؟

- هذا كل شيء.

نزلت ومشيت سريعًا كما أوصتني الفتاة. السراديبُ بانتظاري دومًا، ولا تتغير حياتي إلا من أسفل، أزحف تحت العالم لأنجو منه، أتسلل، آرِزُ إلى الجحور كما تأرزُ حَيّةٌ، مَن لا يرغب في صيدها، يرغب في سحق رأسها، عرفتُ سردابًا مثل هذا في الزمن القديم، عندما دفعَني إليه الحاخام إلياس الطيب، لأهرب من يهودٍ يرونني مسيحهم المُخلِّص، وسرداب إلياس أخذني للحاج سليم الأدهم، ليدفع بي سليم إلى سردابٍ آخر، ونفقٍ جديد لأنجو من فلسطين كلها، واليوم يدفع بي سقراط إلى سرداب العلماء. ثمانية قرون عبثوا فيها بجسدي، لم يتركوا خليةً واحدةً إلا وفتشوا فيها، وعندما فشلوا، ألقوا بي إلى الظلام، مثل ثعبان ابتلعَ حشرةً، ثُم قذف قشورها من فمه، بعدما هضم لحمها وشرب دمها. لا أعرف ما ينتظرني خلف هذا الحائط، وأي عالم سألقى خارجه، بعد حبسٍ امتد قرونًا بين جدران المعامل، ولا أدري أَخَيْرًا لي أنْ أخرج لعالم أكون فيه حُرًا، أم أنَّ سقراط على حق ولن أجد الرحمة في الخارج؟ سنرى. ضغطتُ الزر الأصفر كما أمرتني الفتاة، وبعد دقيقتين، كنت أدوسُ أرضًا وأرى فوق رأسي سماء.

أكان لِزامًا أنْ يسقط القمر، وتزول الأمم، ويتحطم العالم؛ كي يسير حسّون على قدميه حُرًا بغير قيد بعد قرون من الأَسر المتحضر؟! حرية أليمة، أمشي بها إلى مصيرٍ أجهله بين قُطعان من المتوحشين. الخراب في كل مكان، كل ما رأيته من آلام لا يساوي ما وقعت عليه عيناي عندما خرجت من مركز المجلس، تحطَّم العالم، وكان حطام الناس أكبر، بشر متصدعون، لو دققتَ النظر لرأيتَ الثقوب في وجوههم، في أيديهم، في صدورهم، وفي أعينهم. ثقوبٌ يملؤها الغبار والعتمة ولا ينفذ منها الضوء، أناس معتمون، هكذا رأيتهم. كالموتى السائرين وإنْ كانت خُطواتهم متزنة، وعيونهم حية، ولا يأكلون البشر، لكنهم موتى، ويسوقون الفناء لكل من ليس مثلهم، هكذا فعلوا بكل من خرج من بناية المركز. قضيت اليوم هائمًا على وجهي حتى دخل عليَّ الليل، وأنا لا أعرف إلى أين أذهب، أتحرك بين جموع الناس، أسمع أحاديثهم وأنصت لهمساتهم، يتكلمون ببطء وينطقون جملًا قصيرة، كأنهم جميعًا حفظوها في مكان واحد، ثُم خرجوا ليُلقيها بعضُهم على بعض، ارتدُّوا ألفيّ سنة إلى الوراء، يتوعدون باسم الرب، ويقسمون على الولاء لأسرار الكنيسة، ويضربون الكؤوس اتفاقًا على حرق السحرة الذين أسقطوا القمر، يضحكون كالمجانين، وكالمجانين يتخبطون، يأكلون كل ما يقع تحت أيديهم كأنهم الجراد، فإذا شبعوا شربوا الخمر وتسافدوا على جنبات الطريق، أو بين ركام الخرائب البائدة، عند أول شعاع للشمس مشيت في مدينة كانت يومًا تضج بالحياة، وإنْ كانت حياة مصطنعة، صنع علماء المجلس جسدها وزودوه بكل سبل العيش، لكنه ظل جسدًا لا روح فيه، مدينتهم صارت اليوم جبّانةً خالية من كل حياة، لا روح فيها ولا جسد، لا شيء سوى خراف تتناكح، وترعى في

أوحال الحضارة المُحطمة، منتظرةً إشارة الراعي لتسفك دم السحرة أعداء السماء، أخذني السير إلى مركز المجلس دون وعي بالطريق، كأنني أُساق إليه لأشهد يومه الأخير، عندما وصلت إلى البناية وجدت الرعاة يقفون أمامها، فأدركت أنَّ سقراط ورفاقه لم يخرجوا إليهم بعد مثلما أخبرني، عشرات من الرهبان والقساوسة ينتظرون موعد الذبح، يدورون حول البناية بيأس، لا بدّ أنهم حاولوا ألف مرة أنْ يجدوا منفذًا إليها، فأعيتهم الحيل ولم تزدهم أحقادهم إلا غيظًا، وإصرارًا على أنْ يقتحموها. كدت أنْ أذهب إليهم وأخبرهم إنَّ الصيد سيخرج من تلقاء نفسه؛ إذ أصبح الصيادُ صيدًا، بعدما ألقى الحربة وأدرك أنَّ الظبية لم يكُن لها من وجود. عندما سكنت الشمس وسط السماء استيقظت الخراف من مراقدها، وتوافدت من كل مكان حتى امتلأت بهم الساحة الكبيرة التي تحيط بالبناية، وقفوا في صفوف متداخلة بغير نظام، إلا أنهم كانوا حريصين كل الحرص ألا يقتربوا من صفوف الرهبان والقساوسة، الذين يتصدرون الجموع أمام البناية، تهمهم الخراف حينًا وتتصايح حينًا، تقوم نزاعات وتشتبك الأيادي وتسيل الدماء، فإذا التفت راهبٌ للخلف عمَّ الصمت وتوقفت النزاعات قبل أنْ يعيد الراهب نظره للأمام. طال مكثهم ولم أرَ فيهم بادرة يأس أو ضجر، مرت بضع ساعات وأوشك نور الشمس على النفاد، ولم يخرج أحدٌ من البناية، كدت أنْ أفرح وغمرني الأمل بأنَّ المجلس قد تراجع عن قراره، سرت الفكرة السعيدة من عقلي إلى قلبي، وقبل أنْ تترجمها شفتي بسمةً فُتحت الأبواب. خرج كل من كان في المركز، يقودهم سقراط وحوله رجال المجلس، يتبعهم العلماء والباحثون وكل عامل في البناية، سقطَ قلبي في الظلام، وامتلأت روحي بالشوك حين رأيتهم، ارتفع الصياح من حولي حتى صار صراخًا، رفع كبير الرهبان يده فابتدره مئات من الرجال يلبُّون إشارة يده، وما هي إلا دقائق حتى أُحيط بكل من خرج من البناية، قيدوهم بالسلاسل والحبال، وكأنهم كانوا على يقين من خروج العلماء إليهم، أعدوا كل شيء لهذه اللحظة، اقتادوهم في صف طويل إلى الساحة الكبرى، وعلى أطلال النافورة التي كانت تحتل الساحة، وضعوا حِزمًا من الحطب، وثبتوا في الأرض أوتادًا، حسبتهم سيربطون العلماء إليها، لكنهم وضعوهم فوقها، خوزقوهم واحدًا واحدًا، وقبل أنْ يضرموا النار في الحطب، تقدمتُ أزاحم الخراف، أدفعهم ويدفعونني، حتى بلغت الصف الأول، صرتُ على بُعدِ بضعة أذرع من المرفوعين فوق الأوتاد، تقابلت عيناي بعينَي سقراط، تبسَّم لي وزم شفتيه وهو يهز رأسه، كأنه يقول لي: ألم أخبرك إنَّ الدين والعلم لا يجتمعان. رفع كبير الرهبان يده إيذانًا بالأمر المُقدس، أُضرمت نيران الرب في الحطب، فاحترق العلم إلى الأبد.

غابت الشمس والأجساد ما زالت تحترق فوق الأوتاد حتى انتصف الليل، لم تنتظر الجموع إلى الصباح ليجهزوا على مركز المجلس الذي خلا من أصحابه، أعطى الرهبان الإذن للخراف، فتناطحوا يهرولون نحو البناية الجبارة، فأحرقوها عن آخرها.

انتهت الحضارة وزالَ عصر العلماء، بعدما أعلن رجالُ الرب أنَّ القمرَ قد أُسقِطَ بجُرمِ المجلسِ الملحد. لم تنتهِ المذبحة عند حدود مركز المجلس، جيءَ بمَن بقي من العلماء في كل مكان، وأُحرقوا في مدن الغرب جميعها، قطعان الخراف تكتسح كل شيء، وما مِن عصا تجمعُهم، سوى عصا الكنيسة، فكانت المجزرة لكل مَن يُخالفها. أشاهد كل هذا وأنا أتيه في المدن شريدًا بلا مأوى، الحطامُ في كل مكان، والنارُ تشتعل في جسد العلم حيثما وجَّهتُ وجهي، الغرب ينتهي بلا ضجيج، لا شيءَ سوى الأنين المكتوم.

وها أنا أجلس على رأس العالم فوق جبل الرب، أمسك قلمي وأوراقي أمام كهفي الآمن، أكتب عن سنوات المحنة الطوال في بلاد الغرباء. رغم كل الملاحم التي شاهدتُها والمهالك التي خضتها لم أحسّ الأَسر، مثلما أحسسته في بلادهم الباردة، حتى إنَّ القلم يسير فوق الصفحات كأنه مُثقل بالسلاسل، يجرُّ ذكريات القهر والزمن التعيس، لكن لا بأس، رحل الغرب وطُويَت صفحته، وأفل، كما أفل العالم كله، وبقيَ حسّون وحيدًا يجالس كلبه المحتضر، وها هو نسيم الجبل

يلاطفني، ليخفف وطأة الذكرى، ويزيد من رغبتي في النعاس بعدما أكلت فتثاقلت أجفاني. قرصني الجوع منذ ساعةٍ كأنه تذكَّرني فجأةً، فتركت القلم وقلتُ أستريح قليلًا من الكتابة، وأعاود البحث بين الصخور، لعل حيّةً تضلّ طريقها إلى الجحر، فأحملها لبطني وبطن غلام. نزلتُ إلى منحدرات الجبل ومعي خنجري، بحثتُ ساعةً فلم أجد شيئًا بين الحجارة، حتى أدركني التعب فجلستُ مسندًا ظهري لصخرة، مددتُ رجلي أحكُّ بكعبي ظهرَ الجبل، فجاءَ الغوث، رأيتُ سحليّةً جبلية كبيرة، ربما قد أخرجَها الجوع هي الأخرى، أرادتني طعامًا لها، فاتخذتُها طعامًا لي ولغلام. تركتها تقترب مني وأنا ساكنٌ كالصخر من حولي، حتى فتحَت فمها وعضَّت على إصبعي، فغرزتُ الخنجر في ظهرها وصعدتُ سريعًا إلى الكهف مبتهجًا، قطَّعتُ أرجلها من أعلاها؛ إذ عافت نفسي بطنَها ورأسَها، فتركتُ هذا لغلام، واكتفيتُ بالأرجل، رضيَ غلام بطعامه ورضيَ بطني بنصيبه، وما أنْ خفّ ضجيج الجوع، حتى ارتفع صوت جسدي يطالب بحقه في الراحة، وقد تعبتُ من الكتابة، لذا سأنام الآن، وإنْ شاء الله أواصل غدًا ما بدأت.

اليوم السادس

خراب الأرض لم يتوقف عند تحطم القمر، وانفجار البراكين وغمر البحار للبلاد؛ إذ انتشرت الأوبئة والطواعين، فحصدت من الناس مثلما حصدت كل الكوارث مجتمعة، وما عاد من طبٍّ ولا أطباء، فلا جامعات ولا معامل، ولا مصانع، طمست معالم الحضارة طمسًا، كل ما صنَعَته يدُ العلم، حطَّمَته يدُ الله بضَربةٍ واحدة. عاد الناسُ إلى البغال والحمير يركبونها، ويدفعون الشر عن أنفُسهم بالسيوفِ والنِّبال، يُذعنون لكل مُتحدِّثٍ باسم الرب، يستجيرون به من الرزايا والأمراض، ويستعصمون به من سطوة الشرير الذي يريد إسقاطهم في هاوية الجحيم. محاكمُ التفتيش نُصِبَت من جديد، فكانت المحرقة لمَن يَدينون بغيرِ المسيحية، ولم يَسلم من الهلاك من خالَفهم المذهب، فأحرَقوا كل مَن يدين بغيرِ الكاثوليكية القويمة.

ثلاثة قرون بعد سقوط المجلس وأنا أنتقلُ من مدينة خَرِبة إلى أخرى مُحطَّمة، أُخفي وجهي بالمسحوق القديم، رغم أنه لم يَعُد في الأرض مَن يعرف وجهي، لكنني ما زلت أخاف، أخاف رؤية الوجه الذي كان سرّ محنتي وطول أسري، وكلما اشتد خوفي حرصت على تزوير ملامحي أكثر، حتى لو لم يَعُد يعرفني أحدٌ. رحلت إلى أقصى شمال إيطاليا، حتى بلغت ما كان يسمى قديمًا مدينة (فنتيميليا)، ومنها عبرت قمة (مونت دولنت) مُتجهًا إلى فرنسا، لم تَعُد هناك حدودٌ تفصل أرضًا عن أرض، ولا دولة عن أخرى، لا أحد يسأل من أين جئت أو إلى أين تذهب، الخراب للجميع حيثما نزلت، ولا فرق بين بلد وآخر. أمشي في الناسِ عجوزًا لا يتعرض له أحدٌ، أشاهد خرابَ أمم الغرب، أسير في الليل وأكمُن في النهار، وإذا ضربني الجوع تسلَّلت لأحد البساتين، فآخذ منه ما يكفيني ليومٍ أو يومين، لأتقوى على السير الطويل، السير الذي لا غاية منه، إلا لأعوض قرونًا من السجن الطويل، وإنْ قابلني إنسانٌ أو سألني أحدُهم عن شيء، أجَبتُه بلسانه فلا يتشكَّك في أمري. لا فرق بين فرنسا وإيطاليا، لا شيء إلا اختلاف الألسنة، رجال الكنيسة يسيطرون هنا على كل شيء، مثلما يسيطرون هناك، والموت يحصد الناس هنا كل يوم، مثلما يحصدهم هناك، بقيت تائهًا بين أطلال المدن، لا أستقر بمكان إلا لبضعة أشهر، ثُم أنتقل إلى آخر، حتى نزلتُ بقرية نائية، تقع قريبًا من جبل (البرانس)، بدا لي أنَّ أهلها طيبون، كنت قد عزمت على العودة إلى بلاد العرب إذا ما سنحت الفرصة، ولم يكُن عزمي حنينًا إليها، إنما أردت أنْ أعرف ماذا صنع الله بها، شيء من التشفِّي كنت أحس به على الدوام وأنا أشاهد خراب الغرب، ولي مظلمة في بلادي، فلأشاهد خراب كل مَن ظلموني، لا أعرف كيف يمكنني أنْ أقطع الأرض بين الغرب والشرق، بعدما انقطعت السبل واندثرت كل وسيلة للسفر، لكنني كنت أعرف أني سأرحل عن هنا، وقتما أستطيع الرحيل. قررتُ أنْ أسكن القرية القريبة من الجبل حتى أُدبر أمري، مدَّت لي صفية يدَ العون، فما زالت صنعَتُها بيدي، أخذتُ أجمع الأعواد من شجرِ الطريق وأسلخ قشورَها، وأصنع السلال لأقايضها مع أهل القرية بالطعام.

بنيتُ كوخًا واتخذتُه سكنًا، وجعلته في أبعد مكان عن أكواخ أهل القرية، قريبًا من أطلال منزل قديم، كان المنزل الوحيد في القرية الذي بقي من الزمن البائد، بعد قرون من انهيار المدن والبلدان، لا أعرفُ كيف استطاع الصمود أمام النازلات، فإنه وإنْ تهدَّمَت بعضُ أركانه، وسقط جزء من سقفه إلا أنه ما زال قائمًا. رأيتُ أطلالًا مثل بقايا هذا المنزل في كل مدينة مررت بها، منازل يخاف الناسُ لعنَتها، يمرُّون أمامها سريعًا خشية أنْ تختطفهم الشياطين، ولا يقربونها أبدًا، ولذا لم يكُن هناك أي أحدٍ يسكن على مقربة مني؛ إذ الجميع يخاف من البيت المُتهدِّم الذي يحتفظُ بآثار اللعنة. في بادئ الأمر شعرت بكثير من الراحة في هذه القرية، لا أغادر مسكني إلا حين أذهب إلى السوق، أقايضُ السلال بفاكهة النساء

وبعض الحبوب، ثُم أفرغ لوحدتي. عدت إلى قراءة القرآن ومراجعة التوراة سرًا، ولا أُصلّي إلا في الليل البهيم، خشيةَ أنْ يرى صلاتي أحدٌ، فيكون مصيري داخل المحرقة، أُخفي الكتابين عن العيون كمَن يخفي دليلَ جريمتِه، ثُم قلَّ هذا الخوفُ مع السنوات، فقد نسيَ الناس أمر الكتب والقراءة، وكانت القرون الثلاثة التي مرت بعد الكارثة، كفيلة بجعل كل كتاب لا قيمة له، إلا الاستدفاء بحرقِه في الليالي الباردة؛ إذ لم يَعُد في الغرب من قارئ إلا آحادٌ من رجالِ الدين، وإذا ثبتت جريمة القراءة على أحد من العوام، فمصيره الموت؛ إذ إنها جريمة لا تسقط بالتوبة.

تشابهَت أيامي في القرية، أقضي النهار في العمل، وأهنأ في الليل بوحدتي وصلاتي، ودومًا يأتي الصباحُ بغيرِ ما يؤمّله المساء، ذات صباحٍ صحوتُ على جلَبةٍ قريبة من الكوخ، كان الناسُ يصخبون ويتصايحون بصوتٍ أقلقَ رقدتي، فخرجتُ لأعرفَ سر الضجيج، وجدتهم مجتمعين حول رجُلٍ وامرأة، يضربونهما بقسوة ويصبّون عليهما اللعنات، والرجل والمرأة ذاهلان لا يفهمان شيئًا من كلام الغاضبين من حولهما، وبين الجمع الصاخب رأيتُ أحد الرُهبان يمسكُ صليبًا خشبيًّا كبيرًا، ويضربُ المرأة على رأسها، وكلما تحدَّث الرجل أو امرأته طاشت عقول الممسكين بهما، فينهالون عليهما بالضرب وهم يرددون: «أَحرِقوا الشياطينَ التي تسكُنهما». عندما سمعتُ الرجل يتوسَّل إليهم بلغة يونانية أنْ يرحَمُوا زوجتَه ويقتلوه هو فقط، أدركتُ أنَّ جمعَ الغاضبين يريدون الفتكَ بهما، لأنهم لا يعرفون اليونانية، وظنّوا أنَّ الشياطين تتلبَّسُهما، فقد أصبح كل غريب يُفزع الناس، بعدما سيطرَت عليهم صنوف المخاوف: المنازل مسكونةٌ بالشياطين، فهجروها. والبحر عرشٌ يجلس عليه عدوُّ الرب، فلا يقربه أحدٌ. ومَن يتحدَّث بلسان لا يعرفونه، فهو ولا شك مسكون بشيطان.

لم يُخبرهم الراهب إنها لغةُ أُمَّةٍ غريبة مثلهم، بل أخبرهم إنَّ الشيطان هو الذي يتحدَّث على لسانيهما بلغة اللعنة القديمة. أردتُ أنْ أُفهمهم أنَّ هذه لغة غير لغتهم، وليس في الأمر من لعنات، لكنني خشيتُ أنْ يفتكوا بي إنْ رأوني ترجمتُ عن الرجل كلامَه، ويظنون أنَّ بداخلي شيطانًا آخر، فلزمتُ الصمت، وكان قراري صوابًا؛ إذ إنَّ الراهب الذي يمسكُ بهما يعرف اليونانية، ومن وقتٍ لآخر يوهم الرعاع من حوله أنه سيحدث الشياطين بلسانهم، ثُم يسأل المرأة وزوجها بيونانية لا لبس فيها: «إلى أين فرت العاهرة؟». ويتوعَّدهما بالحرق، إلا إنْ سلَّماها إليه، وعندما رفضا الاستجابة لمطلبه، توجَّه الراهب للجمع مُتحدِّثًا بالفرنسية وهو يرفع يديه أسفًا، ليخبرهم إنَّه كلَّم الشياطين بلسانهم مرة بعد مرة ليخرجوا منهما، لكن لا أمل، ارتفعت الهمهمة وكثر الصياح في الجمع، وأخذ الرجل والمرأة يتوسَّلان الرحمة ممن حولهما، دون أنْ يفهم كلامهما أحدٌ، فرفع الراهبُ يده للسماء صائحًا: «إنَّ الشياطين يُجدّفون على الرب من جديد، ولا بدّ من الحرق». فهرع الجَمع إلى تلبية الدعوة، قيَّدوهما إلى عمودين، في مكان غير بعيد عن الكوخ الذي أسكن، وأمسك بعض الرجال بأعواد من الحديد وهشموا عظام ساقيهما، لكنهم لم يعدموهما على الفور؛ إذ أجَّلوا قرار الإحراق إلى الصباح، خشية استحضار الشياطين إنْ أحرقوهما ليلًا.

في عتمة الفجر وفي غفلة من أهل القرية، تسلَّلتُ إلى الرجل المُقيَّد بجوار زوجته، وحدَّثتُه باليونانية بصوتٍ خفيض، فتوسَّل إليَّ أنْ أشفعَ عندهم لأجل زوجته، فأخبرته إني لن أستطيع فعل هذا، وإني غريبٌ في قريتهم، ولا سلطان لي على أحد منهم، ثُم سألتُه مَن تكون «العاهرة» التي سأل عنها الراهب وساومه عليها؟ فصمتَ ولم يتكلَّم. أقسمتُ له أنْ أحفظ سره، وأنْ أساعدها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا. فأخبرني إنها ابنته، وإنه أمرَها بالفرار عندما أدركَ أنه هالك مع زوجته، لأنَّ الراهب ساومَهُما عليها مقابل أنْ يتركهما يرحلان بسلام، فلما رفضَا تسليمَ ابنتهما وهربوا منه، تبعهم الراهب إلى هذه القرية وألَّبَ الناس عليهما، لكنَّ الأبويْن تمكَّنا من إبعاد ابنتهما، قبل أنْ يمسكوا بهما، وأقسم لي إنه لا يعلم أين هي الآن. ثُم توسَّل إليَّ بالدم والدموع، وأقسمَ عليَّ بحقّ المسيح، أنْ أنقِذها من ذاك المصير، فوعدتُه أنْ أفَعل.

لم أستطع فكّ وثاقهما؛ إذ إنَّ كثيرًا من رجال القرية كانوا نيامًا بالقرب من المكان، كما أنهما لن يستطيعا الهرب من

القرية بأقدام مكسورة مُهشمة العظام. تركت الرجل وامرأته وأنا أحمل عهدًا أعلم أني لن أفي به، بذلته كذبًا؛ إذ ما كنت أستطيع أنْ أخيب رجاءهما، وما كنت لأخذل أملهما الأخير، لعل عهدي الكاذب يخفف عنهما وطأة المصير الذي ينتظرهما. لزمتُ الكوخ ولم أخرج في الصباح، حتى لا أشاهِد المسكينَيْن في جوف اللهب، ولم يصد الكوخ عني ما كنتُ أخشى، سمعتُ صوتَ صراخهما المُحترق، ولعنات المُجتمعين حولهما تخترق مسامعي، وضعتُ يدي على أذني كيلا يصلني صوتُ توسّلاتهما، لكنَّ الصوتَ أصبح أعلى، كأنهما يصرخان في داخلي، لا من الساحة البعيدة. بعد ساعة من حفل الشواء المقدَّس، خفتت الأصوات حتى عمَّ الصمت. خرجتُ من الكوخ ولا أدري لماذا أخذت المنجلة معي، كنتُ مترددًا بين الذهاب والرجوع، فحسمت الأمر وذهبت. وجدتُهما مثل جذعَي شجرة أتت النار عليهما، والراهبُ يقف أمامهما وهو يحرِّكُ صليبَه أمام الجسدين المتفحّمَين، والدخان ما زال يتسلَّل من بين اللحم المشويّ، كأنه بقيّةٌ من الروح لم تكُن قد غادرت، فلما اطمأنَّت إلى تمام الاحتراق، خرجَتْ خيطًا من دخان.

خَلت الساحة من الجميع، ولم يبقَ إلا الراهب وحده. قبضتُ على المنجلة بيدي، ومشيت نحو الراهب المُترنّم أمام الجسدين، ظهرُه أمامي، وعيناي على عنقه، وكفِّي تقبضُ على عنق المنجلة، لم يكُن يخالجني شيءٌ من الخوف أو التردد في حَزِّ العُنق الأثيم، اقتربتُ منه حتى لم يبقَ بيني وبينه إلا يد الموت، رفعت منجلتي لأقطع رأسه، لكنني توقفت عندما زكَمَت أنفي رائحةُ اللحم المشوي، وتذكَّرتُ وعدي للرجل بأنْ أبحثَ عن ابنته وأنقذها، ولولا ذلك العهد الذي لا أعرف لإنفاذهِ سبيلًا، لقَتلتُ الراهبَ بنفسٍ مُطمئنة.

دسست المنجلة في ثيابي، ووقفتُ بجواره وهو لا يزال مُمسكًا بالصليب يحركه أمام الجسدين، وقلتُ بصوتٍ خفيض: «هل يسمعُ اللهُ صوتَ الكذّاب؟!». لم أكُن أنظر إليه حين ألقيتُ سؤالي، كأنني أُحدِّث الجسدين المحترقين، حركَ الراهب رأسه نحوي، فواصلتُ كلامي دون أنْ ألتفت إليه: «لم تكُن الشياطين مَن تتحدَّث على لسان هذين المسكينيْن، بل كان الشيطان يتحدثُ في قلبِك أنت، كانا يتكلمان اليونانية، وأنت تعرفها، فَضَلَّلْتَ الناس، وأحرقتَهُما لتنالَ ابنتهما. ثُم تقفُ الآن خاشعًا ليسمعَ الربُّ صوتَك! عليك أنْ تدعو ألا يسمعه أبدًا، فلو سمِعَه لأجابك، وجوابُه لن يكون سوى الجحيم». ثُم تركته غارقًا في ذهوله، وعدت إلى الكوخ.

كنتُ أعلم أنَّ الراهبَ سيكيد لي بعد الذي قلته له، غير أني لم أكترث لما قد يفعله، لم أعد أخاف، ولا أعرف كيف استقر عزمي على القتل، وأنا الذي لم تُرفع يده يومًا ليرد أذى الناس له. أصبح همّي أنْ أصلَ إلى تلك الفتاة، وليفعل الراهب ما يشاء، مكثت أيامًا لا أخرج من كوخي، لا أقطعُ غصنًا، ولا أصنعُ سلَّةً، ولا أريد أنْ أرى وجوه الناس، أُصلِّي طوال الليل، دون أنْ أقرأ آية من التوراة ولا القرآن، أقفُ وأهزُّ جسدي كفرخِ حمامٍ ينوح، مثلما كان يفعل مُعلمي داوود، أو أسجد طويلًا على الأرض، وأبكي حتى ينفطر قلبي، مثلما كان يفعل شيخي التيجاني، سكن حزنهما حزني، فأظلم كل شيء من حولي، وبينما أنا في صمتي الشجي الأليم، سمعت خشخشةً خارج الكوخ، أرهفتُ سمعي، فلم أجد صوتًا، قلتُ لعله كلبٌ كان يبحث عن طعام، لكنَّ الصوت عاد من جديد، فقمتُ لأنظر ماذا هناك، سعلتُ قبل أخرج، وما إنْ فتحتُ الباب، حتى رأيتُ سوادَ إنسانٍ يجري وسطَ الظلام، مشيتُ خلفه، فرأيته يدخل البيت الذي يخاف الناس لعنَتَه، قلتُ في نفسي: «لو كان لصًّا لما طلَب بيتي الفقير، ولو كان رجلًا يتكفَّفُ الناس، فما الذي حمَلَه على الخروج في عتمة الفجر، ولديه فسحة في وضحِ النهار؟!». ثُم خفق قلبي لـما خطر لي أنها قد تكون الفتاة، دُرتُ حول البيت دورتيْن، لأتأكد أنْ لا أحد قد رأى ما رأيت، أردت أنْ أقتحم المنزل الخَرِب، فحجبني الخوف، ثُم أخذتُ أطوف حوله، وأقف أمام بابه مترددًا، ثُم أعود فأطوف من جديد، حتى شقَّ النورُ ثوبَ السماء، فخشيتُ أنْ يراني أحدٌ في غَبشِ الصباح، فرجعت إلى الكوخ.

جلستُ اليومَ بطوله أتفكَّر في ليلتي الثقيلة، مرةً أقول: لعله كان ظلًا لحيوانٍ أخرجَه جوعُ الليل. ومرةً أقول: لعل

انشغالي بأمر الرجل وابنته جعلني أتوهَّم الأمرَ كله. عندما دخلَ الليل جلستُ أمام باب الكوخ، وعيناي مصوَّبة نحو البيت القديم، أنتظرُ خروج أحد أو دخوله، طالت جلستي ولا شيء، قررتُ أنْ أقتحمَ البيت وليكن ما يكون. «أنا لا أخاف الظلام، ولن أموتَ اليوم بعد هذه القرون المديدة، لمجرّد دخولِ بيتٍ نسَجَ الناسُ حوله أساطيرَهم». هكذا حدَّثتُ نفسي، لأخدعَ قلبي المُرتعد.

أشعلتُ عودًا من حطب، لأهتدي بنوره في عتمة البيت، اجتاحتني رهبة عندما دخلت، الظلال تتراقصُ كأشباح أمام عيني، ارتعشَت يداي، وقدماي كبَّلهما الخوف، رتّلتُ آياتٍ من القرآن فسكَن قلبي، رأيتُ نجومَ السماء عبر الجزء الساقط من السقف، أمدَّتني السماءُ بنورها الخَجِل، وشيء من الشجاعة. ما زال أثاثُ البيت كما هو، كراسيّ كبيرة، وتحفٌ متناثرة، وسجادٌ يكسو الأرض، غرف كثيرة كانت تحيط بساحة البيت، ولا شيء أشد رهبة من فتح بابٍ مغلق في الظلام، كلما فتحتُ بابًا أصدَرَ صريرًا يصبُ الرعبَ في قلبي، أشعرُ أنَّ الشياطين ستمُدّ يدها لتجذبني إلى الداخل، ثُم تغلق الباب عليَّ إلى الأبد، مخاوفُ الناس وخرافاتهم تسلَّلَت إلى قلبي، ولم أستطع صدَّها. قررتُ الخروجَ سريعًا لأتخلَّص من هذا المكان المقبض، فسمعتُ أنفاسًا في الصمت، أنفاسُ الخوف لا تَخفى على مَن أَلِفَ الحذَر، أكادُ أسمع نبضَ صاحبها، أغمضتُ عينَي وتركتُ قلبي يقودني بدلًا عن الشعلة التي في يدي، رأيتُ الفتاة. كانت تجلس مُقرفِصةً خلف كرسي تُغمض عيونَها، وترتعد. فزعتُ من هيئتها عندما وقعَت عيناي عليها، ثُم تبدَّلَ الفزعُ إلى حزن، لما رأيت ذعرها. مددتُ يدي حتى لامَسَت أصابعي شعرَها، فدفَنَت رأسَها بين ساقيها، جسدها يرتعد كأنها مصروعة، أسمعُ اصطكاك أسنانها، وطقطقة كل مفصل فيها، وهي تنادي بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «أغِثني يا أبي». قلت لها: «لا تخافي يا طفلتي، أرسلني أبوكِ لأنقذكِ، لن تمتدَّ يداي إليك بأذى». لم ترفَع رأسَها، وانكمَشَت على نفسها أكثر، وهي لا تزال تُردد: «أغِثني يا أبي». تذكَّرتُ أني أحدَّثُها بالفرنسية، وأنها ولا شك كأبويها لا تعرفها، فقلتُ لها باليونانية: «أرسلني أبوكِ، وأوصاني بك، لا تخافي يا بنيتي، لن أُؤذيكِ أبدًا». رفعَت رأسَها إليَّ، عيونها مرتعبة تبحث عن الصدق في وجهي، قلتُ لها: «أنا أعرفك، وقد تحدَّثتُ إلى أبيكِ وعاهَدُته أنْ أُخرجكِ من هذه القرية، فلا تخافي». أعطيتُها يدي لتنهض، فعقدَت يديها حول صدرها تختبئ في نفسها، جلستُ أمامها وقلت: «أخبَرني أبوكِ بأمر الراهب الذي أراد أنْ يأخذك لنفسه، وأخبرني كيف طاردكم حتى أمسكَ بوالديكِ هنا. أنا لستُ منهم، ولستُ مثلهم، ولا أريد إلا أنْ أحميكِ من بطشهم، فقومي معي». قامت ومشت خلفي حتى خرجنا من باب البيت، أطفأتُ الشعلة التي في يدي وقلتُ لها: «قد يَلفت الضوء عينًا إلينا، بيتي قريبٌ من هنا، فامشي سريعًا حتى نصل إليه، وهناك ستكونين آمنة». أخذتها للكوخ وأنا لا أعرف ماذا سأصنع بعد ذلك، إذا علم الراهب بوجودها عندي فسنلحق بأبويها على عَجَل، وإنْ بقيَت عندي فلن يطول الأمر، حتى يكتشفَ أحدهم أمرها، لكنني اتخذت قراري، وما كنتُ لأخذل تلك المسكينة مهما يكُن.

في ضوء النهار المتسلِّل إلى الكوخ رأيتُ وجهَها، ملامحُها تتردَّد بين براءَة الطفولة واكتمال الأنوثة، عيونُها زرقاء وشعرها من ذهب، أنفها منحوت وشفتيها دقيقتان، وعلى جمالها الباهر إلا أنَّ البؤس كان يغطي وجهها الفاتن. أخبَرتني إنَّ اسمها «إيزابيلا»، وإنها في الثامنة عشر من عمرها، وحكَت لي قصتهم مع الراهب: جاؤوا إلى فرنسا في قافلة خرجَت من بلادها البعيدة بعدما ضرَبها القحط، فهاجم اللصوص قافلتهم وتفرق جمعهم، فأخذوا يتنقلون من قرية إلى أخرى، لا يفهمون لغة الناس ولا يفهم الناس لسانهم، حتى نزلوا بقرية الراهب، استقبلهم وأحسن إليهم، فأَنَسُوا منه رحمةً واستبشروا عندما رأوه يعرف لغَتهم، ثُم أخذَهم إلى بيته وأحسن ضيافتهم، وفي اليوم التالي من نزولهم عنده، أخذ والديها للكنيسة بحجّة أنه سيطلبُ لهم نفقةً وزادًا، ثُم تركهما في الكنيسة وعاد إلى البيت مراودًا ابنتهما عن نفسها، فأَبَت، وأغلقَت دونه أبوابَ جسدها، فاقتحمَها عنوةً، ولما عاد الأبوان وعرفا بالأمر حزموا أمتعتهم ليغادروا، فأبى الراهب ولم يسمح لهم بالرحيل، إلا إنْ تركا له ابنتهما، فلما رفض الوالدان، قال لهما أتزوَّجُها، فأَبَت البنت أنْ تتزوج بِمَن انتهكها، ثُم مكثوا في بيته

أيامًا لا يملكون حيلة، حتى تحيَّنَ أبواها فرصة للهرب في غيبة الراهب، وهربوا. فطاردَهم من قرية لقرية، حتى أمسكَ بالأبوين، وهربَت البنت واختبأَت في البيت المنهدم.

بعدما حكَت لي قصتها، خرجتُ وأحضرتُ لها ماءً، وقلتُ: «اغسلي جسدكِ لتزيلي عنه التراب». تركتُها وجلستُ أمام البيت حتى انتهت، ثُم أخذتُ دجاجة من طيوري، ذبحتُها وشويتُها وقدمتها لها، أكلَت، ثُم راحت في نوم عميق، جلست بجوارها أراقبها في صمت، حتى هدأت أنفاسها المضطربة تحت يدِ النوم وسكينَتِه. قررتُ أنْ أخرج بها من القرية في أقرب فرصة، لكنني مكثتُ أيامًا حتى لا أثير الشكوك فيتبعني الراهب كما تبعهم من قبل، وفي هذه الأيام اجتهدتُ في صنعِ السّلال، حتى أُقايضها بأكبر قدر من الزاد، لنتقوَّى به على رحلتنا التي أجهل إلى أين ستكون، صنعتُ في أسبوع واحد ما كنت أصنعُه في ثلاثة أشهر، ولم أنتظر أنْ تأتي النساء إلى بيتي للمقايضة، ولا انتظرت يوم السوق، ذهبتُ أطرقُ الأبواب وأعرض السلال للمقايضة، حتى جمعتُ الكثير من الفاكهة المُجففة والحبوب، ذبحتُ كل طيوري وشويتها وملَّحتُها، ثُم علَّقتُها على حبلٍ في الهواء، حتى لا يضرِبَها العفن، في ليلة الرحيل ذهبتُ إلى البيت الذي كانت تختبئ فيه إيزابيلا، كنتُ قد رأيتُ فيه كثيرًا من المتاع الذي ربما ينفعنا، وجدتُ عددًا من الحقائب الكبيرة، اكتفيتُ بأخذ واحدة، فلن أحمل الكثير الذي قد يثقل حركتنا، كما وجدتُ ملابسَ ثقيلة مبطَّنة بالفراء، وأغطية لم تُفسدها السنوات الطويلة، فأخذتُ ما ينفعنا منها، ثُم بحثتُ في الأدراج فوجدتُ بعض السكاكين، وحبلًا مفتولًا من مادة لم أعرِفها، لكنه كان متينًا كأنه صُنع بالأمس، فأخذته معي، وأخذت بعض السكاكين التي يسهل صقل نِصالها، جمعت كل هذا في الحقيبة، وعدتُ إلى إيزابيلا، فوضعتُ صندوق أمي مع ما جمعت، ورحلنا قبيل الفجر.

تسلَّلنا في عتمة القرية، وسرنا جنوبًا بمحاذاة الجبل، خشيت ألا تقوَى إيزابيلا على مكابدة الهرب، لكن الأسبوع الذي قضته في الكوخ ردَّ إليها عافيتها، فكُنا نسير كل الليل، وإذا فضَحَنا نورُ الصباح اختبَأنا حتى ينقضي النهار، ثُم نعاود سيرنا بعدما تتوارى الشمس. علمتني السنوات السبع عشرة التي قضيتُها بجبل الرب، ألا أهاب السير في دروب الجبال، كنت أبحث عن مسلك يأخذنا للناحية الأخرى من الجبل، لنبتعد عن القرية وعن فرنسا كلها، دامت مسيرتنا أسبوعين، حتى وجدتُ مدقًّا بين الصخور، ينبسط في مواضع وينتصب في أخرى، ترددت إيزابيلا وخافت صعود الجبل، فقلت لها: «علينا أنْ نبلغ الجهة الأخرى وإلا لحق الراهب بنا». فتلاشى خوفها لما ذكرت لها الراهب، وسبقتني إلى الجبل، نمشي في المدق إذا انبسطَ، ونستعين بالحبل إذا انتصَب، أتسلَّق الصخور حتى أصل إلى قمّتها ثُم أُدَلّي الحبل لإيزابيلا، تربطه حول وسطها وأرفعُها، حتى بلغنا رأسَ الجبل. لم نجد في الناحية الأخرى سوى أرض قاحلة، تمتد كأنها كل العالم، كانت هذه الأرض في الزمن البعيد بساتين خضراء، لكنها أجدبت مثلما أجدب كل شيء، فصارت أرضًا ميتة، ولا أدري أتكون النجاة إنْ اختَرَقناها أم هي الهَلَكة؟! ترددت في النزول إلى هذه المفاوز المحفوفة بالخطر، فلا نملك الكثير من الزاد، ولا نعرف إلى أين سيأخذنا السير إنْ مشينا فيها، استعنت برأي إيزابيلا فهي شريكة في ثمن المغامرة إنْ غامرنا، قلت لها: «إنْ عدنا قتلونا، وإنْ سرنا في هذه الأرض ربما نجد النجاة، وربما لا، الطعام الذي معنا يكفي بضعة أسابيع إذا ما اقتصدنا وأكلنا مرة واحدة في اليوم، لكن لا أدري أتكفي أسابيع لقطع هذه الأرض القاحلة التي لا أبصرُ لها حدًّا، أم ينفدُ الطعام ومعه تنفدُ حياتنا». حسمت إيزابيلا ترددي بقولها: «بل نقطَعُها، أي شيء أهوَن عندي من العودة إلى تلك البلاد التي أحرَقَت أَبواي». نزلتُ على قولها، ونزلنا عن الجبل.

مشينا طول اليوم حتى أدركَنا الليلُ والتعب، بحثتُ عن موضع ننام فيه، فلم أجد. البردُ في هذه الأرض المفتوحة لا يرحم، والأغطية والملابس الثقيلة التي معنا تقف عاجزة أمام يدِ البرد المُتسلِّلة، لا يوجد أثر لبيت قديم نلجأ إليه، ولا كوخ

ننزل على أهله، لا شيء سوى القحط من حولنا، وبعض من شجيرات الشوك، أخذتُ منجلتي واقتطعتُ منها ما استطعت، ثُم أشعلتُ نارًا نستجير بها من الزمهرير، المتاع الذي معنا لا يصلح لأقيم منه خيمة تؤوّينا، تدثَّرنا بالمعاطف الثقيلة التي جلبتُها، واستعنَّا بالأغطية، اقتربَت مني إيزابيلا تلتمسُ الدفء، حتى صارت في حضني، خبَّأتُها بين ذراعيَّ لأردّ البردَ عنها، سرت حرارة العناق في جسدها حتى نامت. أيقظَتنا أشعةُ الشمس والجوع، مسيرة يوم واحد كادت أنْ تُهلكنا، فماذا سنفعل أمام هذه الأرض التي لا يمكن قطعها إلا في أسابيع طويلة؟ عرضتُ على إيزابيلا أنْ نعود إلى الجبل ونواصل السير بجواره حتى نصل إلى مكان آمن، فأبت وقالت: «خذ نصف الطعام، ودع لي نصفه، وسأواصل السير وحدي حتى أبتعدَ عن هذه البلاد، أو أموت». أعجَبَتني جسارتها، وآلمتني في الوقت ذاته، فكيف لفتاة لم تبلغ العشرين أنْ يكون لها كل هذا العزم؟! وأنا الذي داسَ عليه العالَم بحذائه ألفَ مرة، لم أرفع يدًا، ولا قلتُ «لا» لمَن انتهكني.

كانت إيزابيلا تراني أمانًا لها، لكنها لو علمت حقيقتي لعرفَت أنها صارت أماني، وملاذًا أهرب إليه حتى لا أشعر بالضآلة، ذاك الشعور الذي لازمني طيلة حياتي حتى تأصَّل في روحي، كم وددت لو رآني من حولي، لو أحسُّوا بوجودي، كم كنت جائعًا لهذا الشعور ومُتعطشًا، لكنهم لم يفعلوا، لم يفعلوا قط، ولعل ذاك هو ما حملني على الصبر قرونًا تحت يد المجلس، فلم أقتل نفسي، شعوري أنَّ العالم بحاجة إليَّ، منحني طاقة على الصبر، لم تكُن تعنيني نجاة شعوبهم المتآكلة، حاجتهم إلى وجودي هي ما كانت تعنيني، شعرتُ بشيء من القيمة، حتى لو كانت قيمة عند قوم لا قيمةَ لهم عندي، وبعدما انتهى كل شيء، وتَحطَّم العالم، وعُدت إلى جبل الرب لا يصاحبني فيه إلا كلبي المحتضِر، أنتظرُ إسدالَ ستارِ الكون وأنا أكتبُ قصتي السقيمة، وبعدما انكشفَت لي حقيقة نفسي، أدركتُ أني لم أكن نبيلًا أو بطلًا أنقذَ المسكينة إيزابيلا! بل كنتُ النكرة الذي يبحث عن نظرة تقدير في عيون الغرباء، حتى لو كانت نظرة في عين رجل مربوطٍ إلى عمودٍ، ينتظر أنْ يُحرَق في الصباح، لكنه أقر بوجودي، أقر بقدرتي على تحقيق أُمنيته، فأعطيتُه الوعد بإنقاذ ابنته، لأنه أعطاني قيمة.

قلتُ لإيزابيلا: «لن أتركَكِ». واصلنا السير في الأرض العارية، نسكن في الليل ونمشي في النهار، بعد ثلاثة أسابيع بدَت لنا ظلال سوداء، كأنها أشجار بعيدة، ابتهجنا ولم نتردَّد عن قصدِها، فلن تكون أشدَّ خطرًا من هذا القفر الذي يحيط بنا، كُنا قد أكلنا كل اللحم الذي معنا، ولم يبقَ لنا إلا القليل من التين المُجفف وكسرات من خبزٍ، مشينا طويلًا حتى بلغنا مقصدنا، وجدنا دَغَلًا تتشابك فيه الأشجار، خشيت على إيزابيلا من اقتحام الدَّغَل الذي نجهل ما فيه، قلت لها: «انتظري هنا، سأدخل وحدي أبحثُ عن شيء نأكله، فلن يخلو المكان من طعام». أخذت منجلتي واقتحمتُ الدَّغَل، كانت الأشجار متلاحمات، ولا علم لي بأجناس الشجر، لكن ما بدا لي جليًّا أنَّ أجناسها جميعها لا خيرَ فيها، فلم أجد ثمرة واحدة فوق الأغصان، حتى يئست من النظر للأعلى بحثًا عن ثمر، جلست مُحبطًا من خيبة أملي، لا أريد العودة إلى إيزابيلا بيدين خاويتين، وبينما أنا غارق في يَأْسي سمعتُ طقطقةً داخل الدَّغل، فاقتربتُ ببطءٍ وقلتُ لعله يكون صيدًا، مشيت على أطراف أصابعي حتى لا يفزعه صوتُ خُطواتي، وجدت خنزيرًا صغيرًا يأكل من أوراق الشجر القريبة من الأرض، ضربةٌ واحدة بالمنجل أسقَطَت الخنزير، حملتُ صيدي وعدتُ به إلى إيزابيلا، فتحتُ الصندوق وأخذتُ أحد السكاكين التي جئتُ بها من البيت المُتهدم، وأخذت أصقل السكِّين بحجرٍ حتى احتدَّ نصله، أرادت إيزابيلا أنْ تساعدني في سلخ الخنزير، فذهبَت إلى الصندوق وأخرجَت خنجر أمي القديم، فألقيتُ بالسكين الذي في يدي على الأرض، واجتاحني الغضب عندما وجدت الخنجر في يدها، وهي على وشك غرسه في الخنزير، صحت بها: «إياكِ أنْ تفعلي، لن يمسَّ خنجرُ أمي لحمَ خنزير». اضطربَت ولم تُدرِك سر غضبتي، فهي لا تعلم أني ابن الدينين اللذين يحرمان الخنزير، وما كنت لأنجس خنجر أمي بدمه.

قررنا أنْ نَأوِيَ إلى أشجار الدَّغل أيامًا، لعلنا نجد مزيدًا من الصيد، ورجوت أنْ أجد ما يصلح فيها للطعام، غير الخنازير، فقد شويت الخنزير لإيزابيلا دون أنْ تمتد يداي إليه، واكتفيت بالخبز والتين الذي أوشك على النفاد. وبينما أتجول في المكان أستكشف حدوده، شاهدتُ سورًا مرتفعًا في الطرف الشرقي، فمشيت نحوه، لعلي أجد بداخله ما نتقوّى به على المسير، أو أجدُ أحدًا يدلّنا على الطريق، عندما وصلت إليه لم أجد بابًا في السور، فمشيت بمحاذاته لعلي أعثر على الباب بأحد أركانه، دُرت حوله ثلاث مرات ولا منفَذ، كان السور مرتفعًا جدًّا، فجئت بالحبل وألقيته إلى الجهة الأخرى من السور، اشتبك الكُلَّاب بحجارته، فتسلَّقتُ. وجدتُ وراء السور أرضًا خاوية، تنتشر فيها بضعُ أشجار مثمرة، ورأيت في الطرف البعيد أكواخًا عديدة، استبشرت بها خيرًا وقُلت سنجد النجاة، اقتربت منها فوجدتُها قلَّايات خاوية، تسع عشرة قلاية، تحيط بكنيسة صغيرة، يعلوها صليبٌ خشبيٌّ مكسور، فعرفتُ أنه دير مهجور.

دخلت الكنيسة فلم أجد إنسانًا، لكن بقايا الشموع أمام المذبح أخبرتني إنَّ ثمَّة أحدًا لا يزال بالمكان، خرجت من الكنيسة وفتَّشت القلايات مرة أخرى، لعلي أجد في إحداها راهبًا، أتعبني البحثُ ولم أجد، فجلست على الأعتاب الخشبية أمام الكنيسة، وبينما أنا جالسٌ رأيت رجلًا آتيًا من بعيد، يمشي على مهلٍ وهو يتكئ على عصاه، يجرُّ قدميه جرًّا، ويسير نحوي، عندما اقترب رأيته بوضوح، شيخٌ طاعن، لحيته بيضاء تمتد إلى سُرته، تبرز عظام وجنتيه، جسده هزيل كأنه عصا مكسوة بمسوح الرهبان لإخافة العصافير. نهضت وسرت نحوه، حتى اقتربت منه، تسمَّرَ في مكانه عندما أحس بخُطواتي، ورفع عصاه يحركها يمينًا ويسارًا وهو يصيح:

- هل من أحدٍ بالمكان؟

فعرفت أنَّ الشيخ أعمى. ألقيت عليه التحية بلسانه الإسباني الذي تكلَّم به، وقلت:

- أنا غريبٌ، أبحثُ عن زادٍ للطريق، أو نصيحة تدلّني على أي الجهات أسلك.

- وكيف دخلت إلى الدير؟

- طفت حوله كثيرًا، فلم أجد له بابًا، فاضطرتني الحاجة لتسلق الأسوار، اغفر لي.

- لا بأس، فقد يطلب الإنسان طريق الله كالسارقين.

- لستُ بسارق، إنما أنا رجل ضلَّ به الطريق.

- السارقُ كان يومًا أكثر إيمانًا من حملة العهد، وصدَّق الرب عندما كذَّبه المصطفون! أيُّ البلاد تقصد يا بنيّ؟

- لا أعرف، تستوي عندي كل البلاد، أريد فقط أنْ أخرج من تلك الغابة لأي مكان، على ألا يكون فرنسا.

- ما دامت تستوي لديكَ البلاد فعلامَ الرحيل؟!

- وماذا أفعل في هذا القفر إنْ بقيت؟

- لو شئتَ ابقَ معي في الدير، ولا تُكلِّف نفسك عناء السفر إلى ما تجهل، ليس في الخارج غير الذئاب يا بنيّ.

- ألا يعيش معك أحد في هذا الدير الكبير يا سيدي؟

- لا. كلُّ الرهبان رحلوا.

- لكنني لستُ مسيحيًّا يا سيدي.

- لم أسألك عن ديانتك، إنما دعوتك للبقاء هنا، واعبد ما شئت. لا أحد يجاورني في الدير، ولن تجد ما يؤذيك إنْ قبلت

البقاء معي.

- ماذا أفعل هنا؟

- وماذا ستفعل هناك، إنْ كنتَ كما تقول تستوي لديك البلاد.

- صدقت. لكن لي صاحبة بالخارج، فهل تسمح لي بإدخالها؟

- أحضرها، فلن يضيق الدير عنها.

- كيف أدخلها؟

- مثلما دخلت أنت.

- يصعب عليها تسوّر الدير، فإنْ كان ثمة باب فأرشدني إليه.

- انظر في تلك القلايات يا بني، ستجد قلاية لا باب لها، ادخلها وارفَع الغطاء عن الأرض، وستجد بابًا يأخذك لسرداب، اسلكه وسينتهي بك خارج السور، أحضِر صاحبتك وعُد من السرداب.

رفضت إيزابيلا أنْ تدخل الدير، كانت خائفة فزعة من ملاقاة راهب، فأخبرتها إنه بمفرده وإنه شيخٌ طاعن أعمى، ولا خطر منه، فدخلت معي.

قضينا أيامًا في الدير لا نفعل شيئًا، كُنا متعبين من رحلتنا الطويلة، فأخلدنا إلى الراحة، نأكل وننام، ولا شيء غير هذا. كان في الأكواخ جلودٌ مدبوغة، وبعض الأغطية، يبدو أنها كانت للرهبان قبل أنْ يرحلوا عن الدير، جمعت الجلود بعضها فوق بعض، وجعلت منها سريرًا لإيزابيلا، وآخر لي؛ إذ لم تقبل إيزابيلا أنْ تنام بكوخٍ وحدها، كنت أعرف أنها ما زالت تخاف الراهب رغم ضعفه وعماه، فوضعتُ لها فراشًا بجواري لتنام آمنة.

ظننت أول الأمر أنَّ الراهب استبقانا لخدمته، لكنه لم يطلب مِنّا أي شيء، يقضي أغلب يومه في خلوته، وإذا مسَّه الجوع ذهب إلى الأشجار التي يحفظ مواضعها، يبحث في الأرض حتى يعثر على ثمرة سقطت فيأكلها، ثُم يمشي للكنيسة، يقيم صلواته لساعاتٍ طوال، وبعدها يعود إلى قلايته، فيخلو بنفسه.

رغم أنه لا أحد في الدير إلا الراهب، فإنه لم يخلُ من الخيرات، فيه كثيرٌ من البط والإوز والدجاج، لا أحد يرعاها، تأكل من الحشائش، وتلتقط الديدان من الطين، وتجتمع على ما يسقط من ثمار الشجر، كما كانت هناك عين تنبجس في طرف الدير، يشرب منها الراهب والطيور. استأذنتُه في ذبح شيءٍ منها لنأكل اللحم، فقال:

- لا تَقتُل. الشجر يجود بالثمر طول العام.

- لا يمكن أنْ نحيا على الثمار وحدها يا سيدي.

- لكنني أحيا عليها منذ سبعين سنة.

- لسنا رهبانًا مثلك، لكن كما تريد أنت. اسمح لي إذًا أنْ أخرج من الدير، لعلني أجد صيدًا في الغابة.

- يا بنيّ أنا لا أبخل بالطير، إنما أريد أنْ يأمنَ كل شيء بديري، فإنْ كان لا بدّ، فاقتصِد ولا تأكل طيرًا صغيرًا، دع له شيئًا من الحياة.

أخجلتني كلماته، فأنا على قوتي أشتهي اللحم كأنني سأهلك جوعًا، إنْ لم آكل منه، بينما ذاك الراهب الهَرِم، يصوم أغلب الأيام على شدة وهنه وكبر سنه، وإنْ أفطر فلا يزيد على ثمرة تسقطها الريح، وشربة ماء، ثُم لا يطلب بعد ذلك

شيئًا.

تعودت بعد ذلك أنْ أخرج في الصباح كل يوم، أجمع الفاكهة وشيئًا من العسل، الذي وجدته بمنحل بين الأشجار، ثُم أذهب به إلى الراهب حتى أكفيه تعب السير، والبحث في التراب، لكنه أبى إلا أنْ يخدم نفسه. كنتُ أذهب إليه مرة أول الصباح، ومرة بعد غروب الشمس، أجلس معه فيحكي لي كيف كان هذا الدير عامرًا، لا يخلو من الرهبان، وأنه ترك إسبانيا وقصد هذا الدير في أقصى حدودها، منذ كان في الأربعين من عمره، وأخبرني إنَّ كثرة الفتن هي ما دفعته لاعتزال بلاده، بعدما تحزب كل دير لرأي في الدين، وإنْ كان تافهًا، لكن الدير صاحب الرأي، يتمسك به، ليتميز عن غيره من الأديرة، ويخالف معتقداتها، فتكون له راية الحقيقة وحده، ثُم انتقلت الخصومة من أفواه الرهبان، إلى الأتباع وروَّاد الأديرة، فنشبت المعارك بين العامة، حتى صارت قتالًا، لكل بلدة دير، ولكل دير كلمة تخالف غيره. اشتعلت الحروب بين القرى والبلدان، حتى صارت المسيحية تختلف باختلاف الأديرة، وبين هذه المعارك وجد بعض الرهبان أنَّ دينهم يحترق بنار الفرقة، فقرروا أنْ يفروا بدينهم، ويعتزلوا الجميع، فقصدوا تلك الغابة على أطراف إسبانيا، وأقاموا فيها ديرهم منذ سبعين سنة. أخبرني الراهب إنهم عندما جاؤوا إلى هنا كانوا تسعين راهبًا، لكن أغلبهم لم يطق الحياة بعيدًا عن الناس. سألته: «كيف يحنُّون إلى الناس وقد أقاموا هذا الدير ليبتعدوا عنهم؟». فأجابني أسيفًا: «ما كانت الأديرة إلا للخلوة والتقرب إلى الراعي، وإذا فتَحَت الأديرةُ أبوابها للناس، فهي لا تفتحها إلا لكي يرشدهم الرهبان إلى الكلأ الطيب، ويردونهم عن الكلأ المسموم، يرشدونهم دون أنْ تميل إليهم قلوبهم، يصنعون لهم الآيات دون أنْ ينتظروا نظرة التقديس في أعينهم، ويمنحون ما لديهم دون أنْ يروا أنفسهم، لأنَّ كل ما لديهم هو من الراعي، وليس منهم، هم عَصاهُ لإرشاد القطيع، ومكانهم قبضة يده، وإنْ خرجت العصا عن يديه تصبح حطبًا للنار، لكن العصا سقطت في الغواية، والنفس مجبولة على حب الظهور، فلما وجدوا أنَّ لا أحدَ يرى صنيعهم، زهدوا في الصنيع، تركوا الراعي ومالوا إلى القطيع، عادوا إلى الناس، فضيّعوا كنز قلوبهم، وكل كنز لا بدّ أنْ يظل خفيًّا، وإنْ عرضته للناس صار بضاعة تُباع وتُشترَى، وثمن الراهب، أنْ يبيع نفسه بغير ثمن، لكنهم طلبوا أجرتهم، فتركوا الدير، ولم يبقَ فيه إلا أربعة، مات ثلاثة، وبقيت وحدي».

مَلَكَ الراهب قلبي، وصارت صحبته عزائي الوحيد، أجلس معه إنْ أذِنَ لي بالجلوس، إنْ تكلمْ استَمعتْ، وإنْ سكتْ سَكَتْ، وحين يأتي موعد نومه أدثره، فيدعو لي ثُم ينام. قضيت معه ثلاث سنوات مرت كأنها يوم واحد، ذكَّرني حزنه الطويل بمُعلمي داوود، وذكَّرني زهده وتقواه بشيخي التيجاني، تعلمت من ثلاثتهم أنَّ كل ذي دينٍ مُصيب، ما دام راجيًا ثوابًا وخاشيًا عقابًا، ينشر خيره للناس، ويكف أذاه عن كل شيء. أما إيزابيلا فلم تُغيّر السنوات التي قضيناها مع الراهب شيئًا في قلبها، تخافه ولا تجالسه أو تتحدَّث إليه، تكره ثوبه ولحيته وصليبه، عندما رأت أني لا أرغب في ترك الراهب سألتني:

- متى سنرحل عن هنا، ثلاث سنوات وأنت لا تفكر في الرحيل!

- ولماذا نرحل، وليست لنا وجهة نقصدها؟ بقاؤنا هنا أكثر أمانًا، وكلما طال وجودنا في الدير؛ عُميت عنا العيون التي ترصدنا.

- أنت تُريد البقاء في الدير لأجل الراهب، وليس لأجل العيون التي ترصدنا.

- نعم، لا أريد أنْ أتركه وحيدًا هنا، لا أريد أنْ أخذله.

- سبعون سنة وهو يعيش هنا وحيدًا، فعن أي خذلان تتحدث؟!

- أنا أكثر مَن يعرف الخذلان، كان وحيدًا لا تؤلمه وحدته، لأننا لم نكُن هنا، فإنْ تركناه اليوم بعدما تآلفت القلوب فذاك

هو الخذلان.

- لا أدري لمَ تشفق عليه؟ لولا عمى عينيه لقتلنا.

- إنَّ قلبك أشد عماءً من عينيه يا إيزابيلا.

كنت غاضبًا من قسوتها، ومُشفقًا على قلبها المُختنق بدخان الحقد، ظننتُ أنَّ الأيام ستُخفف وطأة الألم عن قلبها، وتعلَم أنَّ الناس لا يستوون، لكنَّ شيئًا لم يتغير، وزاد إلحاحها على الرحيل، حتى إنها قالت: «إنْ كنت تُريد البقاء هنا، فسأرحل وحدي». قررتُ أنْ أفضي بحيرتي إلى الراهب وألوذ بحكمة قلبه، أخبرته إنَّ إيزابيلا تُريد الرحيل إلى إسبانيا، وإني لا أستطيع أنْ أتركها تواجه الطريق وحدها، لأني مؤتمَن عليها، فقال:

- لا تتركها يا بني، أعلمُ أنها تبغضني، ولكني أعلم أيضًا أنها مسكينة تتألم.

- نعم، لقد أصابها العالم بشرِّه.

- دَاوِهَا إذن بخيرك، وكُن معها.

- لا أريد أنْ أتركك وحدك، وقد أحببت صحبتك يا سيدي.

- وأنا أحبك، صحبتني أو لم تصحبني، صار لك في قلبي مكان هيّأه الرب لأجلك.

- أرشدني إذًا، ماذا أفعل؟

- ابقَ معي، ولن يطول ضجر المسكينة، سأموت قريبًا يا بني، إني أسمع أصوات أحبابي من قبورهم تناديني، ما هي إلا أيام وأسير إليهم، كُن معي، فإذا جاء موعدي احفر لي قبرًا أسفل شجرة التين عند السور الجنوبي، فهناك يرقدُ أحبابي، ولا تترك جثتي نهبًا لجوارح السماء، ليس لي من رجاء إلا أنْ أموت بكرامة، وأُدفَن بجوار رفاق غربتي.

وعدته أنْ أظلَّ معه. بعد يومين من حديثنا، دعاني لصومعته، كان التعب باديًا عليه، يرقد في فراشه على غير عادته حين أزوره، تبسَّم حين سمع خُطواتي، وأمرني أنْ أجلس بجواره، ثُم أمسك بيدي وقال:

- هل تعرف أني أحبك؟

- أعرف يا سيدي.

- ليس في العالم من خيرٍ، إلا الحب، وما دونه فمُهلِكٌ وهَالِك، الحب هو النجاة، وإني لأحب كل ما خلقه الله، لكن القلب يُصاب بالصدأ إنْ لم يبث حنينه لإنسان، منذ سنوات وقلبي مثقل بالحب كضرع شاة مملوء باللبن، وليس لها حِملان يرضعن منها، ولا حالب يحتلب خيرها، فبعثك الرب لضرع قلبي لأسقيك، أنت حَمَلي الوديع يا بني، وإنني أعرف أنك تحبني مثلما أحبك، ولا أخاف من موتي شيئًا إلا أنْ يصيبك بالوحشة، وتتأذّى روحك بالفراق، فلا تحزن إنْ أنا مُت، وأكمل طريقك، فإنَّ لله غايةً فيك لا أعرفها، غير أني أرى حكمته بين الضباب واضحة جليّة، فاصبر على محنتك...

أذهلتني كلماته، وصعقتني وصيته، فقد سمعت هذا من قبل، سمعته منذ قرون بعيدة، وبالكلمات ذاتها، حين أوصاني حكيمٌ مثله وهو على فراش الموت! ما الذي يرونه جميعًا ولا أراه؟!

حاولت أنْ أمنعه عن الكلام، وطالبته بالراحة لكنه أبَى، ظلّ يوصيني بنفسي وإيزابيلا، يتكلم كأنه يخاف أنْ ينحبس لسانه قبل أنْ يقول كل ما لديه، يشتد به التعب فيصمت، ثُم تغشاه إغماءة قصيرة، فيغيب عن كل ما حوله، وحين يفيق

لا يشعر بوجودي، يتحدث بكلمات لا أفهمها، يكلم الفراغ كأنَّ في الصومعة أحدًا غيري، حتى إني كنت أتلفت حولي، لأرى إلى مَن يتحدث، ثُم يمسك يدي ويناديني بأسماء غريبة لا أعرفها، ثُم يُغشى عليه من جديد، عرفتُ أنها الحمّى، حرارة جسده مرتفعة كأنَّ تحت جلده قِطَعًا من الجَمر، أحضرت خرقة بلّلتها بالماء، وجلست بجواره طول الليل أمسح بها جبينه، وهو يتردد بين الإفاقة والإغماء، حتى طلع الفجر، فاستعاد شيئًا من قوته، وطلب أنْ أسقيه، شَرِبَ جرعة واحدة لم تجاوز حنجرته، حتى غص بها، فردّ يدي بالماء، ثُم قال: «أجلِسني يا بني». أجلسته وجعلت رأسه على كتفي، حاول أنْ يرفع رأسه قليلًا، فلم يستطع، فأسنده إليَّ مرة أخرى وقال:

- إني أحبك يا حسّون، أنت مسكين يا بني، وسيمسح الله على قلبك بيده.

لم ينطق اسمي قط منذ أخبرته به، إلا في تلك المرة، عندما نطق به أدركت أنه يعرفني، ويعرف مَن أكون، ومع هذا لم يسألني قط عن شيء طيلة السنوات الثلاث التي قضيتها معه. شدَّ على يدي ثُم سألني:

- هل طلعت الشمس يا بني؟

- لن تشرق قبل ساعتين.

- ربما لن تشرق على وجهي بعد اليوم أبدًا.

- بارك الله في عمرك يا سيدي، أنت بخير.

- الخير في صحبة الأخيار، كنت أخشى الموت وحيدًا، فأرسلك الرب إلى دربي برحمته، فكنتَ نعم العطية. اسمع مني جيدًا، فربما كان هذا آخر حديث بيننا، إذا أنا متُّ ودفنتني، فاحزم أمرك، وخذ من الدير ما يكفيك من المئونة، وارحل. اسلك طريق الجنوب ولا تَحِد عنه، حتى إذا ما بَدَت لك تلال خضراء، فيمِّم وجهك نحوها حتى تصل إليها، فإذا قطعتها إلى الجهة الأخرى، سِر ثلاثين ميلًا نحو الشرق، وحين تقطع هذه الأميال ستجد قرية اسمها (إلجامينو)، ادخل القرية، وابحث عن راهب اسمه «راميرو»، هو راهب مِن أخلص تلامذتي، وكان الوحيد الذي يتفقدني في الدير، لكنه انقطع عن زيارتي منذ سنوات، فإنْ كان حيًّا، فخُذ صليبي هذا وضَعْه بين يديه، سيعرف أني مَن أرسلك حين يرى الصليب، وستجد منه كل عون. اتركني الآن، ولا تدخل عليَّ حتى تغرب الشمس.

خرجت من الصومعة أهيم على وجهي في الدير، لا أستطيع الجلوس ولا الرقاد، اجتمع الحزن والقلق على قلبي فأكلاه، حاولت أنْ ألتزم أمره، لكنني لم أستطع، تناوشت المخاوف نفسي، فدخلت عليه في الظهيرة، وجدته نائمًا على جنبه، ووجهه للحائط، ناديته فلم يرد، اقتربت منه ووضعت يدي على جبينه لأطمئن على حرارته، فوجدته باردًا كقطعةٍ من الثلج، هززت يده، فكانت مُتصلبة مثل خشبة، أمسكته بكلتا يدي وقلبته على ظهره، فرأيت نظرة في عينيه مُسدَّدَة للأعلى، ووجهًا مات صاحبه، مات الراهب الطيب وصعدت روحه المُغتربة. أسبلتُ جفنيه، وجلست بجوار جثمانه صامتًا لساعةٍ، لا أبكي ولا أتحرك، فقط أنظرُ في وجهه المُطمئن. عندما انتصف النهار خرجت من الصومعة، وذهبت إلى إيزابيلا، سألتها كيف يغسّلون موتاهم ويكفنونهم، فقالت أنها لا تعرف شيئًا عن هذه الأمور، طلبت منها أنْ تَعدَّ لي ماءً دافئًا، ثُم عُدت إلى صومعة الراهب، جردته من ملابسه المتشربة بعرق الحمّى ورائحة الموت، وصببتُ عليه الماء الذي أحضرته إيزابيلا، غسّلتُه على طريقة المسلمين؛ إذ لم أكُن أعرف كيف يغسّل النصارى موتاهم، بحثت عن ثوب غير الذي كان عليه، فلم أجد إلا عباءة قديمة، كانت مطوية تحت صليب وإنجيلًا في صندوق بأحد أركان الصومعة، أدركت أنه كان يعدها كفنًا له، أو هكذا منّيتُ نفسي، لأرضيها بأني حققت رجاءه بعد موته، ألبسته إياها، وحملته إلى المكان الذي أوصاني به، أسفل شجرة التين عند السور الجنوبي للدير، حفرت له قبرًا، وجعلت جسده على حافة الحفرة، وصلَّيت عليه، لم أكُن أعرف بأي

صلاة أشيعه لقبره، رفعت يدي للسماء وقلت: «اللهم ارحم هذه الروح الوحيدة المُغتربة، فقد طال عناؤها، أشهد أنه كان طيبًا ورحيمًا، وأنت طيبٌ ورحيم، فارحمه». سجَّيته في القبر، ووضعت الصليب الذي وجدته في الصندوق بين يديه، وجعلت الإنجيل على صدره، وأهلتُ عليه التراب، وسقيت القبر بالماء، ثُم جثوتُ على ركبتيَّ وبكيت بكاءً مُرًّا، كنت نسيت أنْ العيون يمكنها البكاء، فقد غابت الدموع عن عيني منذ قرون بعيدة، ذرفت الدمع شفقةً على روحه التعسة الوحيدة، أو ربما كنت أشفق على نفسي، ورأيتُ مصيري قبل أنْ أبلغَه، والوحيدُ يحنّ على شبيهِه، لكنَّ الراهبَ كان أسعد مني حظًّا، فقد وجد من يجلس بجواره عند موته، ويمسكُ يده، ووجد من يوسده قبره ويبكي عليه، بينما سرتُ أقطع وديان الغربة، حاملًا حزني وألمي، حتى بلغت نهاية الكون التعيس، فريدًا وحيدًا على رأس الجبل، أنتظر نهاية كل شيء، وما من يدٍ تمسك يدي حين تأتي ساعتي، ولا أحد يبكي لأجلي، أو يحملني إلى قبرٍ يواري فيه جسدي.

عُدت إلى إيزابيلا بعدما فرغت من دفن الراهب، فوجدتها في الصومعة تبكي، أسعدتني تلك الدموع في عينيها، ولم أقُل كلمة. تزوَّدنا من خيرات الدير، وتأهَّبنا للرحيل، سرنا في الطريق الذي دلّني عليه الراهب، لم تظهر التلال الخضراء إلا بعد سبعة وعشرين يومًا من السير العسير، لم تكُن التلال مرتفعة لكنها وعرة صعبة، أجهدنا تسلق صخورها الزلقة، تجاوزناها إلى الجهة الأخرى، واتخذنا طريقنا شرقًا، حتى وصلنا إلى مشارف القرية التي أوصاني الراهب بقصدها، وقبل أنْ ندخلها قلتُ لإيزابيلا: «دعي الكلام لي، فأنا أعرف لسانهم، سأخبرُهم إنكِ ابنتي وإنكِ بكماء، فلا نعرف حال الناس هنا، ولعلهم إذا سمعوا كلامكِ بلغةٍ لا يعرفونها ظنوا بك شيطانًا، أو حسبوكِ ساحرة فيحرقوننا». صادفتُ راعيًا يهشّ على غنمه، سألته: «أين أجد الراهب راميرو؟». فأشار نحو بيتٍ من خشب وقال: «هناك في الكنيسة».

عندما وصلتُ إليه سلَّمت عليه، ووضعت صليب الراهب بين يديه، حدَّقَ في الصليب مذهولًا، ثُم أمسكه بيده وقرأ النقش الذي عليه، فتغير وجهه، وسألني:

- مِن أين جئت بهذا الصليب؟

- أعطانيه صاحبه؟

- أنا مَن صنعت هذا الصليب، ونقشته بيدي وأهديته لمعلمي، فكيف وصل إليك؟

- الراهب هو من أعطانيه، وأوصاني أنْ أقدُم عليك به بعد موته، وقال إنك ستكون عونًا لنا.

- مات سيدي إذًا؟!

- نعم.

غطى الراهب راميرو وجهه وأجهش بالبكاء، حتى علا نحيبه، ثُم مسح عينيه وأنفه بكُم ثوبه، وسألني:

- كيف مات؟

- مات كريمًا يعبدُ ربّه ولا يحقِدُ على أحد.

- نجا الراعي وهلكَت الخراف، طلب الملكوت، وطلبنا العالم، ليتني كنت معه. كيف وصلت إليه أنت؟

- قصدت إسبانيا مع ابنتي، فضلَّ بنا الطريق، حتى وجدنا غابة، دخلنا إليها لنجد فيها ما نتقوى به، وهناك تعثّرنا بالدير، فآوانا الراهب فيه.

- ومَن أنتم؟ ومِن أي بلدٍ خرجتم؟ وماذا تريدون في إسبانيا؟

- مكثنا مع مُعلِّمك سنواتٍ ثلاثٍ، فلم يسألنا ولو لمرة واحدة عن شيء، أطعمنا وسقانا وآوانا، ولم يختبرنا قط.

- صدقت، كان هذا شأنه مع الجميع، إني أعتذر إليك، اطلب ما شئت، وسأفعله إكرامًا لسيدي.

- أريد أنْ أخرج من هنا.

- إلى أين تريد الخروج؟

- بلاد المغرب.

- بيننا وبينهم بحرٌ لا يمكن خوضه.

- ألا توجد سفينة في إسبانيا بأسرها؟!

- ولا واحدة، ليس سوى قوارب صغيرة للصيد عند أهل السواحل، أمهلني بعض الوقت، وسأسعى لتدبير سفرك، فإنَّ الأرض لن تخلو من مغامر.

أخذنَا راميرو إلى بيته، مكثنا عنده بضعة أسابيع، قبل أنْ ينجز ما وعدني به. حال الناس هنا كحالهم في كل البلاد التي مررت بها منذ سقوط المجلس، لا أثر للحضارة، ولا يوجد بها قبسٌ من علم، تهدمت المُدن بأسرها، فلم يبقَ منها إلا أطلال بائدة، الفقر محشور في كل زاوية، والجهالة ترتع في كل الأرجاء، لا شيءَ سوى قطعان من البشر يقودهم الرهبان، يتقاتلون على ما لا يعلمون، يهربون من أطلال البنايات البائدة خشية لعنَتها، ويطلبون النجاة على أطراف صلبان القساوسة والرهبان، يحرقون مَن يقول برأي غير رأيهم، ويجدون في كل أمر لا يألفونه خطرًا مهلكًا، ولذلك لزمنا الصمت والحذر حتى جاء الوقت للرحيل.

قطعنا أرض إسبانيا من أقصاها إلى أقصاها، الحربُ في كل مكان، غربُ البلاد يقاتل شرقَها، لأنَّ شرقَ البلاد يقول إنَّ «مريم» أُمُّ الرب من حيث (الناسوت) فقط، بينما غربُها يرى أنها أُمُّه من حيث (اللاهوت) أيضًا، أما الشمال فقد أعلن الحرب على الجنوب لأنهما يختلفان حول القربان المُقدّس، أيكون الخبز قبل النبيذ في التناول؟ أم يكون النبيذ قبل الخبز؟ لحمُ المسيح أولًا أم دمُه؟! نقطع هذه القرى الظالمة سيرًا على الأقدام، وكلما مررنا ببلدة وجدناها أشدّ خطرًا من التي قبلها، لا يمنع الناسَ عنا إلا وجود راميرو في ثوب الراهب، فإذا دخلنا بلدة تحدَّث بمثل عقيدتهم، وأكَّد أنه على مذهَبِهم، فلم يصبنا أذاهم. رغم ما أصابني من بلاء على يد تلك الأمم، فإنني كنت حزينًا على ما آلت إليه حضارتهم، قلت لراميرو:

- أي حضيض هذا الذي يعيش فيه الناس هنا؟ إنهم يتقاتلون على أمور لو عُرِضَت على الأطفال لضحكوا منهم!

- لا يغرّنك ما ترى اليوم، فقد كانت هذه البلاد ذات يومٍ حاضرةَ العالم، كانوا يتعايشون في سلامٍ مهما اختلفت عقائدهم وألسنتهم، وهذه الأطلال التي يرتعب الناس منها اليوم، كانت دليلَ حضارتهم، ربما لا تصدّق هذا، لكن عندي من العلم وبقايا الكتب ما يثبت أننا لم نكُن يومًا كذلك، لكن ضربة الرب أصابت ظهرَ أُمّتنا فقصَمَته، أنها دعوة الراهب القديم «لاس كاساس»، لعنة صبَّها منذ عشرات القرون على إسبانيا والغرب كله، جرّاء ما اقترفوه من مظالمَ في حقّ الأبرياء الذين نهبوا أرضَهم وذبحوا شعوبَهم، استجاب الربُّ لِلَعنته بعد قرونٍ طوال، فبادت أُمّة الغرب، وأفَلَتْ شمسُها.

- بل أصدق ما تقول، فأنا أعرف كيف كانت تلك البلاد، وشاهدتُ حضارتهم بعينيّ رأسي.

أفلتت الكلمات الأخيرة من فمي عن غير قصد، وظن راميرو أني أسخر منه، فسألني مستنكرًا:

- شاهدتَ حضارتهم بعينيك! كيف ذلك؟ وقد تقوَّضت أركانُ المدنية، وسقطت كل معالم الحضارة منذ سقط القمر، وسقط المجلس الذي كان يحكم الغرب، وكان ذلك كله منذ أكثر من ثلاثة قرون!

- كم أبلغ من العمر في ظنك أيها الراهب؟

- أظنك في الأربعين أو تزيد قليلًا.

- أنا أكبر من ذلك كثيرًا.

- كم عمرك إذًا؟

- أعدك عندما نصل إلى البحر سأخبرك بكل شيء، فلا تتعجَّل.

أكملنا المسير حتى وصلنا إلى ساحل البحر بعد بضعة أشهر، ونحن ننتقل بين القرى، نمكث فيها قليلًا ثُم نواصل رحلتنا. ذهب راميرو إلى دير قريب من ساحل البحر، يعرف بعض الرهبان فيه، وهم من دلّوه على صاحب القارب الذي وافق على رحلتنا إلى أرض المغرب، لم يكُن بحوزتنا شيء نقدمه أجرًا لرحلتنا، وما عاد الناس يقبلون إلا الذهب والفضة ثمنًا، وليس معنا منهما شيء، لكن راميرو كان عونًا لنا، أنقَدَ البحّار ما يرضيه، قَبِلَ البحار المغامرة عندما رأى الذهب، ثُم زوَّدَنا راميرو بالطعام لرحلتنا، وبعد أنْ نقلنا متاعنا إلى القارب، أخذني راميرو من يدي بعيدًا عن البحّار، ووضع صُرةً في يدي وقال: «مَن لا يردَعه الوَرَع، يُخضِعه الذهب».

ركبت إيزابيلا القارب، وتأهَّب صاحبه للإبحار، فتركتهما ورجعت إلى راميرو، وقلت له:

- عبَرَ أجدادي هذا المضيق يومًا إلى بلادكم، وأقاموا حضارتَهم على أرضِكم، فأنارت أوروبا كلُّها بنور الأندلس، حين كنتم تغوصون في لجّة الجهالة، ثُم غلبَت حضارتُكم حضارتنا، ثُم غلب الله حضارتَكم فحطّم القمر، وسقطت مملكة العلماء، وارتدَّ العالم كلُّه إلى الظلام، شاهدتُ ما لم يشاهده إنسانٌ منذ خلق الله هذه الأرض؛ إذ ابتلاني الله بما لم يبتلِ به أحدًا من العالمين، هل سمعت برجُلٍ حبَسه قومك قرونًا في بلادكم، لأنه كان رجلًا لا يموت ولا يشيب؟

- نعم سمعت به، رجلٌ اسمه حسّون، ولا أعلم أحقيقة هو أم أسطورة من أساطير العجائز!

- بل حقيقة لا مراء فيها، أنا حسّون الذي أراد قومك أنْ يصنعوا منه عالَمًا لا يهرمُ فيه الإنسان، فسقطَ عالمهم وبقي حسّون. وعدتُك أنْ أخبرك كم بلغتُ من السنوات وأنا رجلٌ يحفظ وعده، عمري ألف سنة وثلاثة قرون.

لم أنتظر جوابه بعدما ألقيتُ عليه بصاعقتي، تركتُه غارقًا في ذهوله، ولحقتُ بإيزابيلا، يلقينا الموجُ إلى موج، وتحملنا العتمة إلى ظلمات، حتى نزلنا بأرض المغرب، لأعود إلى البلاد التي لفَظَتني منذ قرون، ثُم لفظني البحر إليها من جديد.

عُدت إلى بلاد العرب، ألقى بي الصياد المغامر على شاطئ المغرب، مثلما ألقى بي صيادون مغامرون من قبل، على شاطئ تونس. في كل زمنٍ يدفع الغرباء بي إلى أرضٍ غريبة، كأني جمرة مشتعلة تتقاذفها الأيادي، ولا يطيقها أحدٌ، دفع الإمام بالخوفِ أمي إلى هجر موطن طفولتي في غرقة القليس، فأخذتني عن غير اختيار إلى الجدس، وجاء الغرباء إلى الجدس بالموت والترهيب، ليأخذوني عن غير اختيار إلى إسرائيل، ودفعني الخوف مِمن اتخذوني مُخلِّصًا، إلى الهرب إلى الخليل، ثُم جاءت الحرب لتدفع بي وحيدًا من فلسطين إلى الجبل في سيناء، ومن سيناء إلى البحر، ليلقي بي البحر إلى تونس، ثُم تقذف بي تونس إلى الغرب، لأظل حبيسًا فيه قرونًا حتى يسقط القمر، ويسقط الغرب معه، ليقذفني البحر مرةً أخرى إلى المغرب، تيه وراء تيه، وغربة لا انجلاء لها، وفي كل المواطن أظل أنا المُلقى حيث لا أحد.

تركت الغرب ورائي مُحطمًا لأنزل إلى بلاد العرب، فلم أجد غير الحطام. قبائل متفرّقات، عربٌ وأمازيغ، قتال في كل مكان، ونزاع على كل أمر سفيه، هنا كهناك، لا فرق، طُمست حضارةُ هؤلاء، كما طُمِست حضارة أولئك، سواءٌ بسواء، أَكَلَتِ البهيميةُ العمياء لحم الحضارة، وشربت دمها، تحطمت المدن جميعها، فلا شيء يسكنه الناس هنا إلا خيام وأقبية، أما المساجد فهي قائمة على أعواد النخل، يظلل سقفها الجريد. ومما أضحكني وأبكاني أنَّ اسمي ما زال هنا يتردد، كلُّهم يردّدون اسمَ «حسّون». الأقاويل ذاتها التي رددها الناس، قبل أنْ يلقي حاكم المغرب الكبير بي إلى علماء الغرب، ما زالت مضغة تلوكها الألسنة بعد هذه القرون الطوال، ما زالوا ينتظرون حسّون ويبحثون عنه، طائفة تنتظره حبًا، لأنه «المهدي المنتظر» الذي اختطفه أعداءُ الله منذ قرون، وينتظرون عودته ليتَّبعوه. وطائفة تردد إنه «اليهوديّ الدجّال» وينتظرون عودته ليقتلوه. الحمد لله أنهم يعرفون اسمي، ولا يعرفون وجهي، فنجوتُ مِمن وعدَ ومَن توعَّد.

سبعُ سنوات قضيتها متنقلًا بين المغرب والجزائر، لم يطاوعني قلبي فيها أنْ أطأ أرض تونس، لم يكُن قلبي ليحتمل ذكرى الأحباب، لا أريد أنْ تغرز أقدامي في مقبرة الحنين، فهناك كانت وسيلة وسوار، هناك كان مراد بن يوشع الطيب، وعثمانة الحبيبة، وهناك كان شيخي التيجاني، الغربة كانت أهون كثيرًا من قسوة الحنين في وطن الراحلين.

علَّمتُ إيزابيلا العربية في هذه السنوات، حتى تفهم أهل هذه البلاد ويفهمونها، إيزابيلا أشبه الناس بي، هي مثلي، لا وطن لها ولا أهل، ليس لي في العالم أحدٌ سواها، كما أني صرت كل الناس لها، فما كنت لأخفي أمري عنها أكثر من هذا، أخبرتها أني حسّون العالق بهذا العالم، ولا يستطيع الفكاك منه منذ قرون، لو ظنَّت أني مجنون بعدما قصصت عليها حكايتي، لما عتبت عليها، لكن الغريب أنها صدقتني في كل شيء، وأصبحت أشد تعلقًا بي، سلبت الأسطورة عقلها، ودفعها ضلال الشباب إلى الظن بأنني بطل، جدير بعشق النساء، نسج خيالها صفات ثُم ألصقتها بي، وهي لم تكُن لي يومًا، ومحا عني حقائق مُخزية، كُنتُها على الدوام! تعلَّقَت بي وظنَّت أنها تحبّني، فتجاهلتُ حمقها، وأعرضتُ عن ميلها، حتى أرهقها صدّي، فدخلت عليَّ يومًا ودعتني لنفسها. لم يكُن صدّي لها ورعًا، كنت أرى فيها ابنتي، أو ربما كنت أوهم نفسي بأني رجل نبيل، لا يفعل ما لا يليق بالنبلاء، أو ربما سقطت شهوتي، فعافتها نفسي دون أنْ أدري لذلك سببًا، وأيًّا كانت حقيقة أمري فقد قلت لها:

- أنا مؤتمن عليك من أبيكِ، ولن أخون وعدي له.

- قد وفّيتَ ما وعدتَ به، وأنقذتني من المهالك. أبي طلبَ منكَ أنْ تحفظني، ولم يطلب ألا تحبني إنْ أنا أحببتك!

- لا تتوهّمي الحب، إنما هو الأمان الذي تشعرين به، لا الحب.

- وهل كان الحبُّ إلا لأجل الأمان؟!

- أنا أبوكِ، ولستُ رجُلُكِ. سأظل أمانك، ولن أسمحَ لقلبي بنبضٍ جديد، الحبُّ موت، وقد شبعَ قلبي من المواتِ فلا مزيد.

أصبح الأمر ثقيلًا على نفسي، إيزابيلا لا تفارقني ساعة من ليل أو نهار، لم أكُن أقاوم ميلي إليها؛ إذ إني لم أمِل أصلًا، إنما أقاوم نظرة العتب في عينيها، ومسحة الحزن التي استوطنت وجهها، كنت أعلم يقينًا أنَّ هذا الحب الذي تتحدث عنه، ما هو إلا صنيعة حكايتي، خلقته الدهشة من أمري، عشر سنوات كانت تنام معي بمكان واحد، ولم ترَني فيها رجلًا يبعث الهوى في قلب امرأة، فما الذي أشعله اليوم إنْ لم يكُن سر الحكاية؟! لم أكُن أنا من شغفتها، بل الأسطورة مَن فعلت، أرادت أنْ تكون بطلةَ القصة، وفتاة الحكاية الطويلة، والمرفأ الأخير للبطل الذي صنعه خيالها، وهذا ما أحزنني، فهي لم تطلبني ولم ترَني، حتى وهي تنام بين ذراعيّ تستدفئ بصدري، فلما عرَفَت حكايتي رأت ما تتميز به هي، إنْ صرتُ أنا لها.

امتلأ قلبي بالغيظ دون أنْ أشعر، ومالت روحي لأنْ أنتقم لنفسي بصدّي لها، فقد كان اعترافها بالحب في تلك الساعة، أكبر دليل على أني غير جدير بالحب، وشعورها أخيرًا بقيمتي، كان البرهان على أني رجل لا قيمة له، عزفتُ عنها بغير مواربة، وأضمرت في نفسي أنْ أفارقها متى تهيأت الظروف لذلك. استعنتُ بالذهب الذي أعطانيه راميرو وقررت الرحيل، قصدتُ قافلة خرجت للحج، كنت بحاجة للرحيل، ما عادت نفسي تطيق المكوث في بلد واحد، وقد طال بقائي هنا، لم يكُن الحج غايتي، بل الخروج إلى أرض جديدة، فلحقت بالقافلة بغير خطة ولا تدبير.

مشت القافلة تقطع الأرض، حتى بلغَت حدود مصر، فانحرفتُ عنهم، واشتريت منهم راحلةً قبل أنْ أترك القافلة، استعنت بالراحلة وأغرقتُ في أرض مصر، حتى نزلتُ ببلدة في جنوب الوادي، قريبة من النهر، كانت بيوتهم من الطين لا الخيام كأهل المغرب، وجدتُ أهل القرية طيبين وكرماء، أحسنوا وفادتنا، ولم يرهقونا بأسئلة كثيرة، أحببتُ العيش بينهم، فاشتريت بيتًا من بيوتهم، وبقيت بين ظهرانيهم ثلاثة أعوام، أفلح الأرض وأحصد الزرع لمن يستأجرني، أهل القرية كانوا يظنون أنَّ إيزابيلا ابنتي، رغم أنه لا يجمعني بها شبه، جمالها لا يُخفى عن العيون، فكَثُر خُطَّابها، وهي ترفض كل خاطب، حتى طرق بابنا يومًا شابٌّ جميل الوجه، أدرَكت إيزابيلا حين رأتهُ أنَّ ما أحسَّته نحوي لم يكُن حبًّا، فقبِلَت به زوجًا، رغم أنَّ قلبي لم يمل إليها قط، ورغم علمي بأنها لم تكُن تحبني حقًّا، فإنني حزنت، تمنيت أنْ يخيب ظني بها، لكنه صدق، فما أنْ رأت شابًا قويًّا جميلًا حتى نسيت أوهامها، ورغم حزني هذا فإنَّ الراحة غمرت نفسي، فرغم كل شيء لم أكُن لأتركها إلا إذا أمنت عليها، وجنبتها المخاطر، فكان زواجها خيرًا لي ولها، أخذتُ العهد على الرجل بأنْ يحفظها، ويحسن إليها، فعاهدني، وكان عند عهده، زوجتها له وانتقلَت إلى بيته، وكلما زرتها وجدت السعادة بادية عليها، حبلت إيزابيلا ووضعت ولدًا سمّته حسّون، حاولت أنْ أثنيها عن ذلك، وطلبت منها أنْ تجعل له اسمًا آخر، فأصرت عليه وقالت: «إنَّ الناس يعرفون أنَّ اسمك عبد الله، ولن يفطن أحد إلى حقيقة الاسم، وزوجي رضي بقراري، وأنا أحب أنْ أردد اسمك، فلا تحرمني من ذلك». رضيتُ بما يرضيها، وحان لي أنْ أفعل ما يرضيني، فقد صارت إيزابيلا زوجةً وأُمًّا لولد، ولم تعد بحاجة إليَّ، ولم يعد لبقائي بجوارها من ضرورة، فقررت الرحيل مرة أخرى. حنَّت روحي للحجّ ورؤية البيت العتيق، صلّيت كثيرًا حين كنتُ بأرض فلسطين أمام حائط المبكى، وبكيتُ على الهيكل مع من بكى، قضيتُ حقَّ أمي، وبقيَ حقُّ أبي لم يُقضَ.

حزمت أمري وودعتُ إيزابيلا وأعطيتها ثُلثي ما معي من الذهب، لتستعين به على الحياة مع زوجها، واستبقيت الثلث معي، وقصدتُ مكَّة.

انتظرت بضعة أسابيع، حتى يحين موسم قوافل الحج، وقصدت إحداها، سارت القافلة حِذاء البحر، حتى بلغت سيناء، وددت لو تركتُ الرَكب وذهبت إلى الجبل، حيث صفية الحبيبة ترقد، ولولا عزمي على الحج، لفعلت ذلك، قُلت لنفسي صبرًا فموعد صفية لم يأتِ. قطعت القافلة رحلتها في أربعة أشهر، حتى وصلت إلى مكة، نزلتُ أخيرًا على بيت الله وكعبته، تذكرتُ جدّي إسماعيل، وأنا أطوف حول الكعبة، أرفع رأسي للسماء أبحث عن طير الأبابيل التي حدثني عنها، تُراها هل تأتي وترجم يهوديًّا يطوف بالبيت، أم يشفع لي أنَّ نصفي مسلم فلا ترميني بحجر؟

كنت تعِبًا أريد الراحة، فلزمت الكعبة، تبدّلت أرض الحجاز؛ إذ صارت صحراؤهم أنهارًا تجري، منذ سقط القمر واضطربَت الأرض، خربَت بلادٌ وعمرَت بالضربة بلادٌ أخرى، ما عاد هنا أثر للرمال، الحياة تدب في كل مكان، والخير عميم يكفي ويزيد، لكن حال الناس هنا كحالهم في كل مكان، رغم الرخاء من حولهم فإنهم يختصمون على كل شيء، لم يجدوا أسبابًا للشقاء فبحثوا عنها، يفترقون حول كل مسألة، قديمة كانت أو مبتدعة، هل القرآن قديم أم محدث؟ أمُّ النبيّ مؤمنة أم كافرة؟ نطوف ثُم نُقبّل الحجر؟ أم نقبّل الحجر ثُم نطوف؟ أيهما أطهر الرمل أم الطين؟ وعلى كل مسألة تشتعل

المعارك، ويحتدم القتال بعد المقال. اعتزلتهم مثلما اعتزلت من كانوا مثلهم في كل مكان، لا أنشغل بمشاغل من حولي، ولا أسأل الخصوم على أي شيء قد اختصَموا، لا شيء إلا ملازمة البيت العتيق، وحين أسأم من جدلهم أترك مكة وأرتحِل إلى المدينة، أَنَسْتُ بقبر النبيّ، ووجدت عنده سكينة لم أجدها من قبل، لم يطمئن قلبي بمكان إلا عند قبر صفية في الزمن القديم، ثُم عند هذا القبر العجيب، كثيرًا ما كنت أهمس في أُذن المقام، ليسمعني صاحبه: أنا مَن شربت كأس الحليب في غرقة القليس، أنا حسّون الذي أوصيتَ التيجاني بصحبته، أتذكرني؟

سنواتٌ في المدينة، وسنواتٌ في مكة، عقدٌ وراء عقد حتى اكتمل قَرنٌ وأنا مقيم في الحجاز، ما عدت راغبًا في الرحيل، ولا أجد في نفسي طاقة على المسير إلى أرض جديدة، استوت الغربة في عيني، حتى ظننت أني سأقضي ما بقيَ من عمري هنا، لكن تدبير الله كما هو دائمًا، ينقضُ غزل أحلامي عروةً عروةً! ما أنْ انتهى القرن، حتى جاءت الحرب تدق بابي الموصد في وجه العالم، عاودت الأمم سيرتها الأولى، قامت الحرب، يَسوعُ في وجه محمد.

اجتمعت قبائل الغرب التي ضربها القحط، فجاؤوا يطلبون خيرَ العرب، تركتهم متفرقين يأكل بعضُهم بعضًا، فجمعهم الفقر والجوع، وألّفت الشرور بينهم، نزلوا بفلسطين فأكلوها، ثُم اجتاحوا الشام كله، فلم يردّهم شيءٌ، حتى بلغوا الحجاز، فغلبَت جيوشُهم جنودَه، وهزمَت سيوفُهم سيوفَه، اقتحموا علينا مكَّة، فهربت مع الهاربين، واستعصمتُ بالجبال، هدموا الكعبة، ونثروها حجرًا حجرًا، ثُم حملوا أنقاضها وألقوا بها في البحر، فمن أراد الطواف فعليه بالغرق. حسبت أنهم سيرحلون بعدما هدموا الكعبة، وقتلوا كل حي حولها، لكنهم سكنوا الأرض بعدما رأوا خيرها، وانضمَّ إليهم جيشٌ من بقايا اليهود الذين سكنوا (أصفهان)، واجتمع شتاتهم من الأرض كلها هناك، وآواهم مجوس إيران، بعدما ارتدَّت أُمّتهم عن الإسلام، وعادوا لديانة النيران، وعلى رأس جيش اليهود كان رجلٌ يسمُّونه «حسّون»، وهو كذّابٌ، فليسَ في اليهود حسّون غيري، أنا ابن صفية بنت حزقيال بن ميمون القدّاح. قالوا إنه مُخلِّص اليهود الذي يعيش منذ ألف سنة وخمسة قرون، ولم يكُن في الأرض من دليلٍ يكذّبُهم، فوجهي لا يعرفه أحد، والأسطورة لم تمُت، فصدّقه الناس واتبعوه. سار خلفه جيشٌ من نصارى العراق والشام، مع من أتوا معه من يهود أصفهان، وانضمّت إليه جيوش الغرب التي تنتظر الوعدَ القديم، لعل مسيحَ اليهود يأتي بمسيح النصارى! فكانوا له عونًا، دانت له الأرض أربعين سنة، وصار ملكًا على أرض الحجاز والعراق والشام، والمسلمون يخوضون القتال تارةً، ويخمدون تارةً، وهم على كل حالٍ يعضّون على جذع الأمل، وينتظرون مسيحُهم الذي سيأتي ليكسرَ الصليب ويذبح اليهود، كلٌّ ينتظرُ مسيحَه الذي سيأتي والسيفُ في يده، وكلهم يزعم أنه أنا.

تقاتلَ المُسَحاءُ وأنصارُهُم، وأنا أهيم على وجهي، كلما اقتربت الحربُ ابتعدتُ، أشاهد قوم أبي وقوم أمي يتقاتلون، وأنا بينهم لا أرفع يدًا، ولا أعرف لي ولاءً، لا أنصر الدم، ولا أقاتل مع الحليب، يصطرعان بداخلي منذ مئات السنين، وأنا بينهما حسونٌ مهيض الجناح، لا يطير إلى هؤلاء، ولا يسكن إلى أولئك.

بعدما استقر الأمر لليهود، ولقائدهم حسّون الكذّاب، جاء من أقصى الشام رجلٌ يقود بقايا العرب، اجتمع إليه أهلُ مصر ومن هرب من مكة وما حولها، فقاد جنوده واقتحم الحجاز، تبادل الجيشان النصر والهزيمة، ثُم دارت الدائرة على المسلمين، حتى أوشك جيشهم على الهلاك، فتترّسوا مع قائدهم في المدينة المقدّسة، حول قبر النبي محمد، ليجمعوا شتاتهم ويستعيدوا قوتهم، توجّه جيش اليهود وأنصارهم إلى المدينة، وحاصروا أطرافها، فخرج إليهم المسلمون ولم ينتظروا أنْ يقتحموا عليهم مدينتهم، فتواجه الجيشان، واصطدمت الكتائب بالكتائب، سقطت الأطراف وطارت الرؤوس، حتى انجلت المعركة عن هزيمة جيش اليهود ومن حالفهم، فتبع المسلمون أدبارهم، حتى فرّ جيش اليهود ومن معهم إلى أرض فلسطين، فتبِعَهم جيشُ المسلمين حتى لحق بهم على أبواب المدينة المقدسة الأخرى، التحمَ الجيشان، وصُرِعَ حسّون قائد اليهود على أبواب أورشليم، وانهزم جيشه، وتمكَّن المسلمون من البلاد مرةً أخرى.

ظننت أنَّ الحرب قد وضعت أوزارها، وأنَّ الأمن قد أتى، وبلغ الناسُ سلامهم وحلَّ الأمن بأرضهم، بعدما أشعلتها المعارك قرنًا كاملًا، فإذا الهلاك يطل برأسه مرة أخرى، ولم يكُن مجيئه على يد الجيوش، إنما على يد السماء التي ألقت كلمتها، نزل القحطُ فمسحَ بيدِ الفناء أسبابَ البقاء، عقود لم تنزل من السماء قطرة ماء، والشمس فغَرت فاها، فشرِبَت حرارتُها كل نبع، حتى لم يبقَ من الماء إلا نذرٌ قليلٌ، يتقاتل الناس عليه. عاد الحجاز صحراء، والعراق غارَ فيه الأخوان دجلة والفرات، وكذا نهر النيل توالت عليه مواسم الجفاف، وضرب الوباء أهله، حتى قضى على أهل مصر أو كاد، لم يكُن قحط الأرض في بلاد العرب وحدها، فقد أصاب الهلاك مشارق الأرض كلها، ثلاثة قرون مرت بعد الحرب لم يرفع الفقر فيها يده عن الأرض، لا تجود السماء إلا بقطرات، ولا يعطف الطين إلا بنذر من الزروع، هاجت الأمم على الأمم، وجارت البلاد على البلاد، وعندما أحكم القحط قبضته على أهل المشرق تركوا أرضهم، بحثًا عن الزاد في أي مكان، خرجَ من أقصى الشرق صُفر الوجوه، يجتاحون الأرضَ كلها، مَن قاومهم قتلوه ومن تركَهم تركوه، لم يخرجوا للقتال، بل لأجل الماء والغذاء، بعدما أقفَرَت أرضهم قرونًا ثلاثة. خرجوا رجالًا ونساءً يحملون السيوف والنبال، أكلوا أرض الغرب حتى أبادوا خيره، ثُم جاؤوا يطلبون الحياة في أرض العرب، أو ما بقيَ فيها من حياة، فإذا مروا بعينِ ماءٍ شربوها حتى تجفّ، وإنْ مرّوا بأرضٍ أكلوا خيرَها حتى تُقفِر، كأنهم الجراد لا فناءَ لجنسهم ولا نهاية لعددهم. قال بعض الناس: إنهم الأُمّة المحبوسة خلف الجبلين، يتوالدون ولا يموت منهم أحد منذ حبسَهم الملك ذو القرنين. وقال آخرون: هم يدُ الله التي أطلقها على وجه الأرض لتطمسَها بعدما فسد الناس. كَثُر المتقوّلون لكنَّ أحدًا منهم لم يرفع سيفًا ليردّهم، ولا جرؤ أحدٌ على صدّهم، حتى فنيت البلاد وأوشك كل شيء فيها أنْ يموت. مكثوا في أرض العرب مائة وتسعين سنة، بعدما ترك لهم أهل البلاد بلادهم، فلم يبقَ منهم إلا أقل القليل، قحطت الأرض ولم يعد فيها نبع ماء، ولا عودٌ ينتصبُ في أرض، ولا ثمرة تتدلى من شجرة، أكلت المجاعة جحافل الغزاة صفر الوجوه، أشهر لا غير وحلّت نهايتهم، كأنهم لم يمكثوا في الأرض قرنيْن، ماتوا جميعًا، وصاروا كالحصى في الطرقات، جِيفُهم مترمّمة، متبعثرون في كل مكان، حتى إنَّ نملةً لا تستطيع أنْ تمُر من بين بقاياهم المتناثرة، عفونة أجسادِهم أماتت من أفلتَ من الموت جوعًا، الهلاكُ أغلقَ أصابعَه على كل روح فلا فكاك، إلا لمن قدَّر له الربُّ أنْ يرى الأهوال حتى نهايتها. تَاهَ الذين كُتبت عليهم التعاسة بين شعاب الجبال، وأخاديد الأرض، ومخابئ من فروا قديمًا أمام غزو القادمين من الشرق البعيد، وتهتُ مع التائهين في الأرض، لا أعرفُ لي سكنًا، أنتقل من أرضٍ لا أعرفها إلى أرضٍ أجهلها.

مائتا سنةٍ من التيه بين الغرب والشرق، والشرق والغرب، يقطع الناجون حدودًا لا يعرفونها، ويدخلون بلادًا لا يعلمون لها اسمًا، يبحثون عن فتات يقيمون به صلبهم، لا يدركون مِن أين أتوا، ولا إلى أين هم ماضون. يتحرّك الناس فرادى أو جماعات صغيرة، لا يعرفون لهم دينًا ولا لوجودِهم غاية، ما زال البعض يسمّي نفسَه مسلمًا؛ لأنَّ أباه أخبَره هذا، وأبوه سمع ذلك من جدّه، وجدّه عن جدّه، يسمعون عن كتابٍ اسمه القرآن، لكنَّ أحدًا لم يرَه بعينيه، وليس فوق الأرض أحدٌ يحفَظُ منه آيةً واحدة، ومن بقيَ من اليهود والنصارى لا يعرفون توراةً ولا إنجيلًا، يسمعون بهما لكن لا دليل على وجودهما، اندثرت الكتب الثلاثة، وكالبهائم كل الناس ترعى، وأنا أحملُ صندوق أمي، أجوبُ العالم أشاهد خرابه وأشهدُ عليه، حتى بلغت من العمر ألفين ومائتي سنةٍ، وما زلتُ في الأرض أسعى.

لو شئتُ لكنتُ للناس نبيًّا، فأنا آخر من يحمل الكلمة، ومعي دليلٌ من الله في كتابين يرقدان بصندوقي، ولو شئتُ لحكيتُ لهم كيف قامَت الأمم وبادت، لأُصبح أعظمَ الرواة، لو شئتُ لأصبحت لي أعظم قيمة في الأرض، بعدما أنكرني الجميع على مرّ القرون، لكن ما عادت القيمة تعنيني، تأخرت كثيرًا، حتى أصبَحَت أرخصَ الأشياء عندي، أنا لا شيء سوى

حسّون آكِل جنين الشوك، حسّون الذي لم تحبّه أُمُّه إلا لأنه ابن حبيبها، فكانت تنظر بوجهي لتراه هو، لا لتراني أنا، ماتَ أبي وتركني، وما كان له أنْ يتركني، وجدّي إسماعيل نبذني، ثُم أحبّني ليعتذر لولده الميّت، لا ليعتذر لي أنا، جدّي حزقيال لم يرَني إلا نطفةً قذرة تنجَّست بها صفيّة، ورضي بي فقط لأجل ابنتِه، ومُعلمي داوود اصطفاني لبوحه الحزين، كان يُريد أُذنًا لا لسانَ لها، فوجد مراده فيَّ فاصطفاني لنفسه، مراد بن يوشع اجتباني ونسبني إليه ليصنع له نسلًا، ولو كان مزيفًا، وشيخي التيجاني لم أكُن له سوى بشارة نبيّيْن، فصحِبَني لأجلِ بشارته، لا لأجلي، وأروى غضبت لكبريائها، فأطاحت بي عن طول يدها، لم يحبني أحدٌ لذاتي إلا سوار التعيسة، وعثمانة الذبيحة. هذا العالم لم يرَني إلا مسخَه الظريف، فردَّدَ حكايتي ليضحكَ مني، وعندما التفتَ إليَّ أراد أنْ يسلبني حياتي، لا أنْ يمنحني وجودي، فلماذا أمدُّ للعالَم يدي، وأنا السائرُ الأعمى، والطائرُ الذي لا عُش له ولا مأوى؟! ما جئتُ إلا لأمُرّ بغير أثر، فلتتمَّ القصة، وليبلغ الربُّ مشيئته، لن أمُدَّ للناسِ يدي، اتخذتُ قراري ومضيتُ أجوب الأرض، أشاهد احتضارها، لا أحزن لشيء ولا أفرح بشيء.

وكان للكون قراره أيضًا، نزلَت الصوادم والنكبات، كأنها حجارةٌ تتساقط من رأس جبل لا يصدها شيء، أو كأنها المطر الذي لا تعرف أوَّلَه من آخره، ما إنْ نزلَت أول قطرة حتى انهمر السيلُ العرِم، تداعى الكونُ كحطامِ شجرةٍ في جوفِ الحريق، أسمع طقطقة عظامها وتطاير أشلائها وسط اللهب، تستعجل الفناء كأعظم ما تكون العجلة. لم تكُن صدمتي في الأهوال ذاتها، بل في سرعة تتابعها، حتى إنَّ ذاكرتي لا تكاد تحصي تتابع الأهوال وأحداث السقوط، السقوط الرديء. كل المواجع التي مضت لم تشفِ غليلَ القدر، ما زالت المصائب تتوالى، وابن الإنسان لم يدفع الثمنَ كاملًا، والدائنُ ما زال يطالب مَدينَه، جناية الشجرة الملعونة لم تسقط بالتقادم، ولكلِّ نسلِ العاصي من الألمِ نصيبٌ، وخزائنُ الربّ مَلأى، جاءت الضربة الأخرى، لكن لم يكُن هناك قمرٌ في السماء ليحملها عن الأرض، رمى الربُّ حربته من جديد، فانشقَّت الأرض دون أنْ تضربها صخرة، كانت الضربة من قلب الأرض، لا من خارجها، ثارت كل براكين العالم في ساعة واحدة، كأنها على موعد قديم، فكانت المهالك التي رأيتُها يومَ سقوط القمر مزحَةً سهلة، بجوار ما فعَلَته بأرضِنا النيران الطافحة، حسبتُ أنها القيامة، لكنَّ كتاب الله لم يزل يُخفي سطوره، وكل كلمة تتبعُها كلمة، وكل رَجمَةٍ في إثرها رجمة، أخرجَتِ الأرض أثقالها، وفارت بطنها باللهب، والدخان دليل الحريق، ولسانه الفصيح الذي يخبر عنه، سدَّ رمادُ البراكين ودخانها عينَ الشمس، فلم تشرق على الأرض تسعين سنة، كأنَّ الدخان نزل من السماء ولم يخرج من الأرض، سَادَ الظلامُ حتى ظننتُ أنَّ الله لم يخلق في الأرض نورًا من قبل، لا أعرفُ سهلًا من جبل، ولا أدرك نهارًا من ليل، الظلام سرمديٌّ لا يزول، ذبُلَ العشب ومات كل زرع، وقاومت بعض الأشجار قبل اكتمال المحنة؛ إذ كانت أبواب الدخان تنفرج أيامًا في بعض سنوات الظلام، فيتسلل الضوء كالسارق نحو الأرض، ليمد الشجر ببعض الحياة، وسرعان ما ينتبه الدخان إلى ثغرته فيسدها، وتطبق العتمة من جديد على كل العيون. هلكت الضواري عندما هلكت جُلّ الفرائس، وتساقط الناس صرعى من الجوع والعطش، ومَن بقيَ منهم، لا يجد زادًا، إلا أوراق الشجر الذي يضرب بجذوره في الأرض متشبثًا بالحياة، وحين لا يجد الناجون ورقة فوق غصن، يبحثون عن الموتى ينهشون لحومهم، قبل أنْ يسبقهم الدود إليها، فإنْ لم يظفروا بالجيف بحثوا عن الأحياء، من وجد طفلًا ذبحه، وإنْ صادف ضعيفًا أكله، يصطرع الرجال مع الرجال، كلٌ يطلب الآخر طعامًا لبطنه، يصيدُ بعضُهم بعضًا في العتمة، ما عاد يربط الناس شيءٌ، كلٌّ يطلب لنفسه حياةً تقودها غريزة النجاة، وفي غمرة المهالك نسيَ الناس الكلام؛ إذ إنَّ أحدًا لا يكلم أحدًا، لا بيت ولا عائلة، ولا ينتسب إنسان إلى إنسان، جيلٌ وراء جيل، وليس للجميع سوى غاية واحدة: أنْ يظفر المرء بطعام، أي طعام. لا صوت يعلو فوق صوت الأظافر والأنياب، فلا قيمة للسانٍ ولا كلام، وحين يُشبِعون بطونهم يبحثون للفروج عن نصيبها من الشبع، ينزو الرجل على امرأة لا يعرفها، وربما لو جاع أكلها، عراة يهمهمون بغير كلام، يتناكحون بغير وفاق، ويتناسلون بغير رباط، فلا أسرة ولا رحم، لا يعرف الولد مَن أبوه، ولا يعبأ الوالد بمن ولده.

وأنا وسط الظلمات أسير من أرض إلى أرض، تمر أشهر طوال لا أرى فيها وجه إنسان واحد، أسير في الخلاء أبحث عن

طعام، فإذا وجدت شجرة حية بقيت بجوارها، حتى تنفد أوراقها فأبحث عن أخرى، ثُم أواصل السير في الظلماء بغير هدى، أضرب في الأرض بعيدًا، لا أعرف إنْ كنت في شرقها أم غربها، ثُم يصادفني بعض الناس أحيانًا، كالوحوش يبحثون عن صيد، وكالبهائم يسيرون بلا غاية، أتجنبهم وأختبئ بعيدًا عن شرورهم، لا سيما الرجال منهم، النساء كُنّ أقل خطرًا في الظلام، فكنتُ بين حين وآخر أرى نساءً على أياديهن رُضّع، وخلفهن صغار، يبحثن عن الطعام، فكنت أدلهم على مواضع الشجر الحي، ليأكلن من أوراقه ويطعمن أطفالهن، وإنْ تكلمت مع إحداهن لا تفهم مني كلمة، ولا تنطق بحرف واحد، خرست البشرية في كل مكان، واندثرت جميع اللغات، لا شيء سوى الهمهمة، وصفير الهواء حين تنفرج الشفاه، فكنتُ أسوق النساء الجائعات، كما تساق النعاج إلى مواطن الكلأ، ثُم أتركهن، وأواصل السير في الأرض التي ما زالت تتنفس بصدر يتنازع عليه الموت والحياة، وكلما مرّ يوم يحصد الهلاك ألف رأس، أمام كل رأس تضعه النساء، حتى كاد ابن الإنسان أنْ يفنى، لكن ماذا تعني المصيبة إنْ لم يكُن هناك من يُصاب بها؟! استبقى الله بعضَ الناس قبل اكتمال الهلاك.

عندما أيقنت بهلاك كل شيء جاء الفرج، ثارت رياحٌ لا انقطاع لها، حتى كادت تقتلع الجبال من جذورها، تطيح بكل شيء وتحصد الأرواح البائسة التي لم تجد مأوى ينجدها، أتتِ الأعاصيرُ على كل شيء، لكنها لم تخلُ من الخير، فقد كنستِ الريح وجه السماء، فانقشَعَ الرماد والدخان، وزالت العتمة، بعد تسعة عقودٍ من الظلام. نظرت إلى السماء، فرأيتُ الشمس التي غابت تسعين سنة قد ظهرت، لكنها صارت بيضاء، لا يكاد شعاعها يمنح دفئًا أو يبعث حياة، فأدركتُ أنه لم يكُن الفرج، بل الخاتمة، التي يستوي عندها البكاءُ والبسمة.

وعلى خروج الشمس بيضاء، فإنها ما زالت تنير الكون على استحياء، وتبعث شيئًا من الدفء يعيد للأرض ذاكرة النماء، وعلى أثر انعتاق الشمس تزاحمت السحب في السماء، معتذرة عن طول الغياب، هطلت بغير انقطاع لسنوات، فاهتزت الأرض واستجابت لنداء النور والمطر، وتدفقت في الأرض الحياة، خَرَجَ العالم من رحم العتمة مولودًا لا يعرفُ شيئًا عن كل ما كان قبله، صفحةٌ بيضاء ليس بها كلمة، أرض نقيّة كما خلقَها الله أول مرة، لا يجثم فوق ظهرِها بيتٌ صنعَه الإنسان، لا مسجد فوقها ولا معبد، لا ديانة يتحزَّب لها الناس، وثنية كانت أو سماوية، لا لغة ولا كلام، لا قبيلة ولا عشيرة، أرض فسيحة طيبة بلا أوطان ولا دويلات، فلا حرب ولا سلام، لا حدود ولا قواعد، لا شيء سوى أرض يسيرُ فوقَها إنسان، يأكل مِما تطرح، ويشرب مِما تنضح، ومِن حوله كائنات تسعى بسلام، لا صيد ولا صيّاد، لا يطمع أحدٌ بأكثر مما يسدُّ جوعَه من الزروع والثمار، سلِمَت الأرضُ من الإنسان وسَلِم فيها. غابت كلُّ الغايات، وانطَمَسَت جميع المخاوف بانتهاءِ كل الأديان، واندثَر الانتماءُ والقسوة عندما دُفنت سائر الأوطان، لا كلمة عن دين، ولا كلمة عن وطن؛ إذ لا كلام في الأرض كلها. وددتُ لو أقطع لكل مَن بقيَ من الناس ألسنتَهم، خشيةَ أنْ يعرفوا الكلام مرة أخرى، الكلامُ هو الآفة والمرض. تفكّرتُ كثيرًا، من أين عرف الإنسان القسوة؟ لو كانت هي الأصل فيه فلماذا أراه اليوم مُجردًا عنها؟ ما صنَع القسوة إلا اللسان، فلما تكلَّم الإنسان قدَّس لسانه، وظن كلامه مُنزَّلًا، وقال هكذا تكلَّم الله، فاختلَفَت الألسنة، وصارَ لكل لغةٍ إله، ودومًا لله شعبٌ، وللشعوبِ بلاد، فتصارع مَن في الأرض ليسود مَن في السماء! واليوم ليس في السماء سوى النجوم وشمس بيضاء، لم يعد أحدٌ في الأرض يعرف الله، إلا أنا، ولا يزال في صندوق أمي كتابان يتصارعان بداخلي بعدما زال عن الأرض كلُّ صراع، أصبحتُ أنا الحرب الوحيدة على الأرض، أعبدُ إلهًا أناديه بلسانين، عربيٌّ وعبراني، أردتُ أنْ أقتل نفسي لأزيل عن وجه العالم آخرَ دليلٍ على وجود التعاسة، لكنَّ الحياة وإنْ طالت رداءتها غالية، فلم أفعلها.

ألقيتُ أفكاري، وقلتُ أسعدُ مع السعداء، أقتاتُ على الثمر وأمشي في الأرض، أشاهدُ الذكور والإناث يغمغمون بغير كلام، لا يعرف بعضُهم بعضًا، ولا ينتسبُ أحدٌ إلى أحد، لا حبَّ ولا وكراهية، بغير قاعدة ولا استثناء يتآلفون، يقتربُ ذكرٌ

من أنثى أو تكون هي أول من فعَل، يتلامسان بدهشة الاكتشاف الأول لجسدٍ مغاير، يمدُّ أحدُهما يدَه ليمسَّ ما لدى الآخر، والمسُّ بديعٌ ووديع، فتنتشي مسام المرأة وتتفتّح، وتتسارع أنفاس الرجل ويضطرب، يشتبكان حتى يعرف التائه بيتَه، فيسكن، كغصنين يتداخلان، وكالماء، يجري النهرُ لمصبّه، حتى إذا اكتمَلَت البهجَةُ عاد كلٌّ منهما لتيهِه السعيد.

صَفَت روحي وأنا أشاهد العالم الجديد، قرنان من السلام غابت فيهما كل المخاوف، قرنان وما زال الإنسان صامتًا لا يعرف الكلمة، أجوب المشارق والمغارب، أقطع آلاف الأميال فلا يقابلني فيها إلا حفنة من البشر، عراة لا يجمعهم شيء، سوى السذاجة والوداعة، وكما سلم الإنسان سلمت الدواب، اندثَرت كل السّبَاع، لا يسير على أربعٍ إلا الودعاء، الذين يقتاتون على الأعشاب، مات القويّ ولم ينجُ إلا الضُّعفاء، صارَ البقاءُ للأطيب.

وجد كل شيء سلامه وسَكَن، ووحدي لا تزول غربتي، بحثت روحي عن أمانها، وحنَّت لسكنها، ولا بيت لي إلا قبر صفية، اشتقت إليها، فواصلت السير حتى قطعت الأرض التي تقع على رأس بحر القلزم، وبلغتُ جبال سيناء، متاهةُ الرب التي صنعها بيديه، وقدره المكتوب على كل يهودي، كي يذوق فيها الضياع، طال تيهي فيها عقودًا، وأنا أبحث عن قبر صفية، ألفُ شاهقٍ يحيطُ بي، جبالٌ تعبَث بعقلي وتسخر مني، كلما ظننتُ أني اهتديت وجدتني أبعد ما أكون عن غايتي، سفوحُ الجبال صارت مروجًا خضراء، ولا أدري أين ترقد صفية، أبحث عن صخرة خضراء، لم يكُن لها مثيل بين كل الصخور حين دفنت أمي بجوارها، ظننت أنها دليلٌ لن أضلَّ عنه حين أعود إلى قبرها، ما كنت أحسب أنَّ غربتي ستدوم عشرات القرون، ما أصعب الوصول إليك يا صفية، أكان لزامًا أنْ يسقط القمر وتتحطم الممالك، وتندثر الأمم، وتتقوض أركان الكون كله، كي أعود إليك من جديد؟! أبحث عن الصخرة بين أقدام الجبال، ولا أجدها، وكلما أعياني البحث اشتد عزمي على الوصول.

وجدتُ جماعات من الناس يتناثرون في أرض سيناء، وددت أنْ أسترشد بهم للوصل إلى الجبل، لكن كيف أجد عندهم الرشاد، وهم أقرب للعجماوات، لا يعقلون شيئًا ولا ينطقون كلمة. كنت أراهم في بعض الأيام كُثْرًا، كأنهم قبائل قد استعمرت الأرض، وفي أيام أخرى أذرَع أرض الفيروز من أقصاها إلى أقصاها، فلا يصادفني سواد إنسان، ما زالوا عُراةً خُرسًا، ساذجين وطيبين، ورغم أنه لا فائدة من الناس ولا ضرَر، فإنَّ رؤيتهم كانت تؤنس وحشتي وتمسح على قلبي المُغترب.

تذكرت قول شيخي: «ذاك النابضُ دابّتُك، مهما ابتغيتَ الوصولَ بغيره لن تصل، فأحسِن عَلف الدابَةِ تَحمِلْك». استحضرتُ قلبي، وانقطعت عن البحث، وصلّيت لله أربعين يومًا، رجوته أنْ يهديني لقبر صفية، وأنْ ينقذني من التيه والضلال، ثُم عاودت البحث عن أمي، تَبِعتُ قلبي، وكلما هداني عقلي إلى طريقٍ سرتُ عكس ما أرشدَني إليه العقل، فبلَغت.

عثرتُ على الصخرة الخضراء، ما زالت تنتصب فريدة في أرض فسيحة، لا تجاورها فيها الصخور، وقد نمت حولها الشجيرات والأعشاب، أيقنتُ أني أقف على حافةِ مرقد صفية، وفوق رأسي جبلُ الرب يناطح بروج السماء، همَمتُ أنْ أنبش الأرض تحت الصخرة الخضراء، هنا قبر صفية الذي حفرته بيدي، قبل خمسة وعشرين قرنًا، لكنَّ قلبي لم يطاوِعني على نبش قبرها، وتذكَّرت رفيق الكهف غلام، فقد دفنتُه على بُعد ذراعين من قبر أمي، قبل الرحيل الطويل، أريد أنْ يطمئن قلبي إلى أني أقف على مرقد أمي حقًّا، وإنْ وجدت قبر غلام، فهو الدليل الذي لا ريب فيه على أنَّ أمي ترقد تحت الصخرة الخضراء، أوليت ظهري للصخرة وخَطوت خُطوتين، حيث الموضع الذي دفنت فيه غلام، نبشت بيدي وأنا أسأل نفسي: حتى لو كان هنا فهل يمكن أنْ يبقى من عظامه شيءٌ لم تهلكه القرون؟! لم أجد أثرًا للعظام، لكنني وجدت الفأس التي حفرت بها القبر، ووضعتها بجوار غلام قبل أنْ أهيل عليه التراب، وجدت الدليل واطمئن قلبي، هنا رقد كلبي الأمين، غمرني الحنينُ، فبكيت رفيقي الذي دلّني على الكهف، حين سكنتُ الجبل في الزمن البعيد، وصاحبَني فيه سبع عشرة سنة،

أيقنتُ أنَّ القبرَ قبرُ غلام، وأنَّ الصخرة هي صخرة صفية الحبيبة، ألقيت بجسدي على قبرها، لأنام بين ذراعيها، عُدتُ إلى موطني، للبيت، لسرير أمي، أذرفُ الوجع الطويل، وأُلقي على كتف التراب حِمل القرون، أحكي لها بالمدامع كيف فعل العالم بي، وترابُ صفية، كصفية، رحيمٌ.

مكثت في حضرة القبر الأمين، لا يخرجني منه شيءٌ إلا الجوع، أقوم فأملأ بطني من خير الأشجار التي حولي، ثُم أعود إلى صفية، لا أدري هل نما البستان حول قبرها فأمده بالحياة، أم أنَّ قبرها هو مَن أحيا الأرض من حوله فاخضرت؟! نسيت عتبي عليها، لا بأس، نغفرُ يا صفية، نغفر. يكفي أنكِ قد مددتِ لي يدَ القبر فعانقَني، حتى صار لي سكنًا لا تقربه المخاوف.

تسعون سنة مرت كأنها يومٌ أو بعضُ يوم، مثل ساعةٍ غفوت بها ثُم فتحت عيني فإذا بتسعة عقودٍ قد ولّت وأنا على قبر أمي، تسعون سنة من الراحة المُكتملة، لا ينغصها شيء من العناء، قضيتها وأنا أمشي في الأرض الطيبة، كل يومٍ أشاهد رحمة الرب، وقد كست أرجاء الأرض بعد طول العناء، آكلُ من خيرها، وأمشي في شعابها ووديانها بلا خوف ولا حذر، فما عاد في الأرض من شرور، أحبُّ كل شيء من حولي، أسبّح الله وأصلي، أشاهد الناس من حين إلى حين وقد صاروا كالأيائل والظباء، لا خطر منهم ولا شرور ولا أحقاد، وبعد كل جولةٍ أعود إلى قبر أمي فأنام في حضن ترابها آمنًا رَضيًّا، وما ضرني لو قضيت بجوارها تسعين ألفَ سنةٍ لا تسعين عامًا، لكنَّ الله قال لي: قُم. فقمتُ. أنهتِ السماءُ عقود السلام، وأبدَت وجه الغضب من جديد، لكن هذه المرة لم تتصدع الأرض بالبراكين، ولم يحجب الدخان وجه الشمس، ولا ضربت الأرض بالصخرة الجبارة مثلما فعلت بالقمر، فبعدما زالت الممالك، واختفت الأديان، واندثرت اللغات، وصارت الأرض مدينة الله التي لا يدبُّ فوقها إلا البهائم، وحفنة من العراة الساذجين كانوا يومًا هم الناس؛ أعلنَ الله أنه لم يعد يريد حتى هؤلاء، وقرر أنْ يخرجهم من مدينته.

انقضت الهدنة وبدأ القصفُ المنهمر، زخّاتٌ من الشهب لا تتوقف في ليلٍ أو نهار، تصيد الناس كأنها أسهُم رمتها يدُ القنَّاص الذي لا تخيبُ رميتُه أبدًا، كلما ابتعدت عن قبر أمي وسرتُ في الغابات والمروج رأيتُ الجثامين ملقاةً على الأرض، مثقوبةً بضربة حجر قذفته نبّالة السماء، لم تفتك الشهب إلا بالناس، فما رأيتها قتلت حيوانًا واحدًا، أصبح الناس يتخفُّون بين الشجر، وتحت الصخور الكبيرة، لعلها تقيهم صولة الشهب والنيازك، لكن ذلك لم ينفعهم في شيء، ولم يمنعهم من الهلاك، فما أنْ يخرج أحدهم حتى تشقّه الحجارة، كأنها كانت ترصده وتترقب، ولا أدري لماذا لم يضربني نيزك، ولا صادني شهاب، وأنا على قبر أمي لا يظلّلُ رأسي غصنٌ، ولا يحول بيني وبينها حائلٌ؟!

لم تتوقف الشهب والنيازك التي تبحث عن صيد في كل مكان، حتى نفدت الفرائس كلها، هلكَ الناس جميعهم بعد سنةٍ أو سنتين منذ بدأ القصف، فما عدتُ أرى بشرًا في أي مكان، وها قد مرت سبعون سنة منذ شاهدتُ آخر إنسانٍ يمشي على قدمين، ورغم هلاكهم لم تتوقف الشهب، سبعون سنة والسماء تمطر نارًا، تنقطع أيامًا، ثُم تعود من جديد، حتى لم يبقَ في الأرض إلا البهائم، وحسّون.

خرجت يومًا أبحث عن شيء أسُد به جوعي، بعد مرور عدة أيام لم أذق فيها طعامًا، تتابع القصفُ فيها بغير توقف، وقد كنت دومًا ألتزم قبر صفية الحصين، حين يشتد الخطر، فوحده لا ترجمه النيازك، فلما غلبَ الجوعُ خوفي، قمتُ أبحث عن ثمار أجمعها. وبين الأشجار رأيتُ جروًا يئن، ويرفس أُمَّه لتقوم، لكنَّ أُمَّه قد سقطَت بحجر، فأدركتُ أنَّ الله قرر أنْ يزيل كل روحٍ عن الأرض، وحان وقت بهائمِها، لتهلك كما هلك البشر. مشيت مبتعدًا عن المكان، لكن رقّ قلبي لذاك الجرو الميتَّم، وقُلت أنا وحيد وهو مثلي، فلتؤنِس وحدتي وحدته، حملته وعدت به إلى القبر، فوجدته مرشوقًا بحجارةٍ لا حصرَ لها، كلٌّ منها في حجم عقلة إصبع، لكن لها قوة فتكٍ تحيلُ الحياةَ عدمًا في طرفة عين، فقلت لم يعد قبرُ صفية آمنًا،

سقطت أسوار حصني الوحيد، ولم يعد يصلح للنجاة أو السكن، كان ثقيلًا على نفسي أنْ أهجر قبرَ أمي، فتعللت لها بأني أخاف على الجرو، لا على حياتي.

أخذت الكلب وهربت به، وأنا لا أعرف إلى أين السبيل، فما عاد في الأرض كلها من سبيل، لكنَّ الجرو الذي في يدي ذكَّرني بغلام، صاحبي الذي قادني من قبل إلى النجاة، وأرشدني في الزمن الغابر إلى الكهف أعلى الجبل، فحملتُه وصعدت إلى ملاذي القديم.

الكهف كما تركتُه منذ ألفيّ سنةٍ وسبعة قرون، ما زال خيطُ الماء يسيل في جداره، وما دام الماء هنا فلن يعوزني شيء، أصبحتُ أتحيّن الوقت الذي تصمت فيه السماء عن لغو النيازك، فأنزل إلى السفح أجمع ما أستطيع جمعه، من الثمار والحطب، وإنْ وجدتُ صيدًا استحلَلْتُه، وقلت ليس لأجلي، بل لأجل الجرو الضعيف، كبُرَ الكلب وصار رفيق غربتي في وحشة الجبل، ينتظر عودتي بالطعام، ويداعبني مثل ولدٍ لم أرَه في حياتي يومًا، يسلّيني وأسليه، سميّتهُ (غلام)، كما سميّت رفيقَ الكهف في الزمن القديم.

خلا العالم كله من حولي، لكنَّ شيئًا جديدًا بثّه غلامُ في روحي، كان الدليل على أنَّ الحياة تستحق، كلما أطعمته وسقيته ورأيته يكبر، وجدتُ سعادة لا مثيل لها، وقيمةً لم أعرفها من قبل، حتى أصبحتُ أُحدِّث نفسي: «لو صفَت الحياةُ من جديد، ورضيَت السماءُ عن الأرض فأوقَفَت زخَّها الأليم، ربما أنزلُ إلى الأرض وأبحثُ عن الناس، فلعله قد نجا منهم أحد، سأعلّمهم كيف يتكلّمون، وأرشِدُهم إلى الطريق الذي ضللتُ عنه، أزرع فيهم ما زرعه غلامُ في قلبي، أعلمهم الوفاء والحب، سأُحدِّثهم عن الله، الله الذي أحسّه وأشعر به، ربما أحكي لهم كيف بادت الأمم وهلكت الممالك، سأخبرهم إني لستُ نبيًّا، ولستُ نصف إله، أبثّهم ما في قلبي، وليس ما في عقلي، سأعلمهم أنَّ العقل مرض، وأنَّ الشفاء في القلب الحكيم، لن أكلمهم بالتوراة ولا القرآن، سأضع يدي على قلوبهم، وأتحدَّث».

اجتاحت الآمال روحي، وامتلأت نفسي باليقين أنَّ العالم لم ينتهِ، وأني سأكون دليلَ الناس في التيه، وأنَّ الأرض ستعود لعهدها. سَمِعَتِ السماءُ حديثَ نفسي، فلم يتأخر جوابُها، قالت: «لا». بعدما كانت الشهب تضرب وتتوقف، تستيقظ وتنام، أصبحَت مثل نهرٍ لا يتوقف دفقه، أربعون يومًا من القصف، لا تتوقفُ النيازك فيها ساعةً واحدةً بليلٍ أو نهار، حبسني القصفُ في الكهف، ولولا غلام لهلكت جوعًا. نفد الطعام كله، فأصبح غلام يخرج من الكهف تحت الشهب والنيازك، يبحث بين الصخور حتى يأتي بحيّة بين فكّيه، أسلخ جلدها وأنزع سمّها ونتقوّت عليها يومين أو ثلاثة.

أربعون يومًا وأنا حبيسٌ عالة، يطعمني غلام، ثُم توقفت السماء عن القصف بغير سببٍ منذ ستة أيام، فخرجتُ من الكهف وقد أدركتُ أنَّ أحلامي بعالمٍ جديد ذهبت أدراج الرياح، وأنَّ الكون ينادي بالأفول الأخير، أربعون يومًا كانت كأنها أربعون ألف سنةٍ، لم يعد في السفوح ورقةٌ واحدة فوق غصن، صار كل شيء بلا حياة، أحرقت النيازك جذوع الشجر، ورجمت جذوره، وسحبت منه الحياة، سحقت كل عشبة خضراء، حتى صارت المروج مثل ساحة حربٍ بعد انتهاء المعركة، لا شيء فيها غير الموت والدخان، قبضَت النيازك روحَ الأرض، وأفَلَ العالم وشدَّ ستائرَه فوق النوافذ كلها، ففتحتُ صندوقي، وأمسكتُ أقلامي، وكتبت.

ستةُ أيام، سردتُ فيها حكايتي بذاكرة لم تُغفل أدقَّ حادثة ولا أصغر نكبة، كأنَّ الله أمدَّني بها لأجل هذا الكتاب، فلم أَنْسَ آلام السنوات الطوال، لماذا وضع الله الحكاية كلها نُصب عيني إنْ لم تكُن لأكتبها؟! ما ذكّرني بها إلا لأجل هذا الكتاب، لأشهَد على ما كان، أشهدُ لنفسي، حتى لو لم تصل شهادتي إلى إنسان.

إذا أمهلني الله إلى الغد ولم يطوِ عالمه، فسأضع كتابي بجوار ما ورثته عن أَبَويَّ، وأحمل صندوقي بما فيه، وألقي به

للبحر، لعل كتابي ينجو، كما نجا موسى من قبل. في ستة أيامٍ كتبته، وغدًا أحمله وأذهب إلى شاطئ القلزم، وألقيه.

لم يستطِع أبونا الأكبر حسّون أنْ يُحقق أمنيته؛ إذ إنَّ اليوم السابع لم يأتِ على الأرض.